بسم الله الرحمن الرحیم

# الإمام الصادق عليه السلام

## والمذاهب الأربعة

### الجزء السابع

تأليف

الأستاذ أسد حيدر

تحقيق

المجمع العالمي لأهل البيت (ع)

اسم الكتاب: الإمام الصادق عليه السلام و المذاهب الأربعة (ج ٧)
المؤلف: اسد حيدر
المحقق: لجنة التحقيق
الموضوع: كلام و تاريخ
الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة: الاولى ١٤٢٥ هـ ق
المطبعة: ليلى
الكمية: ٢٠٠٠
شابك: ٩٦٤-٧٧٥٦-٧٨-X ISBN: 964-7756-78-X

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

www.ahl-ul-bayt.org

# أهل البيت عليهم السلام
# في القرآن الكريم

إنما يريد الله
ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

# أهل البيت عليهم السلام

# في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي أهل بيتي

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً

« الصحاح والمسانيد »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ
عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا
وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

آل عمران: ١٩٣ و ١٩٤

# تَقْدِيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب

## تقديم

كان تأخر صدور هذا الجزء من كتاب «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» ـ وهو السابع ـ فترة انقطاع بيننا وبين القرّاء، لم تكن مقصودة، وكنّا ننوي أن يكون الجزء السابع نهاية البحث وخاتمة المطاف في سفر كلّفنا ثمناً غالياً من الجهد والعناء، وقد خفّف عنا ما لقيه من استجابة وإقبال لدى القرّاء. كم حاولت أن أتخطى عوائق العمل، وأذلّل ما أواجه من صعاب لمواصلة وإكمال البحث فيه؛ ليخرج هذا الجزء إلى أيدي القرّاء قبل هذا الوقت. إلّا أنّ العوائق تلك والصعاب كانت تزداد اتّساعاً وتعقيداً، وها أنا ذا أزاول نشاطي لإكمال السلسلة. فأتناول أهمّ الأبحاث المختصّة للحديث عن كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة بإيجاز استكمالاً لما سبق واستدراكاً لأمور لم نذكرها، إذ لم نتعرض لها من قبل كمعرفة الأولاد والأحفاد، والوقوف على بعض الآثار والآراء وأمور فكرية وفقهية أُخرى ممّا يضيق بها حيز الجزء السابع فأتبعناه بثامن.

نرجو الله أن يكون به كمال الفائدة ونهاية القصد. وقد آثرت تأخير الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام لما يتطلّبه ذلك من إفاضة في بعض الأُمور كالإشارة إلى أولاده وأحفاده الذين ورثوا مدرسته، وما يتعلّق بذلك من استطراد يقتضيه البحث في الحديث عن الطائفة الإسماعيلية التي تنسب إلى

إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق ، وما يحيط حياته من ملابسات ، وما وقع في ذلك من اختلاف .

وألتزم هنا نهج البحث في عوامل التعصّب الطائفي وأسباب الخلاف المذهبي كمشكلة تاريخية سبّبت الفرقة بين المسلمين وفكّكت وحدتهم وباعدت بينهم ، وقد خصصت في الأجزاء السابقة من الكتاب حيزاً كبيراً لدراسة نتائج التعصب وعوامل قيامه ، وأوضحت ما علق بفعل ذلك في أذهان الناس من أمور تسيىء إلى مفهوم الانتماء إلى المذاهب وغلبة نزعة العداء على جوهر المبادئ ، حتى أدى ظاهر الالتزام بها إلى الخروج عن ميزان الشرع ، وحدوث انعكاسات سلبية على المجتمع فأحدثت خللاً فيه ، إذ خرجت المنازعات عن حدود التوازن الفكري أو الخلاف الواعي ، فتعدّدت حدود الاستقامة والاعتدال ـ في السلوك والتصرف ـ إلى الاعتقاد ، حتى أصبح النص الوارد في الكتاب ـ عند بعضهم ـ لا يعمل به إن خالفه رئيس المذهب الذي أصبحت أقواله سنّة ومخالفته بدعة ، وعدم اتباعه كفراً ، حتى قالوا إن الكتاب تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب ، يقول الكرخي[١] : «الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة على النسخ ، أو على الترجيح ، والأولى على التأويل من جهة التوفيق . الأصل أن كل خبر يجيئ بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ ، أو يحمل على أنه معارض بمثله ، ثم صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه ، بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح ، أو يحمل

(١) عبيد الله بن الحسن أبو الحسن الكرخي ، ولد سنة ستين ومائتين ، ومات سنة أربعين وثلاثمائة ، انتهت إليه رياسة الحنفية ، كان من المجتهدين في المسائل على مذهب أبي حنيفة ، وله المختصر وشرح الجامع الصغير وشرح الجامع الكبير ، البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ٢٥٤ .

على التوفيق»[١] .

ويبين لنا هذا النص مدى الارتباط بالمذهبية والالتزام بأقوال الأئمة حتى وإن خالفت الواقع ، ويخضعون الكتاب لموافقة أقوالها ، وإذا امتنع النص القرآني فإنّهم ينسخون ويعملون بما جاء عن أصحاب المذاهب «فهم مدفوعون وراء المذهبية تعصّباً ، ويطرحون الدليل ويأوّلونه تأويلاً بعيداً لا يتفق مع الحقيقة . فهذه هي المذهبية التي يبغضها الله ورسوله»[٢] .

ولقد أدت شؤون الحكم ومقتضيات السلطان إلى تبني التمذهب وجعل الرئاسة في الفقه من أعمدة السياسة ، فتأثر ـ تبعاً لمواقف الملوك والحكّام ـ وجود ونشاط وانتشار المذاهب إذ لم يجرِ الحكام على مذهب بعينه ، وإنّما يتقرر ذلك بحسب الظروف والملابسات وعوامل النفوذ والغلبة سيّما وأنّ العالم الإسلامي بات مسرحاً للقوة يشهد نتائج الغلبة على شكل دول ووزارات وجيوش . ولا بد أن يكون القضاء ـ وهو من أكثر الوظائف استقراراً لأُصوله المعروفة وأهميته في حياة الناس ـ من أوليات شؤون السلطان التي تتسرب إليها موجات التمذهب ، وتتطلع إليها الرغبات ، فحصرت بعد زمن بالمذاهب الأربعة ، وسارت الأُمور على الاستعانة بما كان من مقتضيات السلطان في الأساس ، وهو تحديد المراتب الفقهية والمراجع في أشخاص بأعيانهم .

يحكى عن أبي زرعة ـ تلميذ البلقيني ـ أنه سأل أُستاذه عن المانع للشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وهو جامع للشروط ؟ فسكت البلقيني

---

(١) الدكتور مصطفى سعيد الجن ، نقلاً عن أُصول الكرخي ، ص٨٤ القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) الدكتور مصطفى سعيد الجن ، أثر الأخلاق في القواعد الأُصولية ، ص٩ .

ولم يُجب . فقال أبو زرعة : «فما عندي أن الامتناع عن ذلك ليس إلّا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وإن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينل شيئاً من ذلك ، وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس عن استفتائه ، ونسبت إليه البدعة . فتبسم ووافقني على ذلك»[1] .

وامتد تأثير ذلك لينعكس على نهج التعامل مع وقائع التاريخ وروح المبادئ ، فراح أغلب المؤرخين ينقادون للنزعة الطائفية المشبعة بالعصبية الأقليمية أو القبلية معتمدين على الخرافات والادعاءات التي تؤجج نار الفرقة وتزيد الانقسام ، لتطغي حدة الخلاف على الحقيقة ، وتدفع الأُمور في مسار لا يخضع لمنطق ولا يأبه بالشواهد إرضاء لرغبة الحكام ، وتزلفاً لذوي السلطة ، وبذلك عجّ التاريخ بما نجم عن تلك النزعات ، فأصبح البحث عن الحقيقة والتوسل إلى استخلاص الواقع ، أو استنباط الجوهر محاطاً بعوائق وصعوبات ، بعد أن أدى تقادم الزمن واستمرار القناعة بما صدر عن مصادر التعصّب وجهات الانقسام ، إلى أن تكتسب شكلاً ثابتاً يقف بوجه موجات الوعي التي تنمو بين شبابنا المسلم المتصف بروح العلم والموضوعية .

لقد كان التحيّز في طرح مواضيع لها أهميتها لتعلّقها بحياة المسلمين وتفاصيل وجودهم هوية الباحثين المرتبطين بالسلطة ، وكانت نبرة الفرقة ودعوة الانقسام ، بطاقة الدخول إلى عالم التصور والرفاه السلطوي؛ وبذلك ارتكب هؤلاء جناية على أجيالنا؛ إذ تنصلوا من مهمات الباحث ومسؤولياته ، وتخلّوا عن أُصول الأمانة في نقل الأحداث وتصوير الظروف والعوامل ، فساقوا الآراء دون تمحيص أو تقدير لمرحلة أو وضع تاريخي

(١) فقه السنة ج١ ص١٠

معيّن . وأنّى لنا الحصول على نهج تاريخي يراعي مصلحة الأُمة ويقدّر ضرورات الدين أو الدّعوة ، ما دامت أهواء السلطة والتحكم كامنة وراء ما يصدر عن الباحثين .

ورغم ذلك ، لم يتعدّ الخلاف بين المسلمين المسائل الثانوية والفقهية ، إذ لم يكن الخلاف يوماً في التوحيد أو الكتاب أو السنّة ، فهم بحمد الله متفقون على توحيد الله وعلى كتابه ، ومجمعون على أنّ ما بين الدّفتين هو القرآن بدون زيادة أو نقصان ، ولم يختلفوا في وجوب الأخذ بسنة النبي ﷺ وإن اختلفوا في الفهم أو التفسير ، أو توقفوا في تحقيق الطريق الموصل إلى أخذ الحديث صدر عن الرسول أو لم يصدر .

ولقد هيّأ الله لهذه الأُمة علماء جنّدوا أقلامهم لمواجهة نتائج دعوات التعصب والانقسام؛ فكتب الكثير منهم في ذلك حرصاً على سنة النبي ﷺ ومنعاً لأيدي العابثين من الوصول إليها ، ودحضاً للكذّابين والجهال .

وقد ركزنا في البحث حول الخلافات المذهبية والنزعات الطائفية التي أدّت إلى الفتنة والشقاق ، فعطّلت قوى الأُمة وشلّت طاقاتها .

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد منذ فجر الدعوة بذور الفرقة والشقاق ، فإنّنا لا نودّ أن نتعرّض في بحثنا إلى مجريات عهد الخلافة وآثار الخلافات على المجتمع الإسلامي ، وبروز النزعات الشخصية والمصالح الذاتية . ولا للخصومة في مرتكب الكبيرة وغيرها . وإنّما بحثنا في المذاهب واتّساع عوامل الفرقة والخلاف التي أدّت إلى فتن غذّاها الاختلاف في الآراء ، وما رافق ذلك من مهاترات وخصومات تطوّرت إلى حروب سالت فيها دماء ، وأُهينت كرامات ، وانتهكت حرمات .

وقد رأينا فيما سبق من أجزاء البحث ، كيف تضافرت عوامل عديدة على

إثارة المشاكل ، وكيف وقعت الأُمة في امتحان قاسٍ ، وقد كانت ظروف الفتنة وشيوع الاضطراب ، فرصة للجهلة والغوغاء من الناس للظهور واحتلال مواقع ، فيما اضطهد المفكرون وكمّت أفواههم. ونورد هنا قول العلامة المصلح الشيخ محمد عبده الذي يعكس هذا الظرف فيقول : «والسبب في بقاء قوة سلطان الخلاف والنزاع هو تفشي الجهل ، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي ينتسبون إليها ، وبجاهها يعيشون ويكرمون ، وتأييد الأمراء والسلاطين لهم ، استعانة بهم على إخضاع العامة ، وقطع طريق الاستقلال العقلي على الأُمة . لأنّ هذا أعون على الاستبداد ، وأشدّ تمكيناً لهم مما يحبون من الفساد والإفساد . فاتّفاق كلمة علماء الأُمة واجتماعها على أنّ الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه ، لأنّ الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكّام ، فالدّين يأمر برفع الشقاق والتنازع وبالاعتصام بحبل الوحدة ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ وقول النبي ﷺ : «**ولا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم أعناق بعض**» .

ثم يقول المرحوم الشيخ محمد عبده : وقد خالفنا كلّ هذه النصوص ، فتفرقنا وتنازعنا ، وحارب بعضنا بعضاً باسم الدين؛ لأنّنا سلكنا مذاهب متفرقة ، كل فريق يتعصّب لمذهبه ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله ، زاعماً أنّه بهذا ينصر الدين ، وليس في ذلك إلّا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين ، هذا سنّي يقاتل شيعياً ، وهذا شافعي يغري التتار بحنفي ، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمية»[1] .

---

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص٦٥ ـ ٦٦.

ويقول السيد رشيد رضا : «حتى أنّ من أتباعهم - أي أئمة المذاهب - من قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح ، فإنهم يردّون كلام النبي المعصوم - مع اعتقاد صحة سنده - بقول نقل عن إمامهم ، ويتعللون باحتمالات ضعيفة»[١] .

ولا أملك أن أستطرد دون أن أشير إلى أنّ هذا القول هو تعبير عن واقع يأتي مصحوباً بخروج عنه ، وميل إلى ما استنكر فيه ، إذ أن السيد رشيد رضا شهد فترة نضج جهود المصلحين المحدّثين ، وتبلور أفكار الوعي ، غير أنّه أسهم هنا وهناك فيما يخالف اتجاه التحرر من التعصب ونهج التحقق والبحث اللّذين اتّسم بهما فكر الفترة الدينية التي يتصدرها المرحومان: السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمّد عبده ، والذي تلاقح وتمازج مع تيارات الوعي ودعوات الوحدة الإسلامية .

وهناك صور من حالات الانقسام والشقاق ذكرها ابن قدامة : «ففي طرابلس الغرب ، ذهب بعضهم إلى المفتي وقال له: اقسم المساجد بيننا وبين الحنفية ، لأنّ فلاناً من فقهائهم يعبر عنا كأهل الذمة ، بما أذاع في هذه الأيام من اختلاف الأحناف في : هل يجوز للحنفي أن يتزوّج الشافعية ؟ فقال بعض الأحناف : لا يصحّ لأنّها تشكّ في إيمانها ، لأنّ الشافعية يجيزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله . وهذا يدلّ على عدم تيقّنها في إيمانها في الله ، والإيمان لا بد له من اليقين .

وأنّ بعض الأتباع سمع رجلاً يصلّي مأموماً يقرأ الفاتحة ، فضربه بيده على صدره ضربة قوية وقع منها على ظهره وكاد يموت . وأنّ بعضهم كسر سبّابة

---

(١) انظر مقدمة المغني لابن قدامة ج١ ص١٢ - ١٤ .

رجل لأنه رفعها في التشهد ، بفتوى أحد علماء الحنفية ـ وهو الكيداني ـ بحرمة رفع السبابة ، واعتبروا ذلك نصاً إلهياً ، وحكماً قطعياً فمن خالفه عوقب على جريمته»[١] .

ويذكر العلّامة العز بن عبدالسلام الشافعي في أمور الأخذ بما فيه اختلاف ، وأن لا بأس بفعل أو ترك ما لا ينقض الحكم الشرعي: أنّ الناس لم يزالوا على ذلك يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال ، فكأنه نبي أرسل إليه . وهذا نأي عن الحق ، وبُعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب . . . إلخ[٢] .

ويقول التاج السبكي : ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في العصبية بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض إلى غير هذا مما يستقبح ذكره ، ويا ويح هؤلاء أين هم من الله! ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله حيين لشدّدا النكير على هذه الطائفة[٣] .

كما يذكر ابن قدامة أنّ أربعمائة قاض حنفي وشافعي هاجروا فراراً من تحكّم الغوغاء . وحدثت بدمشق عدة حوادث بين الشافعية والحنابلة ، وبين الشافعية والحنفية ،كل ذلك بسبب الطعن في المعتقدات لأُمور تافهة . فمثلاً أنّ ابن القشيري ـ وهو أحد علماء الشافعية ـ يدخل بغداد ، ويرقى المنابر للوعظ ، فتقوم قائمة الحنابلة ، وتقع بينهم وبين الشافعية فتنة ، وبسبب ذلك

---

(١) انظر مقدمة المغني لابن قدامة ج١ ص١٢ ـ ١٥ .

(٢) انظر عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد للدهلوي ص١٢ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص ١٣٠ و ١٣١ .

يسجن بعض العلماء لإطفاء نارها[١].

وفي سنة (٤٢١ هـ) جرى بين بعض الأتراك وبعض الهاشميين منازعة، فاجتمع الهاشميون ومن والاهم من الشيعة وغيرهم في مسجد المدينة، ورفعوا المصاحف واستفزّوا الناس، فاجتمع لهم العدد الكبير من الكرخ. واجتمع الأتراك وهم جند الدولة وأعيان بغداد في ذلك اليوم واشتد القتال بين الطرفين[٢].

ولا يخفى دور السلطة فيما يحدث، وأنّ الفتن التي تجري ـ وما يتخللها من نيل من مقامات العلم، وتعدٍ على أصحاب المكانات الدينية ـ من صنعها، فينحاز الحاكم إلى طرف دون آخر. في حين يعلم أن ذلك من تعاطي السفهاء ـ كما ينصّ ابن كثير[٣] في وصفهم ـ وإلّا كيف يضرب خطيب جامع بالآجر ويكسر أنفه ويخلع كتفه؟ ولماذا يقبل آخرون على أُناس يحيون ذكرى عاشوراء بالحديد، فيقتتلون اقتتالاً شديداً، ويقتل من الفريقين طوائف كثيرة، وتجري بينهم فتن وشرور مستطيرة؟

ويحدّثنا ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٩٤ هـ): أنّ السلطان قتل خلقاً من الباطنية يبلغ عددهم ثلاثمائة ونيفاً، وكتب بذلك كتاباً للخليفة، فتقدم بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك المذهب، وزاد تتبع العوام لكل من أرادوا، وصار كل من في نفسه شيء من إنسان يرميه بهذا المذهب، فيقصد وينهب[٤].

(١) سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٢٤ / ٢٤٧.
(٢) البداية والنهاية ج١٢ ص٢٦ و٢٨.
(٣) البداية والنهاية ج١١ ص٣١٢.
(٤) المنتظم لابن الجوزي ج٩ ص١٢٠.

كما وقع كثير من الفتن بين الناس بسبب اختلاف الآراء بين العلماء من فقهاء ومفسرين ، فبدلاً من أن تعقد المجالس لرفع ذلك الالتباس وإزالة الخلافات ، أصبحت مثار فتن، وسبباً لتدخل الغوغاء وأصحاب الأهواء الفاسدة ، المندسّين في صفوف المسلمين .

وقد حدث أن اختلف الحنابلة وغيرهم من السنة في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ فقالت الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يُقعد الله نبيه على عرشه . وقال غيرهم : أنّ المقصود هو الشفاعة ، واحتدم الجدل ، واتّسع النزاع بسبب ذلك الخلاف ، واقتتل الحنابلة مع خصومهم[١] إذ كانت لهم القوة في بغداد لمساندة السلطة لهم والتفاف العامة حولهم وانضمام كثير من الجند إليهم . وقتل منهم قتلى كثيرة ، وكان جماعة أبي بكر المروزي أبطال هذه الفتنة[٢] واعتمدوا على القوة .

واستمر مدة من الزمن يرهبون قلوب الناس ، ويتعرضون بالشرّ لغيرهم من الطوائف ، وإغراء بعضهم بعضاً . مما حمل الخليفة الراضي على إصدار منشور في ردعهم بالقتل إن لم يرجعوا عن غيّهم[٣] .

ومن الملاحظ أنّ هذا المنشور قد أوقف نشاطهم . عن إثارة الفتن والوقيعة بغيرهم ، وخفف عن الناس بعض تلك الشرور التي لحقتهم بفعل التعصب لعقائد في التجسيم وآراء واهية مشبهة تجعل الله كالمخلوقات والمحدثات ، ومن نيل لمقامات الأولياء ومظاهر الاحتفال بسيرهم . وكان الراضي صريحاً في إعلانه وشديداً في بيانه، وقد توعّدهم في ختامه بالعقوبات

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ج٨ ص١٣٢ .
(٣) تجارب الأمم ج١ ص ٣٢٢.

الصارمة . ومما جاء في منشوره : «ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن ، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوّارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام . . . الخ» ومضمون البيان يعبّر عن عودة إلى أُصول الحق وقواعد التفكير السليم .

وفي أحضان الحكام والمتنفّذين ، نشأ التعصب عنيفاً ، وغدا من أسلحتهم الفتاكة . فاستغل الحنابلة وجود من يتعصب لمذهبهم في فترة ردود الفعل وانعطاف الخلفاء الحكام لاستمالتهم في مواجهة آثار التطرف والتجاوز التي ارتكبت من المعتزلة عندما ركنوا إلى السلطان وتناءوا عن مصادر الفكر . فكان الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة حنبلياً متعصباً لمذهبه ، فنعموا في ظل سلطته ، وتصرفوا في أُمور لا يسوغ لهم الدخول بها . ولم تعدم المذاهب الأُخرى من مناصرين لها باستعمال سلاح التعصب والطائفية ، فكان من يعهد إليه بوظيفة يوجه جهوده لنصرة مذهبه ، والتحامل على غيره . فكان مرجان الخادم شافعي المذهب ، تعصب على الحنابلة ، وكان بينه وبين الوزير بن هبيرة عداء لأنه حنبلي ويتعصب لهم ، كما نصب العداء لابن الجوزي ـ وهو عالم الحنابلة والمبرز في عصره ـ وكان في عصرهما الأمير محمد بن موسى التركي أمير دمشق ـ وهو حنفي المذهب ـ ويتعصب للحنفية تعصباً مفرطاً ، ويعادي بقية المذاهب ، وبالأخص الشافعية ، وكان يعلن بأنهم ليسوا من المسلمين ، ويقول : لو كانت لي الولاية لأخذت من الشافعية الجزية[1] .

وعندما برز الوزير نظام الملك في محافل الملوك لم يقدر على تحقيق

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص١٧٥ .

السيادة للشافعية ، والحدّ من تعصّبات الجماعات التي عكفت على حش المعاداة ، فكان يختار من العلماء من يستشعر فيه القدرة والمنزلة ، ويبعثه إلى بغداد . ولكن الحنابلة كانوا لا يترددون عن استخدام الشتم والسب ، ودفع الأمور إلى الاضطراب والهياج .

وقد تكلمنا غير مرة عن الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى هذه الحالة التي أصبحوا عليها من تباعد وتباغض وتراشق بالكفر والزندقة .

ولنمضِ قليلاً مع ألوان الأحداث وصور المجتمع وهو يقاسي الفرقة . وما أحدثه التعصب من تباعد وعداء وتباغض تسيئ إلى رابطة العقيدة ، وتبعد عن روح الإسلام ونظمه التي تجعل لكل حقه . وقد كان أبطال التعصب ودعاة الفرقة وجنود الشغب يتعاهدون عوامل معينة بالرعاية ، ويعملون على إذكائها ويحاربون كل ما من شأنه العودة إلى روح الدين وفضح البواعث وكشف الدوافع التي تقف وراء تلك الأحداث .

فهي إذا ما قامت من مستوى السلاطين؛ تلونت بحسب الرغبات ومصالح الحكم التي تمحورت حول أغراض ضيقة وغايات خاصة ، وهي إذا ما بدرت من أصحاب المواقع على اختلافها وهيئاتها ، كانت ستاراً للإبقاء على واقع التمتع والنفوذ ، فيما نرى الناس تكتوي بنار الفرقة ، ويتمزّق كيان المجتمع الإسلامي ، وتسود روح من العداء التي تنكرها أبسط روابط الإنسانية ، فكيف إذا كان الأمر بين أقوام وطوائف تجمعهم كلمة التوحيد؟ ويفترض أن تشدّ قلوبهم وتجمعها شريعة النبي المصطفى محمّد ﷺ .

وسنعرض فيما يلي بإجمال بعض العوامل الكثيرة الأخرى :

# الجُمُودُ الفِكْرِيُّ

فقد ضمن الإسلام بمبادئه وقيمه وضعاً فكرياً يؤدّي إلى تطور حالات الإنسان وتقدمه الحضاري ، ويدفع بمن امتلك قدرة الفكر وموهبة العلم إلى اغتراف مناهل المعرفة والأخذ بمضامينها . فكان التفاعل الفكري والعطاء العلمي سمة المجتمع في صدر الإسلام ، وصفة الدعوة المحمدية التي بدّلت أوضاع الإنسانية ، وأحدثت الثورة في حياة الشعوب التي آمنت بها وانشدّت إليها .

وكان التطور الفكري مقياساً أساسياً في التعامل الحياتي والوجود الإنساني للمجتمع المسلم ، حتى إذا حدثت الفرقة بعد استحكام النزعة الطائفية ، واستفحال التعصب المذهبي ، برزت عناصر كثيرة تقف بوجه ذلك التطور والتقدم الفكري؛ إذ لا يمكن للآراء المنحرفة والدعاوي الفارغة أن تجد لها موقع قدم أمام ما بلغه المسلمون من مستوى فكري . فكان الجمود العقائدي أو الفكري أقرب إلى الجهلة وذوي الأغراض والأفكار المنحرفة ، وأنفع لهم ، فلقي المفكرون ضروباً من المقاومة الشديدة والجفاء الظاهر ، لكي يعطل وعيهم ، ويبعد أثرهم ، وتتاح لأولئك الذين يعملون على نشر الفرقة الفرصة ليغطّوا جهلهم ، ويحققوا لأنفسهم مكانة على حساب وحدة المسلمين ومصلحتهم .

ونحن عنما نستعرض جوانب وصوراً من هذا الواقع ـ بعد قرون طويلة ومراحل متعددة ـ نرمي إلى كشف عوامل ذلك وعواقبه في مرحلة يتصاعد فيها وعي نشئنا المسلم وأجيالنا الواعية ، حتى يتبينوا واقع الدعوات

والتيارات التي تحاول تجديد تلك الفرقة، وإعادة ذلك الخلاف بعقليات متحجرة ودعوات متخلّفة ، لا تختلف في دوافعها وحقيقتها عن عوامل وأسباب قيام الفرقة في المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي .

والدعوة الصادقة تبقى محتفظة بتأثيرها ونقائها ، ودعوات الفرقة مفضوحة مهما تلبست ستار العلم أو برقع الثقافة ، وإسهاماً في تحمل مسؤولية نشر الألفة والمحبة ، نبعد عن التحامل على أحد ، ولا نتجاهل واقعاً نقف عليه ، أو برهاناً يفرض نفسه . فالتزام النظرة الصائبة والدعوة الصادقة يجعل ترشبات الماضي موضعاً للانتقاء والاختيار ، فيهمل ما كان منه مشوباً بهذه الصفحات ، ويعتمد ما كان منهما مدعاة للوحدة والائتلاف .

لقد عصفت بالمجتمع الإسلامي عواصف الخلاف ، وظهر التصدّع في الصفوف بعد أن مني الإسلام بداء عصبية عمياء ، ومذهبية ما أنزل الله بها من سلطان ، وكثرت عوامل الخلاف ، وقويت شوكة الجهلة عندما حورب العلماء ، ورمي الفلاسفة بوجه عام بالزندقة ، وتشعبت فروع ذلك ، وأصبح المجال واسعاً لزرع بذور الفرقة ، وكثر الصراع في مسائل افترق المجتمع حولها ، فتفرقت الكلمة ، فمنها الجمود الفكري . والجمود الفكري ـ كما تقدم ـ كظاهرة قوية في هذا الواقع المؤلم ، بعد أن جعل الإسلام حرية الفكر نبراساً للعقول والأفهام ، وطريقاً للاهتداء إلى عالم الحق ، وأصبح المفكرون في نظر ذوي الجمود وفي نظر من آثر التسرّع في الحكم على الأشياء قبل معرفتها ، لعجزه عن المجاراة والمساهمة في حركة الفكر أهواء أو زندقة ، فذهبت الدعوة الصادقة ضحية الحجر على حرية العقل ، أو نتيجة الجمود الفكري الذي أقرّته سلطات جائرة وأوضاع منحرفة وتدخلات مختلفة ، فكان ذلك حائلاً دون تمتع الناس بحقوقهم .

وكان الذين يلتزمون نهج التحرز الفكري والاحتكام إلى العقل كالشيعة والمعتزلة وغيرهم من رجال الفكر قد لاقوا في سبيل حرية الفكر بلاءً ، وواجهوا محناً ؛ لأنهم لم يحجبوا نور العقل بظلمة التبعية العمياء؛ فربطوا بينهم وبين من شذّ في علم الكلام عن النهج القويم ، وذلك عندما أقبل المسلمون على دراسة الكتب المنقولة من كتب الأوائل من : منطق ورياضيات وطبيعيات والعلوم الإلهية والطب والحكمة العملية وغيرها من علوم الأوائل التي نقل شطر منها في عهد الأُمويين ، ثم أكمل في عهد العباسيين . فقد ترجموا مئات الكتب اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية ، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم ، ولم يلبثوا كثيراً حتى استقلوا بالنظر ، وصنفوا فيها كتباً ورسائل ، وكان ذلك يغيض علماء الوقت ، ولا سيما ما كانوا يشاهدونه من تظاهر الملاحدة والدهريين ، والطبيعية والمانرية... إلخ[1] .

ومن المظاهر المؤلمة ما تعرض له أبو جعفر بن جرير الطبري ـ صاحب التاريخ والتفسير المشهورين ـ سواء في حياته أو في مماته ، فنحن نعلم أن للأموات حرمة ، ولأن كانت غريزة الكره والحقد تجد مجالها بين الأحياء ، فإن ارتحال الطرف الآخر كافٍ للكفّ عن استمرار الغرائز الملتوية . يقول ابن كثير : «ودفن في داره لأن بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً ، ونسبوه إلى الرفض . ومن الجهلة من رماه بالإلحاد ، وحاشاه من ذلك كله . بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، وإنما تقلّدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري ، حيث كان يتكلم فيه

---

(١) الميزان للطباطبائي ج٥ ص١٧٦ .

ويرميه بالعظائم وبالرفض . ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد ، وصلّوا عليه بداره ، ودفن بها ، ومكث الناس يترددون إلى قبره شهوراً يصلون عليه . وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين ، وكتاباً جمع فيه طريق حديث الطير . ونسب إليه ، أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء ، وإنه لا يوجب غسلهما»[١] وبمرور الوقت عجز خصومه عن طمس شواهد علمه؛ فأخذوا بالقول بأن هناك طبريين أحدهما شيعي يستحق هذا العداء . وإن كل ما جاء من الحق على لسان الطبري ، وكل ما ذكره هذا المؤرخ والمفسر الكبير من الحقائق هو من الطبري الآخر ، يقصدون محمد بن جرير بن رستم المحدث الإمامي الثقة ، وقد اشتهر بكتابه «المسترشد في الإمامة» وعرف بالمناظرة والكلام ، وليس هناك ما يساعد على الخلط بين الاثنين ، فآثار كلّ منهما مستقلة ومعروفة ، والقول بمثل هذا ينمّ عن القصد السيئ .

وكان للمسلمين مكانة في علم الكلام وغيره ، وامتازوا عن سواهم بأُمور كثيرة . وكانت مقاومة المفكرين بأساليب مختلفة وعبارات لا تعبّر إلّا عن سوء الفهم . فقد رُمي المتكلّمون بالكفر والزندقة والخروج عن الدين حسب ما ترتضيه السياسة ، وما تراه في خدمة مصالحها ، فوسعت شقّة الخلاف بين المتكلّمين وبين الفقهاء ، وشجعت الحملة على المتكلمين ورميهم بالكفر . فكانت تلك الحركة ضد علم الكلام سبباً في تضييق آفاق الفكر ، وسد أبعاده ، وتقييد روح الإبداع ، حتى هدّد العلماء من المتكلمين .

وقد ساعد على ذلك آراء بعض أئمة المذاهب وأتباعهم ، إذ كان بعضهم

---

(١) البداية والنهاية ج١١ ص١٦٧ .

يرى لزوم تعزير أهل الكلام وضربهم وإهانتهم ، وأن يطاف بهم في العشائر . واشتهر عن الشافعي أنه قال: إياكم والكلام . وقال : لأن يبتلي الله المرء بكل ما نهي عنه ما عدا الشرك به خير من أن ينظر في علم الكلام[١] .

ووجد زعماء الفتن وعناصر الشغب فيما أوثر عن الإمام الشافعي وغيره سلاحاً مجرداً يستخدمونه لتحقيق أغراضهم ، وتغيير الواقع إلى الجمود والتخلّف . رغم أن هذه الآراء في حقيقتها وظروفها تعبّر عن حرية الرأي وقدرة الاجتهاد ، ومع هذا نجد أن الإمام الشافعي ينص على دوافع مثل هذا التوجه ، ويلتفت إلى تلك الأجواء ، إذ قال للربيع : إياك وعلم الكلام . وعليك بالاشتغال بالفقه والحديث . ولئن يقال لك أخطأت خير من أن يقال لك كفرت[٢] .

وقد نضج علم الكلام في عصر الشافعي ، واتسع نشاط المتكلمين ، وأثيرت هناك مسائل كثيرة دار حولها النقاش والجدل . ولا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين من طريق المعقول لتقوية جانبه ، والرد على مخالفيه ، ولكن من باب درء الخطر من الانهزام أمام المفكرين ، أغلق الباب بحرمة تعلّم علم الكلام ، بل حرمة الاستماع إليه ، وحكموا بكفر من يتعلمه .

وكان للفلسفة في أول زمن الدولة العباسية سوق رائج ، فقد كانت بغداد في أواسط القرن الثاني إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة ، كما كانت البصرة كذلك منذ القرن الأول ، يقصدها العلماء من البلدان القاصية ، ويتذاكرون صنوف العلم ، ويتقارضون بأنواع الحكمة . وكانت بغداد مدة

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٤٥٣ .

(٢) الجواهر واليواقيت ج١ ص١٧ .

ثلاثة قرون مبعث الحركات الفكرية ، والعلماء فيها يوحدون صفوفهم .

وكانت الحكومة لا تعارض مجالس النظر والحجاج ما لم يضر بمصالحها ، أما إذا كان البحث في الإمامة وما يتعلّق بها من إعطاء الفكر مجالاً في أمور يتطلب البحث فيها إيضاحاً لما أبهم منها؛ فإن ذلك محضور لا تسمح الدولة في خوضه .

واشتدت الحكومات في القرن السادس بمطاردة علوم الحكمة . وحرّم ابن الصلاح المنطق والفلسفة ، ولم يتمكن أحد في دمشق من قراءة كتبها ، وكان المنادي ينادي : من ذكر غير التفسير والحديث والفقه ، وتعرّض لكلام الفلاسفة ينفى . وأفتى الذهبي بتحريق كتب علوم الفلسفة ، وإعدام علمائها والقائمين عليها ، إذ يقول : وما دواء هذه العلوم ، بعلمائها القائمين بها علماً وعملاً إلّا التحريق والإعدام من الوجود[1] . حتى عُدّ الاضطهاد في سبيل المذاهب والأفكار سمة السياسة لأنه «منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور في المعتقدات والآراء يُحمل إلى الولاة ، فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه ، وما فتيء المهيمنون على الشريعة يثيرونها حرباً شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يَدْعُ ، ويكفي في بلائه خروجه عن المألوف والعرف»[2] .

❊ ❊ ❊

وانتهز العوام والمتفقهة فرصة غضب الملوك على الفلاسفة؛ فراحوا يروّجون التهم حول كثير من علماء الأُمة إذا وجدوا ميلاً من السلطان نحوهم ،

(١) الحضارة الإسلامية، كرد علي ج ٢ ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٩ .

وكان شهاب الدين السهروردي من الحكماء الذين قرّبه الملك الظاهر غازي ولد السلطان صلاح الدين ، فحسده علماء عصره ، وناظروه فانتصر عليهم . فالتجأوا إلى الدسّ والكذب ، ورموه بالكفر والإلحاد ، وطلبوا استئصال الشر بقتله حتى لا ينفذ إلحاده ، فتمّ لهم ما أرادوا ، وأمر السلطان ولده بقتله بلا مراجعة . فقتله سنة (٥٨٦ هـ) عن ٣٦ سنة ، وعرف في التاريخ بالشاب المقتول .

وقد أورد ابن أبي أصيبعة أن الظاهر غازي بن صلاح الدين ، دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردي ، فانتصر عليهم وأفحمهم ، فزاد حقدهم عليه ، فدبّروا له تهمة المروق عن الدين ، وعملوا محاضرة بكفره ، وسيّروها إلى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا : إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر ، وكذلك إن أطلق فإنه يفسد ناحية يكون بها من البلاد . وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك ، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقّه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه : إنّ هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله[1] .

ومكانته في الفلسفة لا ينكرها حتى أعداؤه ، فهي من أبرز صفاته عندهم ، كما أن من أبرز معالم سيرته هو قتله دون بيّنة؛ حتى أنّ السلطان الذي غلب عليه الذي ساءهم انتصار السهروردي عليهم ندم ونقم على الذين أفتوا في دمه ، وقبض على جماعة منهم وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة[2] كذلك فإنّ الذين يرمونه بالزندقة من المؤرخين لا يملكون إنكار براعته في

(١) ابن أبي أصيبعة ، الطبقات ص٦٤٢ .
(٢) ابن أبي اصيبعة الطبقات ص ٦٤٤ .

علم الكلام ، وكونه مناظراً محاجاً زاهداً ، من أذكياء بني آدم ورأساً في معرفة علوم الأوائل (١) .

وذكر العماد الأصفهاني ـ المعاصر له ـ أن الفقهاء دعوا السهروردي للمناقشة في المسائل الفقهية ، وفي مسائل الأصول ، فظهر عليهم ، فحقدوا عليه ، وبيتوا أمرهم إلى الثأر منه ، فدعوه إلى مناقشة علنية أُخرى في مسجد حلب ، وسألوه : هل يقدر الله على أن يخلق نبياً آخر بعد محمد ؟ فأجابهم الشيخ : بأن لا حدّ لقدرته . ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبي بعد محمد ﷺ وهو خاتم النبيين ، ومن ثمة أعلنوا مروقه من الدين ، وكتبوا محضراً بكفره سيروه إلى السلطان ، فأمر بإعدامه وإحراق كتبه (٢) .

واستمر أعداء حرية الفكر ودعاة الخضوع لسلطان الجهل والتقليد الأعمى بالحرب لعلماء الأمر ؛ فثارت الأحقاد ، وظهرت العداوات والانتقام . فهذا الفيلسوف ابن رشد ـ وكان مالكي المذهب ومن فقهائهم ـ تولى القضاء بأشبيلية مدة تزيد على عشر سنوات ، وقد قرّبه الملك أبو يوسف الملقب بالمنصور ، مما أثار حسد الفقهاء والمتزمتين ، فرموه بالكفر والزندقة ، وتمكّنوا من تغيير الخليفة ، فنقم عليه واستجوبه فقهاء قرطبة ، وقرّروا أن تعاليمه كفر ، ولعنوا من يقرأها ، وحكموا عليه بالكفر والنفي من بلده . وأمر الخليفة بحرق كتبه وكتب الفلسفة في جميع البلاد ، ولعن ابن رشد ، ونفي إلى جزيرة في قرطبة . وإنما لم يحكم على ابن رشد بالقتل أسوة بغيره ممن اتهم بسوء الاعتقاد؛ لأن الذي يرأس المحكمة ويصدر الأحكام كان من علماء

---

(١) شذرات الذهب ج٢ ص ٢٩٠ .

(٢) معجم المطبوعات العربية اليان سركيس، ج١ ص ١٠٦١ عن مقدمة كتاب هياكل النور .

المالكية ، فكانت المحكمة التي تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة أو الزندقة إنما يسند أمرها إلى القضاة المالكية لأنهم يخالفون سائر المذاهب في هذه التهم التي تلصق بمن تحاول الدولة قتله باسم الدين .

فعند المالكية يقتل المتهم بالضلال أو الزندقة أو البدعة أو ما شئت فقل من مقررات الحكم الجائر . فيصدر الحكم في حقه وإن تاب ، بخلاف بقية المذاهب؛ لأن رأي مالك أن المبتدع أو الزنديق ينفذ فيه حكم الإعدام وإن تاب .

لقد أدى شيوع ذلك إلى حالات من الجهل والجمود وتحكم الفوضى . فنشط العامة بما يرضي أطماعهم ويجلب عليهم نعم السلطة والمتحكمين ، فأصبحت الطبقات الحاكمة هي التي تقرّ العقائد التي تراها أكثر نفعاً لها وأقرب إلى الاستجابة عليها ، فتلتقي إرادة المتحكمين مع رغبة المتنفّذين والمستفيدين من تيارات التعصب هذه . ففي سنة (٤٣٣ هـ ) تصدر الدولة أمراً باتّباع ما تراه من العقائد . فكان منشورها يتضمن أهم المسائل العقائدية التي هي محور الخلاف في ذلك العصر ، فهو يتضمن بعد التوحيد والإقرار لمحمدﷺ بالرسالة : عقائد مذاهب أهل السنة . وجاء فيه : أن من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم . وأن يلتزم الناس بحب الصحابة كلهم . وأنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله أبو بكر الصديق ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، وأن يشهدوا للعشرة المبشّرة بالجنة ، وأن يترحموا على أزواج النبي ﷺ ومن سبّ عائشة فلا حظّ له في الإسلام . ولا يقول في معاوية إلّا خيراً ، ولا يدخل في

شيء شجر بينهم[١].

ووقع المنشور في أغلب ما تضمنه موافقاً لرغبة العامة، حيث يؤدي بمحتواه إلى شلّ الحركة العلمية التي تخالف آراءهم. فاتباع ذلك النظام لازم، ومخالفه يُعدّ كافراً، وقد كتب الفقهاء خطوطهم، وحكموا بفسق وكفر المخالف. كما أصبحت السلطة القضائية تخضع لهذا المرسوم، وتعاقب بموجبه، فمن اتهم بالمخالفة حكم بكفره وحلّية دمه، فأصبح العلماء بين خوف العامة وغضب السلطة، وليس وراءه إلاّ سيف النقمة، فلا يستطيع أحد أن يبدي رأياً فيما توصّل إليه من وراء تفكيره والنظر العقلي، ولا يستطيع المؤرخ أن يسجّل حادثة فيها مخالفة لرأي السلطة، وليس لباحث أن يثبت شيئاً بعد تحقيقه وصحته، كما ليس للمحدّث أن يناقش حديثاً أو يثبت ما لا يتفق وآراء العامة. فكم ضاع من وراء التحجير من الأفكار الحرّة والحقائق التاريخية التي أهملها العلماء مخافة أن يُعرفوا بها فيهلكوا، وبذلك حقنوا دماءهم واتقوا تقاة أنجتهم من تسلط العتاة. فضاعت أخبار كثيرة، وخمدت القرائح، وشاع الجمود الفكري، وفشى الجهل. والسلطة من وراء الجهّال تشدّ أزرهم، وتفتك بمن يحاول الخروج عن الطاعة «وإنه لطبيعي كذلك في أن يكون الملك عدوّاً لدوداً لكل بحث ولو كان علمياً يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه وتقويض كرسيّه ولهذا ضغطوا على حرّية العلم، واستبدّوا بمعاهد التعليم، وربطوها بعجلة الدولة»[٢].

وبرغم ركام الأهواء تجد الحقيقة لها ألسنة وأقلام تعبّر عن جوهر الدافع

---

(١) المنتظم ج٨ ص ١١٠ ـ ١١١.

(٢) الحضارة الإسلامية، كرد علي ج٢ ص٥٦.

في الإبقاء على الجمود وبواعث سياسة الحكام الذين أحكموا إغلاق منافذ الفكر ليهيمنوا على الأمة ، وأغلقوا باب الاجتهاد الذي تشبث الشيعة لفتحه حماية للفكر وإغناءً للفقه ، فلما رأى بنو العباس أنّ وسائلهم في القهر لا تجديهم ، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم ، فيتولّوا أمره بأنفسهم ، ليربتوا العلماء على الخضوع لهم ، ويملكوهم بالمال من أول أمرهم ، وكانت الأُمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة ،كما تتولاه الآن الأُمم الراقية . . فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير ، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يرقبون إلّا الله في علمهم ، ولا يتأثرون بهوى حاكم ، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم . فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم ، ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين ، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد ، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها ، ويجعل لهم سلطاناً عليهم ، وأخذت الممالك التابعة لهم تعمل في هذا بسنّتهم ، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية ، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء فنزلوا على إرادة الملوك ، ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم أو توجيه شيء من النصح إليهم[١] . فلما انتشرت المدارس الحكومية قام بنو العباس بالخطوة المكمّلة ، فطُلب من المنفّذين لسياستهم المشتغلين بالعلم ألّا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، وألّا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها؛ بل يذكرون كلام الشيوخ السابقين تأدّباً معهم ، وتبرّكاً بهم . فأجاب جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة .

---

(١) انظر : عبدالمتعال ، الصعيدي ، في ميدان الاجتهاد ص٧ .

فيما كان نهج الشيعة منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا يقوم على إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية، والكتابة العلمية، وكان مدار الإمامة ومصطلحاتها الفنية من أكبر ما اهتموا به؛ لأنها من أركان الدين، وهي أصل إقامة المجتمع ومصدر بناء هيئاته، وهم الذين قسّموا علمها، وبوّبوا أبوابه، وعيّنوا مجاله، ورسموا حدوده[1].

وكان للشيعة بتلك العصور ألمع الشخصيات الإسلامية كهشام بن الحكم، وكان يرأس مدرسة فكرية إسلامية أخذ تعاليمها من أُستاذه الإمام الصادق عليه السلام ويقول فيه ابن النديم: إنّه هو الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب، وسهّل طريق الحجاج. وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب[2]. ومن جزاء شهرته في الكلام مع علوّ رتبته بالفقه وسائر العلوم، فقد تحاملوا عليه، ونسبوه إلى سوء الاعتقاد، كما طاردته السلطة أيام هارون الرشيد، فهرب ومات متخفياً. وهكذا غيره من فلاسفة الشيعة وعلمائها الذين امتحنوا في سبيل عقيدتهم أمثال: مؤمن الطاق محمّد بن النعمان، وأبو يوسف الكندي، وبنو نوبخت، والرازي، والهمداني وغيرهم من متكلمي الشيعة وفلاسفتهم. وكان اشتهارهم بعلم الكلام مهّد لأعدائهم أن يتّهموهم بسوء الاعتقاد، والبدعة والكفر، وهذه البدعة هي بدعة سياسية؛ لأن مخالفتهم لنظام الحكم السائد جعلتهم مبتدعة في نظر أعوان السلطة. ونتيجة لذلك التعصّب الأعمى شاعت الافتراءات، وموّهت في إطار فقهي أو مذهبي؛ لأن الشيعة التزموا نهج أهل البيت عليهم السلام كأئمة هداة وصفوة معصومة، تمثّل الرسالة

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) الفهرست ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

في أُصولها والمبادئ في نقائها . والذين كان نصيبهم الاضطهاد والظلم ، والابتعاد عن السلطة التي انجرت إلى القيم الدنيوية والمادية . فوضعت السلطة مخطّطاً لمواجهة التيار الذي يمثل الالتزام بخط أهل البيت ، والتخلص من رجالات الشيعة وأفكارهم بكل السبل ، سواء كانت بالقتل والاعتداء ، أو التحريف وقلب الحقائق ، والعمل على نبذ كل ما يمتّ لهم بصلة . فوصل الأمر بالمتفقّهين إلى الدعوة إلى ترك أحكام الشرع إذا كانت تشبه أحكام الشيعة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ قالوا : ومن المصلحة أن يمنع المصلي عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه أرض وغيرها؛ لأن ذلك الاختصاص من شعار الشيعة[١] .

٢ ـ حكم بعضهم بأفضلية المسح على الخفّين بدون دليل ، وإنّما كان ذلك الحكم؛ لأنّ الشيعة طعنوا في المسح على الخفّين ، وإحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه[٢] .

٣ ـ يقول ابن تيمية في منهاجه[٣] ـ عند بيان حرمة التشبه بالشيعة ـ : ومن هنا ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات . إذ صارت شعاراً لهم ـ الشيعة ـ فإنّه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك ، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم ، فلا يتميّز السنّي من الرافضي ، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب . وإن هذا لمن الإفراط في الانحراف والغفلة عن أكبر خطأ يرتكب في ترك أوامر الله سبحانه .

ولا زالت الحالة هذه تشقّ طريقها حتى في العصور المتأخرة ، كما يحدّثنا

---

(١) انظر غاية المنتهي في الجمع بين الإقناع والمنتهى ج١ ص١٣٥ .

(٢) نيل الأوطار ج١ ص١٧٦ .

(٣) منهاج السنّة ج٢ ص١٤٧ .

الشيخ القاسمي عنهم بقوله :

«يدرّس كثير من العلماء الطلبة في المساجد ، وهؤلاء المدرّسون ندر من يكون منهم غير متعصب أو لا يوجد ، ولذلك لا تخلو المساجد العامة التي يكثر مدرّسوها من ثورات تتناقلها الأفواه ، وما منشأها إلّا التعصب ، وهاك بيان ذلك : نرى مدرّس الفقه غير الحكيم يقرأ الفروع قراءة مشوبة بهضم المخالف لمذهبه وعدم رؤياه بشيء ، وعدم الاعتداد بمذهبه كلياً إلّا ظاهراً ، فلا ينصرف تلامذته من دراسة إلّا وهم مملوءون قوة بها ، يدفعون من خالفهم في تلك الفروع ، وقد يرون بطلان ما عليه غيرهم .كما يعلّمونه كراهة الاقتداء بالمخالف ، مما يتبرأ منه هدي السلف والأئمة المتبوعون عليهم الرحمة والرضوان . وكما يحاولون دليلاً ضعيفاً في مقابلة دليل قوي كمرسل في مقابل مسند ، وإيثار ما رواه غير الشيخين على ما روياه مما يتبرأ منه الإنصاف»[1] .

وعلى أيّ حال فإنّ التعصب المذهبي قد أحدث مظاهر شاذة في المجتمع الإسلامي ، وولّد مراحل سوداء ، سادتها ظروف سيئة ومتباينة ، وقد رأينا ما أحدث التعصب من فرقة وانقسام بين صفوف أمة واحدة ذات كتاب واحد ونبيّ واحد ، ولكنه ـ والحمد لله ـ لم يبلغ الخلاف إلى مستوى العقائد الأساسية التي هي دعامة الإسلام وركيزة وحدة الأمة . ورغم أنّ روح التعصب ونزعات التحكّم قد أدّت إلى اختلال القيم وتشويه المبادئ من خلال إخضاعها للأهواء والتعصب والتحزب؛ فإنّ روح الحرص والإيمان بقيت تواجه حملات التضليل وتيارات الانقسام؛ فراح الكثيرون من علماء هذه الأمة ورجالاتها

---

(١) اصلاح المساجد ص ١٦٤ .

ينبذون الخصومة ويرفضون التحزب وإثارة روح الحقد ، ويتمسكون بروح الإخاء إطاعة لأمر الله وعملاً بمبادئه ، ويبثون روح التفاهم ، لتنمو من جديد . وعملوا جاهدين لحفظ تراثهم الإسلامي ، وإزالة كل ما يحول دون التقاء أبنائه على صعيد الأخوة الإسلامية .

ولو حاول مثيرو الفتنة الاحتكام إلى مبادئ الإسلام وإلى روح الرسالة فيما يدّعون من أمور ومسائل ، لباءت حملاتهم وتحرّكاتهم بالفشل والخسران . لكنّهم توسّلوا بأُمور اختلقوها ، ونصوص أوّلوها لترضي مراميهم وأغراضهم؛ فضاعت في غمرة الفهم والتقوّلات أُسس وأُصول الحياة التي أرسى دعائمها الإسلام . فكان من البديهي أن يكون الجمود الفكري غطاءً لموجات التعصّب والتحزّب التي أحالت الإلفة إلى تناحر ، والأخوّة إلى عداء .

ومن تلك المشاكل مسألة خلق القرآن . وقد أشرنا لها سابقاً ، وزيادة في البحث نذكر هنا بعض ما تدعو إليه الحاجة لذكره :

# خَلْقُ القُرْآنِ

تأثر المأمون بحركة العلوم التي كانت سائدة في عصره ، وكانت حالة الأُمة الفكرية قد اتّسمت بخصائص وظواهر مهمة ، أثرت في السياسة من خلال شخصية الحاكم الذي نشأ وميله إلى العلوم ينمو معه ، حتى تنفرد بمواقف تكشف عن وعي وتصوّر خضوعاً للمنطق ، واذعاناً للحق ، خاصة في الأمور والأحداث التي اكتنفت مسيرة الخلافة منذ قيام نظام الخلافة .

وكان من أبرز جوانب الحياة الفكرية ، ظهور تيارات واتّجاهات كلامية وعقلية اهتمّت بعقائد وأديان الأُمم الأُخرى ، التي راحت بقاياها تكيد للإسلام . فتعرّف المسلمون على مضامين ومناهج النشاطات المعادية ، وتمثّلوها ، وصاغوها ، فماجت مواطن الفكر الإسلامي بدراسات وأصناف من العلوم ، عبّرت عن قدرات العلماء والمتكلمين الإسلاميين ، فأسهموا مساهمة كبرى في ردّ كيد الأعداء إلى نحورهم ، ومناجزتهم بنفس السلاح الذي أشهروه بوجه الإسلام .

ولمّا تسلّم المأمون سدّة الحكم ـ بعد الأحداث الدامية المعروفة ـ مال بالنظام إلى الجهة التي تنسجم مع ميوله ، وتناسب ما نطلق عليه «الحركة الفكرية»؛ حيث غلبت صفة البحث والطابع العلمي ، فكان المعتزلة في هذه الفترة من أبرز المناظرين وأنشط المتكلمين ، فكانوا أصحاب جدل وأنصار رأي . غير أنّهم في الفقه والأُصول لم يتفقوا على قواعد ثابتة ، لذلك لم يخرجوا من تيار الجدل والنظريات ، وقد حُسبوا كثيراً على الشيعة ، بل إنّ البعض نظر إلى الأمر معكوساً وتناسى أُصول الشيعة ووجودها التأريخي الذي

يسبق ظهور المعتزلة . وظل الالتباس قائماً حتى اليوم من جزاء اشتراك المعتزلة مع الشيعة في بعض الخصائص الفكرية : من اهتمامهم بالعقل ، ورعايتهم الفكر . وقد أسهم المأمون نفسه في إثارة القضايا التي تخصّ عقيدة الشيعة ، منها : مسألة الخلافة ، والأحقية والأفضلية ؟ ولكن العمل السياسي كان يتمثّل في الموقف من العلويين ، وإرساء قواعد الحكم على أساس رضا الناس وقبولهم النظام العباسي عن قناعة ، بعد أن فضحت سياسة السابقين من آبائه خدعة الدعوة إلى الرضا من آل محمد ، وكيف كشّر العباسيون عن أنياب حقد أشدّ وأدهى على العلويين من حقد الأُمويين . فكان أن حمل المأمون العلويين من المدينة وفيهم الإمام الرضا علي بن موسى ، وجاء بهم إلى خراسان . وكان غرضه شخص الإمام الرضا عليه السلام فأنزل العلويين داراً ، وأنزل الإمام الرضا داراً وأكرمه وعظّم أمره .

واختار المأمون أن يعلم الإمام الرضا بقصده من وراء ذلك عن طريق الوسطاء ، وادّعى أنه يريد أن يخلع نفسه من الخلافة ويقلّدها إلى الرضا عليه السلام وكل الدلائل تشير إلى كذب هذا الادعاء . فالمأمون حاكم لم يتورّع عن قتل أخيه في سبيل كرسي الخلافة ، ولا يمكن بأي حال أن يخرج عن أهمّ قواعد الحكم الجائر ، ويتخلّص من كره آل علي ، وإن ادّعى ذلك وجاهر بأنّه وجد أنّ العباسيين قد ظلموا وغصبوا آل علي حقهم . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإنّ الإمام الرضا في سيرته ووجوده ، هو امتداد حي واستمرار متوقّد لسيرة ابن الشيهد الإمام موسى بن جعفر ، لم يحفل بالدنيا ، ولم تبعده نوائب الدهر عن أُمور دينه ورعاية أهل الإسلام بالدعوة إلى التمسّك بالعقيدة والاتّجاه إلى الإخلاص في الدين .

وإن قدّر المأمون بعض نظرة الإمام الرضا إلى السلطة السياسية من حيث

تصنيفات الواقع ، فليس من السهولة بمكان تناسي حقائق التاريخ الأسود للعباسيين وفظائعه .

ويروي الشيخ المفيد ﷺ في الإرشاد[1] أنّ الإمام الرضا أنكر هذا الأمر وقال: «أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام ، وأن يسمع به أحد» فردّ عليه الرسالة؛ فإذا أبيت ما عرضت عليك ، فلا بد من ولاية العهد من بعدي . فأبى عليه الرضا إباءً شديداً . فاستدعاه ، وخلا به ومعه الفضل بن سهل ذو الرياستين ، ليس في المجلس غيرهم وقال : إنّي قد رأيت أن أُقلّدك أمر المسلمين ، وأفسخ ما في رقبتي وأضعه في رقبتك . فقال الرضا ﷺ: «الله الله يا أمير المؤمنين ، إنّه لا طاقة لي بذلك ، ولا قوة لي عليه» قال له : فإنّي مولّيك العهد من بعدي . فقال له : «اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين» . فقال له المأمون كلاماً فيه تهديد له على الامتناع عليه ، وقال في كلامه : إنّ عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة : أحدهم جدّك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وشرط فيمن خالف منهم ، أن يضرب عنقه ، ولا بد من قبولك ما أُريد منك ، فإنني لا أجد محيصاً عنه .

فكان جواب الإمام الرضا أبلغ تعبير عن فهم البواعث التي وراء مثل هذا الأمر ، وخير ردّ يعرّي الخطة التي ترمي إلى ترميم كيان الظلم بالإساءة إلى نهج آل البيت ، ومحاولة ثنيهم عن الابتعاد عن الركون إلى الظلمة وجهادهم للإبقاء على سلطان الدين في روحانية النفوس وعلاقات المجتمع . ولما لم يجد الإمام الرضا أمامه إلاّ سيف الحكّام قال للمأمون : «فإنّي أُجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أنّني لا آمر ولا أنهي ، ولا أقضي ، ولا أُولي ولا أعزل ، ولا أُغيّر مما هو

(١) الإرشاد ج٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

قائم» . فأجابه المأمون إلى ذلك كله[1] لكي يحقق الغرض السياسي الذي أراده ، وزيّن له وهمه ذلك ، فظنّ أنّ خدعة ولاية العهد تنطلي على الناس فيما جعلها فارغة ليست بشروطه التي عوّل عليها ، بل بشروط الإمام الرضا .

وعلى هذا المنوال ، عالج الجانب الفكري والحياة العقلية النشطة ، فأقحمها في دوائر السياسة والحكم ، وجعل رجال الفكر وأصحاب الاتجاهات العقلية ـ التي يفترض فيها ممارسة الدفاع عن الرأي ـ أعمدة للتحكّم ، فأوقع الحركة الفكرية في تناقض . وهكذا استطاع المأمون أن يستفيد من ميوله واهتماماته ، ويؤثر في أُولئك الذين ارتضوا أن يكونوا جزءاً من السلطة على ما هم عليه من صفات وسمات فكرية ، تجعلهم من أهل العدل .

وفي سنة (٢١٢ هـ) أظهر المأمون القول بخلق القرآن ، وتفضيل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال : هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] .

وفي سنة (٢١٨ هـ) أعلن وجوب الاعتقاد بخلق القرآن ، وأنه حادث غير قديم ، وذلك لنفي التشبيه عن ذات الله ، ونفي الصفات عن الذات العلية ، لئلا تتصف الذات بما يعدّدها . ونفي المعتزلة ومن وافقهم من المسلمين الاعتقاد بقدم الصفات كقدم الذات ، لأنّ الذات هي وحدها متصفة بالقِدم ، ومن أجله كانت الصفات محدثة ظاهرة في الغير ، والكلام محدث ، والقرآن محدث لأنه من الكلام .

ولجأ المأمون إلى استخدام القوة لفرض هذا الرأي ، وأعدّ لسياسته في هذا المجال العدة زمناً طويلاً ، ونصب ديواناً للمحنة ، وحمل الناس على هذا

---

(١) الإرشاد ج٢ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

(٢) الطبري ج١٠ ص٢٧٩ .

الاعتقاد، ومحاربة من يقول بأن القرآن قديم. لأنه من صفات الله، والذين لم يروا بدّاً من إثبات الصفات للذات وإنّها قديمة قِدَمها... إلخ.

فحصل الانقسام، وعقد مجلس للامتحان، واختارت الدولة له أشد الناس جدلاً من المعتزلة وغيرهم، كما اختار جماعة من الجلّادين الأشداء الجفاة الذين مرَنوا على الضرب بالسياط، والحراس الغلاظ، وجعل في الديوان عقاباً لكل ممتنع عن الإقرار (وتبتدئ العقوبة بالحرمان من الحق ـ الذي نسمّيه في حياتنا بالحق المدني في الحياة ـ وتنتهي بخشبة الصلب، فإذا لم يكن للرجل رزق ووظيفة عوقب عقوبة بدنية بقدر ما يمتنع عن الإجابة أو يحتال في الإنكار، أو يصطنع الخلاص)[١].

وهنا لا بد من الإشارة إلى التقاء المعتزلة مع الشيعة في القول في كون كلامه تعالى لا يكون إلّا بكلام محدث، لأن حقيقة المتكلم من وقع منه الكلام الذي هو هذا المعقول بحسب دواعيه وأحواله، والكلام المعقول ما انتظم من حرفين فصاعداً من هذه الحروف المعقولة التي هي ثمانية وعشرون حرفاً، إذا وقع ممن يصحّ منه أو من قبيل الإفادة. والدليل على ذلك أنّه إذا وجدت هذه الحروف على هذا الوجه سمّي كلاماً، وإذا اختلّ واحد من الشروط لا يسمّى بذلك. فعلمنا أنّه حقيقة الكلام. ومتى ما وقع ما سمّيناه كلاماً بحسب دواعيه وأحواله سمّي متكلماً، فعرفنا بذلك حقيقة المتكلم[٢].

ولكن الشيعة لا يطلقون صفة «مخلوق» على القرآن. فكانوا أكثر حرصاً على التنزيه وقالوا: ينبغي أن يوصف كلام الله بما سمّاه الله تعالى به من كونه

(١) عبدالعزيز سيد الأهل، شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص٢١٨.
(٢) الشيخ الطوسي، الاقتصاد ص٦٥ ـ ٦٧.

محدثاً : قال الله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾[١] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾[٢] .

والذكر هو القرآن بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣] . وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «القرآن محدث غير مخلوق وغير أزلي مع الله سبحانه»[٤] .كما ورد عن غيره من أئمة الهدى النهي عن جعل اسم آخر للقرآن غير ما ورد عن الله[٥] .

لقد وصف الشيعة القرآن بما وصفه الله تعالى ، فقالوا عربي لقوله تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ والعربية محدثة . ومنعوا وصفه بأنه مخلوق؛ لأنّه يوهم بأنّه مكذوب أو مضاف إلى غير قائله ، لأنّه كالمعتاد من هذه اللفظة ، قال الله تعالى : ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ و : ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ فنرى أنّ وصف الكلام بالخلق ويأتي إذا أريد به الكذب أو الانتحال ،كما يقولون هذه قصيدة مخلوقة ومختلقة ، إذا كانت منتحلة مضافة إلى غير قائلها[٦] .

أمّا الأشعرية فيقولون : إنّ الصفات التي أنيطت بها الأقوال وابتنيت عليها المسألة هي صفات معنوية ، وهي صفات زائدة على ذاته ، وبيان وجوب المشكلة يقتضي التفصيل ، ونحن نقصد هنا الإشارة وذكر إحدى القضايا التي نجم عنها أضرار وفرقة استمرّت قروناً عديدة بآثارها ، وتوارثها حتى اليوم

---

(١) الأنبياء : ٢.

(٢) الشعراء: ٥ .

(٣) الحجر : ٩.

(٤) بحار الأنوار ج٥ ص٣١ ح٣٩.

(٥) التوحيد للصدوق ص٢٢٣ ـ ٢٢٩.

(٦) الاقتصاد، الشيخ الطوسي ص٦٥ ـ ٦٧ .

خلق عن أسلاف أورثوهم التعصب ، وراحوا يستهزئون بما منّ الله عليهم من عقل وإدراك ، ويؤثرون الجمود والتوقف عن النمو .

والقصد فإن المأمون أظهر من ألوان الاعتماد على المعتزلة وتقريبهم ، ما جعلهم أعلى الناس مكانة وأوفرهم حظاً ، وخضعت مجالس المناظرات والنقاش لأهواء الحاكم؛ فكان مدارها المواضيع التي يرغب بها المأمون . ولا جدال في تبني المأمون لفكرة المعتزلة ، لكن نزعات الحاكم أو السلطان قد تغلّبت على شخصية التلميذ أو ميول المتعلم ، بل جعلها مادة للسياسة .

والمؤسف المؤلم أن توضع عناصر الغنى الفكري ومناهج البحث في خدمة أغراض السلطان ، وتصبح من أسباب التدهور ، ومن وسائل الحاكمين والمتنفذين؛ فتؤدي إلى نتائج وعواقب لا تليق بالفكر الحر والعقل النير . ومع ما اتّصف به المأمون من إلمام ودراية ، فإنّ كتابه السلطاني الذي أصدره سنة (٢١٨ هـ) كان في حقيقة أمره تصرفاً إدارياً لا يختلف بشيء عن بقية إرادات الحكّام ، ولكنه تضمّن أفكار المعتزلة وآراءها ، مما أساء إلى أهدافهم الأُخرى التي تتصل بالعقل وحرّية الفكر .

أمّا تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات التي يتّصف بها المخلوقون ، فالقرآن عندهم مخلوق وليس بقديم ، فالله وحده قديم ، وما ورد في القرآن هو كلام الله ، ولكن عندهم أنّ الكلام لا يمكن أن يكون صفة لله تعالى هي ذاته كالعلم والقدرة ، وأنكروا أن تكون الصفات أشياء وذواتاً قديمة قائمة وراء الذات ، لأنّ هذا يؤدّي إلى تعدّد القدماء ، لذا فإنّ الذات والصفات شيء واحد . ويردّ الفلاسفة أنّ ذلك بعيد من المعارف ، بل يظنّ أنّه مضادّ لها ، وذلك أنّ العلم يجب أن يكون غير العالم ، وأنّه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم إلّا إذا جاز أن يكون أحد المتضايفين قرينة مثل: أن يكون الأب والابن

معنى واحداً بعينه[١] بالنسبة لعقيدة الثالوث .

وأدت السياسة إلى أن يكون ذلك مثار فتنة شملت أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وحصلت من ورائها فرقة وتباعد ، ووصل الأمر إلى أنّ مَن يذهب إلى قدم القرآن يكفر من يقول بأنّه مخلوق ، وذلك في عهد المتوكل : حيث ارتدّ عن تلك السياسة إلى منحى آخر ، بعد أن كان بعض القضاة يسأل الشاهد عن هذه القضية ، فإن أقرّ بأنّه مخلوق قبلت شهادته وإلّا ردّها[٢] .

ثم أفتى ـ بعضهم وبتأثير السلطة ـ بوجوب قتل من يقول بخلق القرآن ، وبديهي أنّ هذا المفتي لم يستند بفتواه إلى دليل عقلي أو نقلي ، بل كان مستنداً إلى أمر تافه ، وذلك أنّه عندما سئل عن دليل هذه الفتوى أجاب : أنّ رجلاً رأى من منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها ، فقيل لِمَ لم تدخلها؟ قال إبليس : أغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن[٣] .

ونظير هذا ما حدثنا به التاريخ عن المهدي العباسي عندما دخل عليه شريك بن عبدالله القاضي ، فلما رآه المهدي ، قال : عليّ بالسيف والنطع . قال شريك: ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي ، وأنت معرض عنّي ، وقصصت رؤياي على من عبرها فقال : إنه يظهر لك طاعة ، ويضمر لك معصية ما . فقال له شريك : والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل ، ولا كان معبرك بيوسف الصديق ، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟ فاستحى المهدي وقال : اُخرج عنّي . ثم صرفه عن القضاء وأبعده[٤] .

---

(١) ابن رشد ، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) الكندي ، كتاب القضاة ص ٤٤٧ .

(٣) الاعتصام للشاطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

(٤) الاعتصام للشاطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

ومرّت مشكلة خلق القرآن عبر التاريخ تتوارثها الأجيال ، واستغل الحنابلة ميول بعض الأمراء إليهم فراحوا يوقعون المكروه بمن يخالفهم ، وقد استمالوا الملك الأشرف فأصبح يعتقد بأنّ من يخالف عقيدة الحنابلة فهو كافر حلال الدم ، وأصبح هذا الاعتقاد هو الاعتقاد الرسمي[١] .

وكان العز بن عبدالسلام المتوفي سنة (٦٦٠ هـ) من العلماء المبرزين ، ومن الدعاة إلى التحرر من نير التقليد الأعمى ، وكان أشعري العقيدة ، فتقدم الحنابلة إلى الملك الأشرف بأنّ الشيخ العز زائغ العقيدة ، منحرف عمّا صحّ من العقائد الدينية الصحيحة ، وأنّ الدين الذي هم عليه هو اعتقاد السلف والإمام أحمد وفضلاء أصحابه ، وعلى هذا الاعتقاد الذي فرضه السلطان يقول الرستمي:

الأشعرية ضلّال زنادقة إخوان من عبدَ العزّى مع اللات
بربّهم كفروا جهراً وقولهم إذا تدبّرته أسوأ مقالات
ينفون ما أثبتوا عوداً لبدئهم عقائد القوم من أوهى المحالات[٢]

وقد امتحن العزّ بن عبدالسلام وغيره ممن يخالف الحنابلة في شيء من الاعتقاد ، وكانت السلطة هي العامل الوحيد في بعث نشاطهم وامتداد حركاتهم ، وبها ينتصرون على خصومهم الذين نبذوا الجمود وآثروا التدبّر والاحتكام إلى القرآن والسنة ، فالشيخ عز الدين بن عبدالسلام إنّما كان غرضاً لهم لما عرف عنه من أقوال ومواقف ثابتة تغاير ما يدعون إليه ـ وقد ذكرنا بعض أقواله ـ والتي نذكر منها قوله : ومن العجب العجيب أنّ الفقهاء المقلدين

---

(١) هامش ذيل تذكرة الحفاظ ص٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ، وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنّة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه ، بل يتحيل لدفع الكتاب والسنّة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلّده[1] .

وفي بغداد جلس أحد الحنفية المقربين عند السلطان بجامع القصر وجامع المنصور ، وأخذ يلعن الأشعري على المنبر ويقول : كن شافعياً ولا تكن أشعرياً ، وكن حنفياً ولا تك معتزلياً ، وكن حنبلياً ولا تكن مشبّهاً ، وأخذ يذمّ الأشعري ويمدح المذاهب الأربعة[2] .

وشاعت الاتّهامات بالباطل ، ومضى الحنابلة في نشاطهم ، فارتكبوا أعمال الفتك بمن لم يكن على عقيدتهم؛ لأنّه عندهم كافر حلال الدم استناداً إلى فتوى أحمد بن حنبل ، فقد جاء عنه أنّه يذهب إلى كفر من يقول بخلق القرآن ، وسئل يوماً عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة وكان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟ فقال : لا يجزي ، لأنّ الله تبارك وتعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن؛ هذا كافر[3] .

وقال أبو الوليد : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن لم يعقد عليه قلبه على أنّ القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام[4] .

وقال علي بن عبدالله : القرآن كلام الله ، من قال أنّه مخلوق فهو كافر

---

(١) رسالة الانصاف للدهلوي ص٣٧.

(٢) المنتظم ج٩ ص١٠٧.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٣.

(٤) شذرات الذهب، ابن العماد ج٢ ص٣٢٢.

لا يصلّى خلفه[١] .

وقال أبو عبدالله الذهلي المتوفي سنة (٢٥٥ هـ ): من زعم أنّ القرآن مخلوق فقد كفر ، وبانت منه امرأته ، فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ومن وقف وقال : لا أقول مخلوق : وقد ضاهى الكفر ، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ، ولا يدفن في مقابر المسلمين[٢] .

وسئل أحمد بن حنبل عمن قال : لفظي بالقرآن مخلوق . فقال : هذا لا يكلّم ولا يصلّى خلفه ، وإن صلّى أعاد . وأن لا يسمح لأصحابه بالسلام على من يخالفه في رأيه[٣] .

وعلى أيّ حال ، فإنّ مشكلة القول بخلق القرآن ـ كما مرّت الإشارة إليها ـ بلغت حدّاً يستغرب فيه الإنسان وقوع تلك الأحداث المؤلمة في زمن اشتدّت الصراعات فأصبحت فيه مقياساً يقاس به إيمان المرء وكفره ، وبهذا انعطفت موجة الصراع المذهبي نحو مرحلة جديدة من الخلاف ، خلّفت وراءها مادة أُخرى ، ومحوراً جديداً تدور عليه مشاكل الأمة في خلافاتها المتواصلة .

وفي عهد المتوكل العباسي ، عندما أفل نجم المعتزلة ، وأفلت منهم زمام الحكم ، وانحازت السلطة لجانب أهل الحديث وهو الجانب المعارض الذي يمثّله جماعة أحمد بن حنبل ، فانصبّ الغضب على المعتزلة بعد أُفول نجمهم ، واستغل دعاة الفرقة فرصة انتصار جانب المعارضة ، وطلوع نجم أحمد بن حنبل باعتباره من الشخصيات المعارضة للدولة في فرض القول

---

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنّة ج ١ ص ٣٤٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الانتقاء ص ١٠٦ .

بخلق القرآن .

فكثر أتباع هذا الجانب ، وظهرت الضغائن ، ونبشت الدفائن ، وسارت جموع مختلفة الاتجاهات ، متباينة القوميات في ركاب أتباع أحمد بن حنبل إذ كان لهم دور السلطة في الدولة ، وقد تجاوزوا أقصى حدّ في العقوبة والانتقام ممن خالفهم وبالأخص من المعتزلة والشيعة لعناً وقتلاً وتكفيراً ، وتمادوا في مهاجمة المعتزلة حتى قالوا : إنّ المعتزلي لا تجوز الصلاة عليه ، وأنّ دماءهم حلال للمسلمين ، وفي أموالهم الخمس ، وليس على قاتل الواحد منهم قَوَدٌ ولا دية ولا كفارة ، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى(١) .

وقد ابتعدوا عن كل مبادئ العدالة ، وخالفوا قواعد العلم مع المنطق . ففي سنة (٣٢٣ هـ ) أحرق الحنابلة في الكرخ طرف البزازين ، فذهبت فيه أموال كثيرة للتجار ، وأطلق لهم الراضي ثلاثة آلاف دينار ، وكان العقار لقوم من الهاشميين ، فأعطاهم عشرة آلاف دينار ، واحترق ثمانية وأربعون صنفاً من أسواق الكرخ طرح فيه النار قوم من الحنابلة ، حيث قبض بدر الخرشي على رجل من أصحاب البربهاري يعرف بالدلاّل ، واحترق خلق من الرجال والنساء(٢) .

وخلّفت الانفعالات وحالات التعصب والجهل جنوداً وأبطالاً ماهرين في الأذى وشجعاناً في الأضرار . وفي هذا الخضم استبيحت الدماء والأموال ففي سنة (٤٩٥ هـ ) قدم بغداد عيسى بن عبدالله الغزنوي ، فوعظ الناس ـ وكان شافعياً أشعرياً ـ فوقعت فتنة بين الأشعرية والحنابلة(٣) إذ لا يروق لهم أن

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥١ .

(٢) تكملة تاريخ الطبري ص٩٣ .

(٣) راجع الطبري ج ١٠ ص٢٨٦ ، وابن طيفور ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

يكون أشعري أو شافعي بوظيفة الوعظ في تلك الأيام . فهاجوا لذلك ، ووقعت الفتنة ، ووقع فيها حريق ببغداد .

وفي سنة (٥١٣ هـ ) دخل أبو نصر القشيري بغداد ، فوعظ بها ، فثارت الحنابلة ووقفت فتنة بينهم وبين الشافعية ، وأخرج القشيري من بغداد[١] .

وفي خوارزم أحرق الحنابلة جامعاً عظيماً في مرو بناه نظام الدين مسعود بن علي المتوفّى سنة (٥٩٦ هـ ) ، بناه للشافعية ، فحسدتهم الحنابلة وأحرقوا الجامع .

يقول أبو حامد الغزالي المتوفّى سنة (٥٠٥ هـ ): وقد سلمت المدارس لأقوام قلّ من الله خوفهم ، وضعفت في الدين بصيرتهم ، وقويت في الدنيا رغبتهم ، واشتدّ على الاستتباع حرصهم ، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلّا بالتعصب ، فحبسوا ذلك في صدورهم ، ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته ، فاستمر الناس عليه ، ونسوا اُمهات دينهم . فقد هلكوا وأهلكوا ، فالله تعالى يتوب علينا وعليهم[٢] .

وقال ابن كثير وهو في واقعه وحقيقته من كبار علماء الحنابلة رغم صبغة الشافعية بعد ذكره لهذا الحادث في تاريخه : وهذا إنّما يحمل عليه قلة الدين والعقل[٣] .

* * *

والواقع أنّ قضية خلق القرآن ، هيأت للحنابلة عهداً بعث لهم النشاط في

---

(١) راجع ابن كثير ج ١٢ ص ١٦٢ .

(٢) لم نعثر عليه .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩ .

أعمالهم التي لا تدخل تحت نطاق الدين، ولا تخضع لحكم العقل، لأنهم قاموا بدور الغوغاء من الهمجية في كثير من القضايا، فقد كمّوا أفواه العلماء بغوغائهم من الردّ عليهم. خذ مثلاً قضية الشريف عبدالخالق بن عيسى شيخ الحنابلة عندما توفي وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد بن حنبل ويدفنوه معه، ولم يستطع أحد من العلماء أن يردّ عليهم ويمنعهم عن نبش القبر، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة: كيف تدفنونه في قبر أحمد وابنة أحمد مدفونة معه؟ فإن جاز دفنه مع الإمام، لا يجوز دفنه مع ابنته. فقال بعض العوام: أسكت فقد زوّجنا بنت أحمد من الشريف، فسكت التميمي ودفنوه مع أحمد في قبره[1].

ونشط العوام في شذوذهم، فقابلوا حملة الفكر، وعلماء الأمة بالعنف، وعاملوهم بالغلظة، وحجبوهم عن الاتصال بالمجتمع.

فهذا محمد بن أحمد المعتزلي الفيلسوف المتكلم، لزم داره مدة من السنين، لم يستطع الخروج لأنّهم غضبوا عليه.

والحافظ أبو نعيم صاحب الحلية المتوفى سنة (٤٣٠ هـ) تعصّب الحنابلة عليه، فهجره الناس خوفاً منهم.

قال محمد بن عبدالجبار: حضرت مجلس أبي بكر بن علي المعدّل، وكان بين الأشعرية والحنابلة تعصّب زائد، فقام إلى ذلك الرجل أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، وكاد أن يقتل[2].

كما أنّهم رجموا أبا الفرج الاسفراييني الواعظ في الأسواق مرات عديدة،

(١) شذرات الذهب ص ٣٣٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ج٣ ص ٢٧٧.

وأظهروا لعنه وسبه لأنه لم يكن منهم[1] . كما تعصبوا على الفقيه جعفر بن محمد الشافعي الموصلي وكان مقدماً عند السلطان ، فحسدوه ، وكتبوا محضراً نسبوه لكل قبيح ، فنفي من الموصل سنة (٣٢٣ هـ) .

ولقي ابن عساكر شيخ الشافعية المتوفى سنة (٦٢٠ هـ) من الحنابلة أذى كثيراً ، تعصباً عليه وتحدّياً لمقامه ، وكان يتجنّب المرور بهم خشية إيقاع المكروه به منهم . وكان ابن قدامة عالم الحنابلة بدمشق يذهب إلى عدم إسلام ابن عساكر ، لأنه يقول بالكلام النفسي ، فلا يرد السلام عليه[2] .

وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣ هـ) تحامل عليه الحنابلة واتّهموه بالميل إلى المبتدعة ، ويقصدون المبتدعة المتكلمين والأشاعرة ، وقد حملهم التعصب فقالوا : إن الكتب التي تنسب إليه ليست له ، وإنها للصولي ، فسرقها ونسبها لنفسه[3] .

واتّسع نشاطهم فعمّت الفوضى في البلاد ، وذلك في عهد الراضي ، فأصدر منشوراً يردّ عليهم ويعدّد مساوئهم ، ويهدّدهم بالعقاب ، والنكال . وجاء في المنشور الذي وجهه إليهم قوله :

وقد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم ، وكشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم زيّن لحزبه المحضور ، ويدلي لهم حبل الغرور ، فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في ربّ العزّة تباركت أسماؤه ، وفي نبيّه والعرش والكرسي ، وطعنكم على خيار الأُمة ، ونسبتكم شيعة أهل بيت رسول الله إلى الكفر والضلال ، وإرصادكم في الطرقات والمحال ، ثم استدعاؤكم المسلمين

---

(١) البداية والنهاية ج١٢ ص٢٤٤ .

(٢) طبقات الشافعية ج٥ ص٦٩ .

(٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ج١ ص٣٢٢ .

إلى التدين بالبدعة الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن . إلى آخر ما يتضمنه المنشور من تعداد مساوئ تلك الخصال ، والتهديد لهم بالعقوبة وعظيم النكال[١] .

إذن ، تمكّن التعصب من نفوس العامة ، واشتدّ أمر الحنابلة ، وكان منهجهم يتسم بالعنف ، والتعدي على كل من خالفهم الرأي . وهكذا تلوّنت الأحداث بتعدد الحكام وتغيّر الأغراض . فإذا ارتأى المأمون أن تكون قضايا الفكر والعمل شعاراً لدولته فقد كان ينزع إلى خدمة الحكم وتوطيد أركان السلطان ، حتى استطاع أن يجعل المتعلقين بالحكم والمستفيدين من الخلافة تبعاً له في رأيه .

ويقتضي البحث أن نشير دون تفصيل إلى أوامره في هذه المشكلة ، وهي إن أُدرجت في عرض للمقارنة نراها تضمّ أفكار المعتزلة ، وهذه الأوامر تذكر دوماً في المراجع والكتب التي تؤرّخ لهذه القضية ، وتجدها مبسوطة فيها ، ونحن نختار ما صدر من المأمون عندما كان في الرّقة ، ونقتصر منه على الجزء الذي يتناول مسألة خلق القرآن ، وكان ذلك سنة (٢١٨ هـ) ـ كما ذكرنا ـ فقد قرّر المأمون أن يتولى إلزام الناس بالقول في خلق القرآن ، واختار أن يبدأ بأنفار عيّن أسماءهم ، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن الدورقي . فأشخصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق . وتبنّت سلطته في بغداد أمر إشاعة ذلك عنهم وتقرير قولهم بحضور

---

(١) الطرائف لابن طاووس الحسني ص٣٥٦، مع اختلاف يسير.

الفقهاء ورجال أهل الحديث[١] .

واتخذت أفكار المعتزلة ومعتقداتهم صفة الأمر السلطاني كما جاءت على لسان المأمون في أمره إلى إسحاق بن إبراهيم ( . . . والله عزّ وجلّ يقول : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[٢] وتأويل ذلك : إنا خلقناه . كما قال جل جلاله : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾[٤] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٥] فسوّى عزّ وجلّ بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في مشيئة الصنعة . وأخبر أنّه جاعله وحده فقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلّا بمخلوق . وقال لنبيه ﷺ : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[٦] وقال : ﴿... مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[٧] وقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾[٨] وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم أنهم قالوا : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[٩] ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾[١٠] فسمى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدىً ومباركاً وعربياً وقصصاً فقال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا

---

(١) راجع تاريخ الطبري ج١٠ ص٢٨٦، وابن طيفور ص١٨١ و١٨٢ .
(٢) الزخرف: ٣.
(٣) النبأ: ١٠ ـ ١١.
(٤) الأنبياء: ٣٠.
(٥) البروج: ٢٢ .
(٦) القيامة: ٢٦.
(٧) الأنبياء: ٢.
(٨) الأنعام: ٢١ .
(٩) الأنعام: ٩١ .
(١٠) الأنعام: ٩١.

الْقُرْآنَ﴾(١) وقال : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾(٢) وقال : ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾(٣) وقال : ﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾(٤) فجعل له أولاً وآخراً ، ودلّ عليه أنّه محدود مخلوق .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن المتكلم في دينهم والحرج في أمانتهم ، وسهّلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده ، وشبّهوه به والأشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظّاً في الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية . . . إلى آخر كتابه(٥) .

ومع هذه الحالة الفكرية والصياغة الدينية ، وما اتصف به حكم المأمون من ظاهر الميل إلى العلويين ، فإنّ أغراض الحكّام الشخصية تكاد في دوافعها تكون واحدة على مرّ الأجيال في التاريخ الإسلامي ، فعندنا أنّ القالب جديد ، غير أن الجواهر واحد ، وهو استخدام الدين للمصالح والمنافع ، وتأكيد السيطرة والهيمنة . فها نحن أولاء أمام الحكام وهم يعرّضون الأُمة للبلاء مرّةً أُخرى ، ويعدّون لأخصامهم النقمة والمحن . وعندما يبدأ معاوية بإسقاط من

---

(١) يوسف: ٣ .

(٢) الإسراء: ٨٨ .

(٣) هود: ١٣ .

(٤) فصلت: ٤٢ .

(٥) تاريخ الطبري ج٧ ص١٩٩ .

يرى فضل علي أو يروي حديثه من الديوان ، ويأمر بهدم دار من يوالي علياً ، حتى كانت النقمة على الزنادقة أهون من أفعال السلطة بمن يود أهل البيت ﷺ . فقد كان رجال أهل البيت والأئمة ﷺ منهم قد تعاهدوا أمر أصحابهم بالسياسة الملائمة ، أو بالثورة والسيف منذ عهد الإمام الحسن حتى نهاية عهد الإمام الصادق ﷺ ثم جاءت الفترة العباسية ، فكانت القيادة للإمام موسى بن جعفر ﷺ بتقواه وزهده ، ثم للإمام الرضا بعلمه وحكمته . فلم تحدث النتائج التي سنراها فيما بعد هذه الفترة ، وقد استعرضنا في الأجزاء السابقة من كتابنا آثار مواقف الأئمة وعلى الأخص موقف الإمام الصادق، وكيف اتّجه إلى تربية النفوس وشدّ القلوب بروابط الإيمان والعلم ، وكان سلطانه على أتباعه ومحبيه سلطان دين وعقيدة ، فكانت طرقه في الدعوة إلى الدين ومنهجه في الأحكام والفقه منهلاً أغنى الأُمة ، واغترفت منه فطاحل الرجال .

وفي مشكلة خلق القرآن ، اتبع المأمون السياسة ذاتها؛ لأنّ الظاهر قد يتغيّر ، أما الجوهر وحقيقة الدوافع فليس لها على صعيد الحكم غير القوة والتعدّي والعنف وإراقة الدماء ، فكأنّنا إذا ما قرأنا أوامر المأمون نقرأ تعليمات الأُمويين وأوامرهم ، فتراه يتّهم بالكفر من يخالفه ، ويأمر بضرب الأعناق ، ليتسلّى برؤية الرؤوس . ولا نريد أن نذكر أوامره لطولها وتفاصيلها ، إنما نذكر شيئاً يسيراً :

« . . . ومن لم يرجع عن شركه ممن سمّيت لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل أنّ القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي ، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم ،

حتى يؤدّيهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلّمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه ، لينصحهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف»[١] .

ولقد فتح المأمون على الأُمة باباً من البلاء لم يغلق ، فقد بلغت سياسته حدّ الولع بما تواضع عليه الناس واستلموه وتوارثوه ناجزاً ، عملت على تكوين عوامل السلطة وأصحاب الأغراض المختلفة ، فعمد إلى سلطة الحكم لأحداث هزّة في طريقة بقاء الناس على استسلامهم واستمرارهم على موروثهم ، وفكّر في المجاهرة بأُمور ينتهي إليها النظر الجريء والحرّ ، لكن حركة الرأي ونشاط العقل مهما شهدت من ألوان وضروب متطورة ، لم تشمل المجتمع بأسره ، ولم تسع الناس جميعاً ، ولا بد أن يبرز للموروث موقف ، كما أنّها ليست هي الدين كله . وقد أساء بذلك .

لقد تهيأت الظروف لأن يبرز أحمد بن حنبل . وكان وراءه شيوخ آخرون دفعوه إلى الثبات بوجه المأمون وعدم الإذعان ، كأبي جعفر الأنباري الذي لحق بابن حنبل لمّا حمل إلى المأمون وقال له : يا هذا ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك؟ فوالله لأن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبني بإجابتك خلق من خلق الله ، وإن أنت لم تجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير ، ومع هذا فإنّ الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله ، ما شاء الله . ثم قال أحمد : يا أبا جعفر : أعد عليّ ماقلت . فأعاد عليه. فجعل يقول: ما شاءالله ، ما شاء الله[٢] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص١٨٦ ـ ١٨٩.

(٢) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٣١٤.

وقد انتهى الأمر إلى أن يبقى أحمد بن حنبل وحده في امتحان السلطة له؛ حيث تخلّى كل نفر عن الثبات ، ولم يبق معه إلّا محمد بن نوح الذي كان معه في الاقتياد إلى المأمون ، وقام محمد بن نوح بما يقوم به الآخرون وهم خارج الاعتقال ، والذين أخذوا يرون في أحمد رمزاً لبقاء مناهجهم وطرقهم في القول والحكم . وقد كان محمد بن نوح حدثاً وهو يمثل حالة أو مرحلة عمرية تشدّ إليها من كانوا في عمره ، فكيف إذا كانت نهايته الموت وهو في ظلّ الاعتقال والتعذيب ، فقد مات، وهما في الطريق إلى المأمون . ولكن محمد بن نوح كان يقول لأحمد بن حنبل : يا أبا عبدالله، الله الله ، إنّك لست مثلي ، أنت رجل يُقتدى بك ، وقد مدّ الخلق أعناقهم إليك بما يكون منك . فاتق الله واثبت لأمر الله(١) .

وتوفي المأمون في السنة نفسها ، وخلفه المعتصم ، وكان المأمون قد وضع لأخيه السياسة التي يلتزمها ، وقد كان استمراره على القول بخلق القرآن لا عن وعي وإلمام ، وإنما سياسة وتقليداً ، فهو لا يرقى إلى درجة أخيه في الاطلاع ، فقد عرف عنه قلة علمه ، ويروى أنّ أباه كان عُني بتأديبه في أول أمره ، فمرّت به جنازة لبعض الخدم فقال : ليتني كنت هذه الجنازة ، لأتخلّص من همّ المكتب . فأخبر الرشيد بذلك ، فقال : والله لأعذّبنه بشيء يختار الموت من أجله . وأقسم ألا يقرأ طول حياته ، ويبدو أنه كان قريباً من الأُمية كما وصف نفسه في بعض الروايات ، ولهذا فإن بقاء القول بخلق القرآن يفقد في عهده الجوانب الفكرية ، ويبقى الدافع السياسي الذي شمل المتنفذين من المعتزلة أيضاً ممن أغرتهم السلطة كأحمد بن أبي دؤاد الذي كان يمثل عامل

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص٣١٥.

بقاء سياسة المأمون ، وفي الوقت الذي نجد فيه إشارات إلى خروج المعتصم عن نهج العنف ، نجد ابن أبي دؤاد يذكّر المعتصم أنه لو سلّم ولان ، فسيقال حتماً عن المعتصم أنه ناهض مذهب المأمون ، وأن الناس سيرون أن أحمد قد أحرز نصراً على خليفتين ، وهي نتيجة قد تحفّز أحمد بن حنبل على أن يعدّ نفسه زعيماً ، مما يفضي بدولة الخلفاء إلى أوخم العواقب ، وهو ما نص عليه المقريزي في المقفى الذي نقل عنه المستشرق الأمريكي ولتر ملفيل والذي نحن في سياق قوله الآن[١] .

ذكر المقريزي : قال أبو عبدالله وجعلت بين العقابين . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألّا إله إلّا الله وإني رسول الله إلّا بإحدى ثلاث . . . الحديث[٢] وقال رسول الله ﷺ : أُمرت بأن أقاتل الناس . . . الحديث[٣] فبم تستحل دمي ، ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين، أذكر وقوفك بين يدي الله عزّ وجلّ كوقوفي بين يديك ، يا أمير المؤمنين، راقب الله . فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبدالله وتصميمه ، لان لأبي عبدالله ، فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن تركته ، قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله ، وأنه غلب خليفتين . فهاجه ذلك وطلب كرسياً ، جلس عليه وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه . انتهى[٤] .

---

(١) ولتر ملفيل باتون ، أحمد بن حنبل والمحنة ، ترجمة عبدالعزيز عبدالحق ص ١٥٠ .

(٢) تكملة الحديث : «كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل النفس بدون نفس» وفي بعضها غيره .

(٣) تكملة الحديث : «حتى يقولوا لا إله إلّا الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» وفي بعضها غير هذا النص .

(٤) أحمد بن حنبل والمحنة: ص ١٥٠ .

ومن الصورة التي نطلع عليها ، وفي وسطها أحمد بن حنبل ، نرى أنّ ابن حنبل في السلوك والتصرّف يلتزم بتعاليم السنة ، ويحتجّ بأحاديث النبي محمد ﷺ ويحاول بهما أن يحمي نفسه ويصون كرامته ، ويلوذ بالعلم ، ويتوسّل بالفقه ليردّ عنه كيد السلطة ، حتى لتطالعنا من بين ملامح تلك الصورة أنّ أحمد بن حنبلساير قوة السلطان ، وأظهر ما يريد الحكام تحت وقع السياط ، ليكفّ الأذى ويدفع العذاب ، فهذا مؤرخنا اليعقوبي يقول : وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن ، فقال : أنا رجل علمت علماً ، ولم أعلم فيه بهذا . فأحضر له الفقهاء ، وناظر عبدالرحمن بن إسحاق وغيره ، فامتنع أن يقول أنّ القرآن مخلوق ، فضرب عدة سياط . فقال إسحاق بن إبراهيم : ولّني يا أمير المؤمنين مناظرته . فقال : شأنك به . فقال إسحاق : هذا العلم الذي علمته نزل به ملك ، أو علمته من الرجال؟ فقال : بل علمته من الرجال . فقال : شيئاً بعد شيء أو جملة ؟ فقال : علمته شيئاً بعد شيء . قال : فبقي عليك شيء لم تعلمه ؟ قال : بقي عليّ . قال : فهذا مما لم تعلمه ، وقد علمك أمير المؤمنين . قال : فإني أقول بقول أمير المؤمنين . قال : في خلق القرآن ؟ قال : في خلق القرآن . قال : فأشهد عليه ، فخلع عليه وأطلقه . انتهى[1] .

وهنا نلاحظ أنّ أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن وامتحان القوة له ، قد وجد العامة التي تضرّرت بمواقف وسياسة المأمون وخلفه تنتظر خروجه وتتشوّق للقياه ، فيبالغ في الرد ، ويسمح لنفسه بالحكم على مخالفيه بما لم يرد به نص ، وبما يخالف ما احتجّ به أمام قوة السلطان، وهو يمتحن أمام

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٢ .

خلفاء بني العباس ويتقي اعتداءهم .كما نلاحظ في عموم سيرته غموضاً ، وأحياناً خفاءً في رأيه في الإمام علي‌ﷺ أو يزيد بن معاوية ، إذ تضطرب كما في الروايات ، ومهما يكن من أمر فإنّ العامة قد وجدت نفسها مستهدفة من قبل سياسة بني العباس في عهد المأمون وخَلَفيه؛ حيث ظهرت السلطة بمظهر العلم وصفة المتكلّمين . وقد كان المأمون شديداً عليهم وهو يستعير منطق المعتزلة وأفكارهم ، ويصدّر أوامره السلطانية من مرو ليلبس حكمه لبوس المرحلة ، فيقول في أول كتابه له : وقد عرف أمير المؤمنين أنّ الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة فمن لا نظر له ، ولا رؤية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات إعلامه وواجب سبيله ، وقصور عن أن يقدّروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرّقوا بينه وبين خلقه بضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وخفائهم عن التفكير والتذكر (١) .

هذا والسلطة تتحول إلى الخضرة وتغير شعارها الأسود تقرباً إلى الشيعة ، وقضية إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ﷺ مازالت في الأذهان ، ولا بد أنّ قضية سمّه وقتله لا تهمّ الآخرين أكثر مما تهمّهم المظاهر ، وبين فترة وأخرى يهمّ المأمون في القول بمسألة على رأي الشيعة ، بينما قضية امتحان السلطة للعلماء لها طابع معتزلي ، والعامة أخذت تنظر إلى أهل الرأي والفكر نظرة واحدة ، لأنّ الفترة حديثة عهد ، والحركة ما زالت في بواكيرها ،

---

(١) تاريخ ابن طيفور ص ١٨١.

ومناهج الكلام وأساليب القول قامت كالموجة التي تهدّد ركود الغدران بالتحول أو الفناء .

لقد أعلنت السلطة طابعها أو انحيازها إلى أهل الفكر وتيارات الكلام ، وجاء بيانها شديداً استفزَ العامة الذين كانوا قاعدة الحكّام منذ عهد معاوية ، وتهيّأ على مرّ المراحل ممن لبس لبوس الدين ، وتجلبب بجلباب العلم ، أن يبذل أقصى ما يستطيع ليرضي السلطان ، ويجعل الجمهور ينظر إلى حال الحاكم من خلال ما يصوّرونه لهم ، فاحتلّ الحكّام في أنظارهم موقع القداسة ، وأحنوا الرؤوس برغم ما يُسفك من دماء ، وتنتهك من حرمات ، ويستباح من أعراض ، فألفوا أموراً في كلّ شأن من شؤون الاعتقاد والحياة ، وورثوها على نمط الحكام وصياغة المنتفعين .

وللأسف ، فإنّ تحوّل السياسة وانعطاف المأمون إلى أوجه جديدة فكرية متكلّفة ، وما أحدث ذلك من هزّة عنيفة ، لم تعالج بما يساعد على كبح جماح الانفعالات ولجم الجهل ، فإضافة إلى توافر أسباب الهياج وشيوع مضمون سياسة السلطة ، وما يوفّره ذلك من مادة غنية لشدّ الجمهور والتلاعب بعواطفه ، ودفع مشاعره إلى أشد حالات النقمة ، أصبحت كلمة الجهل أو الأوصاف التي يطلقها رجال المناظرات وأساتيذ الكلام على خصومهم الذين يسترون جهلهم بالعناد والتعصب ، أدلة أخرى ألّبت الناس على أهل الفكر قبل أن تألبهم على العباسيين وأغراضهم السياسية . فضاعت في وسط ذلك الأسباب الحقيقية لقيام مثل هذه المرحلة ، وكان تقصير الجهات فيها متماثلاً ، إذ لم يبذل المعتزلة ما يكفي من جهد بعيداً عن السلطة ، بل انتقلت حصيلة اعتقاداتهم إلى الحكام وألحقتهم السلطة بها .

كما كان الطرف الآخر يعتمد على الاستثارة والاستفزاز ، ليستفيد من

نتائجهما في الإبقاء على ممسك الجمهور ومحافظتهم على الأوضاع التي ألفوها وعاشوها ، ولمّا أجتاز أحمد بن حنبل الأزمة صبّ جام غضبه على أصل القضية ، فأباح لنفسه الفتوى والقول بكفر من يقول بخلق القرآن . وقد مرّ بنا ذلك وأشرنا إلى ما جاء عنه في كفر من يقول بخلق القرآن ، إذ سئل عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة وكان عنده مملوك يقول بخلق القرآن ؟ فقال : لا يجزي ، لأنّ الله تبارك وتعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة[1] .

ولم يكن أحمد بن حنبل أو الجمهور في حال يجاهرون بها بالخروج على رأي الحاكم أيام المعتصم ، إذ يروى أنّ أحمد أمسك في عهد المعتصم حتى عن رواية الحديث الذي هو عماد مكانته ومقوّم شخصيته ، فهو الحافظ الذي ينبسط في الرواية ويتقيّد بها حتى قيل : إنّه أقرب إلى الحديث منه إلى الفقه . ولا ننسى أنّ هذه الفترة شهدت غياب الإمام الرضا عليه السلام ، وكون ابنه الإمام محمد الجواد عليه السلام ما زال في مقتبل العمر ، وتتضافر الروايات على ما بلغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ، حتى أنّ المأمون أراد أن يوجد للصبغة التي أرادها لحكمه دلالة جديدة ، فزوّجه ابنته أُم الفضل ، واتّجه إلى المدينة ، وابتعاده عن العراق أمر له مغزى كبير ، اختياراً منه وعملاً بنهج أبيه ، وكيف حمل ولاية العهد اسماً ، ولم تنجح وسائل المأمون مع الإمام الرضا عليه السلام في زجه في شؤون السلطان ، وإذا كان أهل البيت قد عملوا على تهذيب النفوس بتعاليم الإسلام وترسيخ الأحكام في المجتمع بتربية النشأ وإرشاد الناس؛ فقد كان الرضا عليه السلام يقول : إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ ،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣٣ .

فأمّا صاحب سيف وسوط فلا[١] . وكان قوله المشهور للمأمون : ما التقت فئتان قط إلّا نصر الله أعظمهما عفواً[٢] . فعاد الإمام الجواد إلى مهبط الوحي ومهد النبوة ، وسعى ﷺ إلى توجيه الناس وبث العلم ونشر الأحكام ، وكانت الوفود تأتيه من الأقطار النائية لأنّه وارث علم أهل البيت عن أبيه الرضا ﷺ غير أنّ المعتصم أعاده إلى بغداد وانتهى شهيداً مسموماً على يد بني العباس .

فكأن الناضر إلى أعمال بني العباس في هذه الفترة يجد تقرباً ورعاية إلى آل علي ، في حين أنّ حقيقة ما يعيشونه مكابدة رهيبة تنتهي بهم إلى الموت . كما أنّ العلويين استمروا في مناهضتهم للسلطة ، ولم تنطل عليهم خدع الحكّام وتكريم المأمون للطالبيين أو العلويين ، وعدم منعهم من الدخول عليه ؛ حتى ثار عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد اليمن ودعا إلى الرضا من آل محمد[٣] . فأرسل إليه المأمون جيشاً كثيفاً تحت قيادة دينار بن عبدالله ، وكتب معه أماناً لعبدالرحمن ، فقبله وسار إلى المأمون ، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه ، وأمرهم بلبس السواد[٤] وامتنع أكثرهم عن لبس السواد ، فكان عقابهم السجن . فهذا عبدالله بن الحسين بن عبدالله بن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب امتنع عن لبس السواد وحرّمه لما طولب به ، فحبس بسر من رأى في أيام المعتصم حتى مات في الحبس[٥] كما استمر على رفض سلطة العباسيين جماعة من العلويين

---

(١) بحار الأنوار ج٩٧ ص٨٢.
(٢) بحار الأنوار ج٦٨ ص٤٠٢.
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج١٤ ص٢٢، حوادث سنة (٢٠٧ هـ).
(٤) الكامل لابن الأثير ج٤ ص١٥٦.
(٥) المقاتل ٣٨٥.

ولجأوا إلى الثورة .

ويمكننا القول أنّ محاولات بني العباس بلونها هذا قد استطاعت أن تجعل الرقابة والقيود التي اعتاد عليها أئمة أهل البيت والمفروضة عليهم من قبل الحكام مناسبة لأُصول اتجاهات الرأي ومدارس الكلام ، لكنّها في حقيقتها واحدة . فعلم أهل البيت وتعليمات الأئمة عليهم السلام كانت منهلاً وينبوعاً لهذه الاتّجاهات ، وكان المعتزلة على الأخص من أقرب الناس رأياً إلى فقه أهل البيت عليهم السلام ، وإن ضمّت صفوفهم رجالاً أبعد ما يكونون عن الولاء؛ حيث تأثر معتزلة البصرة بما يحيط بهم ، وتأثر معتزلة بغداد بغير ذلك ، وبناءً عليه فكيف يدّعي المأمون العلم والانتصار للفكر ، ويتّبع سياسة السجن واعتقال رجال أهل البيت عليهم السلام الذين لا ينكر المعتزلة تأثرهم واقتداءهم بهم؟ فأخذ بالتظاهر الذي يصعب معه الاطمئنان إلى زوال نوازع الكره والعداء لأهل البيت عليهم السلام .

وكان المعتصم مقلّداً ومنفّذاً لسياسة المأمون بجوانبها المختلفة في الموقف من رجال الفكر ومعاملة أهل البيت عليهم السلام ، ثم جاءت مرحلة الواثق التي تمثّل المرحلة الوسطى التي تسبق عودة السياسة العباسية إلى عهدها على يد المتوكل . ومع أنّ رجل المعتزلة السلطاني أحمد بن أبي دؤاد قد تمكّن من إبقاء قضية خلق القرآن على واجهة الحكم إلّا أنّ الواثق لم يتعرّض إلى أحمد بسوء ، وأرسل إليه وقال له : لا تساكنّي بأرض ، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق[1] .

ونحن نجد في أحداث هذه المشكلة من مظاهر الظلم والعنف ما تأباه

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ص٧٠.

النفوس ، لكنّها تصبح غير ملفتة إذا ما قورنت بأهوال السجون ومصائب التعذيب التي يلقاها آخرون ، فدع عنك كيف استشهد الإمامان الرضا والجوادﷺ على يد حكّام يتظاهرون بالودّ ، وخذ مثلاً من عرف من العباسيين بعدائه لأهل البيتﷺ . ومع ذلك فلا يقرّ ما يجري في ظل الحكام من اعتداء على حرمة الرأي أو العلماء ، بل نذكره للإدانة ونسطّره لتعرف الأجيال ما ارتكب الحكّام . ومن أحداث هذه الفترة التي تتصل بالقول بخلق القرآن أنّ شيخاً من الشام جيء به إلى الواثق ، فلمّا دار النقاش اتفق الواثق مع رأي الشيخ في جواز الإمساك عن هذه المقالة ما اتّسع لهم كما اتّسع لرسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأمر الواثق بقطع قيد الشيخ ، فلما قطعوا القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه ، فجاز به الحداد ، وأخذه من الحداد قائلاً : لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة وأقول : يا ربّ ، سل عبدك هذا لم قيّدني وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك عليّ؟[1] .

ثم جاءت فترة عهد المتوكل الذي استلم الحكم في سنة (٢٣٢ هـ) فعاد النصب بأوضح صوره[2] وتجدّد العداء لآل البيت بأقبح أشكاله ، وليس ذلك ردّ فعل لما سبق ، وإنّما ردود الفعل تمثلت في موقعه في مسلسل الحكّام من بني العباس . يقول ابن كثير : وكان المتوكل محبباً إلى رعيته ؟ قائماً في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصدّيق في قتله أهل الردّة لأنه نصر الحق وردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبدالعزيز حين ردّ مظالم

(١) مروج الذهب ج٤ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) انظر الجزء الأول من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص ١٦٩ .

بني أمية ، وقد أظهر السنّة بعد البدعة وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها، وأكرم المتوكل أحمد بن حنبل ، وكتب إلى نائبه ببغداد أن يبعثه إليه ، وكان حتى وفاة أحمد يتفقّده ويوفد إليه في أُمور يشاوره فيها ويستشيره في أشياء تقع له[١] .

وبدأ الحنابلة مع السلطة منذ هذا التاريخ يسهمون في تعميق روح الخلاف ـ ونحن وإن قلنا برد الفعل ـ إلّا أنّ الأمر تجاوز ذلك لاستسهال أمر الاتّهام بالكفر والخروج على الدين . فاهتزّ كيان الأُمة ، واختلّ بناء المجتمع ، وقد أطلعنا فيما مضى على جانب من الأحداث التي تقوم بتأثير العصبية والجهل . واستمر الحنابلة يعنون بالهيمنة على الحكم ، حتى أنّ المطيع بالله كان يتقرب إليهم بالتظاهر بسماعه وترديده أقوالاً لأحمد بن حنبل ، وقد كان يحدق به خلق كثير من الحنابلة قدّروا بثلاثين ألفاً ، فأراد أن يتقرّب إليهم ، في حين كان الناس يأكلون الأطفال والجيف لشدة الجوع ، وإذا رأثت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث ، فالتقطوا ما فيه من حبّ الشعير فأكلوه ، وكانت الموتى مطرحين فربما أكلت الكلاب لحومهم[٢] .

وامتدّت مشكلة خلق القرآن لعهود طويلة ، وبتأثير الحنابلة شملت الاتهامات أغلب الطوائف ، ففي سنة (٤٠٨ هـ) استتاب القادر بالله فقهاء المعتزلة الحنفية ، فأظهروا الرجوع وتبرّأوا من الاعتزال ، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام ، وأخذ خطوطهم بذلك ، وإنهم متى خالفوه حلّ بهم من التكال

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ٣٤٠.

(٢) المنتظم ج٦ ص ٣٤٤.

والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم ، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين واستنّ بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، وصلبهم وحبسهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين ، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع ، وطردهم من ديارهم ، وصار ذلك سنّة في الإسلام(١) .

ثم تبادل الناس فيما بينهم الاتهامات ، وغدت سنّة الحكام شاملة ، وشاع التعصب مع سعي حثيث إلى إدخال الحكّام في صميم الأمر ، والاستعانة بقوة السلطان ، ونحن سنعرض إلى جوانب من ذلك بحسب مواقعها في الكتاب .

---

(١) المنتظم ج٧ ص٢٨٧ .

# البِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ

وهكذا أدّت تدخلات الحكّام إلى نتائج أساءت كثيراً إلى حركة الفكر والكلام ، وشجّعت قيام ظروف ملائمة للاتّهامات والعداء . وإذا نظرنا إلى تاريخ الحكام في الإسلام وموقفهم من أعدائهم ، رأينا أنّ سلاح التكفير والخروج عن الدين كان من أهم ما يشهره الحكّام لاجتناب العامة واستغلال مشاعرهم المختلفة ، والبروز بمظهر ديني غير حقيقي ، ولمّا حدثت هذه الأحداث وتحكّمت النزعات وهيمن التعصب على النفوس ، تبادلت الطوائف الاتّهامات ، وأصبح الاتهام بالبدعة والضلالة أمراً مألوفاً ، كما أصبح استحلال الدم وما يتبع ذلك من فظائع الأُمور التي تشلّ حركة الفكر وتمزّق المجتمع شرّ ممزّق ، إذ لم يكن استخدام لفظي البدعة والضلالة قائمين على أساس صحيح مجرد من العوطف والنزعات الخاصة . فقد تدخلت الأغراض المختلفة : أغراض الملوك ، وأغراض المتنفذين والمتزعمين في شتى الميادين . وقوبل استسهال الحكم بالكفر أو الضلال بأعمال وفتاوى مقابلة ، ومرّت الأعوام ولفظ الضلالة والبدعة يستخدمان وفق الأغراض ، وكل جهة يصدر منها الاتهام يصدر من أختها في الدين ما يقابل ذلك .

وأصبحت حركة المذاهب تتبادلها بسهولة ، وهي في كل الأحوال تحدث في حالة تتغلب فيها العواطف على حكم الدين ، فعقيدة الإسلام واضحة جلية وإن استجد ما يخرج على القواعد والأُصول وروح الإيمان ، فالتصدي لهذا الخروج وإطفاء باطله واجب على كل مسلم . فإذا كانت مبادئ الإسلام واضحة وعقائده جلية ، فما لا يجري على منواله ويقتدي بروح القرآن بيّن معروف

يكون من السهولة الإجماع عليه ، أما إذاكان تحكماً وخضوعاً للأهواء فهو المصيبة التي نحن بصدد بيان بعض أجزائها وجوانبها . فالمذاهب أصبحت تدّعي أنّ كلاً منها على حق ، وغيرها على الضلالة .

والبدعة لغوياً[١] كلّ شيء أحدث على غير مثال سابق ، سواء كان محموداً أو مذموماً . والبديع : محدث عجيب غير معروف ، وهي تفيد معنى الإحداث والاختراع . أمّا البدعة اصطلاحاً فهي مدار اختلاف الفقهاء شرعاً ، ويميل أغلب العلماء إلى أنّها إحداث في الشرع ، وعند بعضهم قد يكون مذموماً أو محموداً . ولكن روح العداء أخضعت اللفظين لأغراضها ، فاتّهمت كل طائفة الأُخرى بالبدعة والضلالة دون تمييز وهو انحراف عن واقع الحال ، وبُعد عن الحقيقة؛ ومن هذا ما ذهب إليه ابن المقري الشافعي في تمثيله للمبتدع بالحنفي ، وصاحب البزازية الحنفي يمثل المبتدع بالشافعي ، وأمثال هؤلاء كثيرون بين المذاهب الأُربعة[٢] .

كما وقد وضعت كتب تتضمّن بيان الفرق الإسلامية وشرح عقائدها وتصف الكثير منها بالبدعة أو الضلالة أو الكفر أخيراً .

وتمرّ السنون ، وتكثر الكتب من دون جدوى في تحديد هذين الاصطلاحين لنعرف ما هي البدعة التي يستوجب صاحبها النار ، بسبب الضلال عن الهدى ؟ كما ورد في الحديث : «**كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار**»[٣] . فكيف نتعرف على البدعة ونجتنبها ؟ وما هي الضلالة التي توجب دخول النار ؟ هل لها حدّ شرعي أو تعريف لغوي ؟ وقد اختلفت المصاديق

---

(١) لسان العرب ج١ ص٣٤١ ـ ٣٤٢ مادة «بدع» .

(٢) سر انحلال الأُمة ص١٨٩ .

(٣) سنن ابن ماجة ج١ ص١٥ ، ح٤٢ .

وتعدّدت الأقوال . وحديث الفرق أنّ النبي ﷺ قال : «**ستفترق أُمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة**»[١] وبلفظ آخر: «**كل على الضلالة إلا السواد الأعظم**»[٢] فلهذا الحديث شأن، وقد تعرّضنا له سابقاً وشكّكنا في صحة نسبته إلى النبي ﷺ على إجماله بدون بيان ، وهذا ما يوجب إغراء الأمة بعضها ببعض ، وتحامل الناس بعضهم على بعض ، وسنعود للحديث عنه إن شاء الله .

وبقي تعريف البدعة هو ما اخترع على غير مثال سابق ، فهي لغوياً كما في لسان العرب : بَدَعَه أنشأه كابتدعه . وبدع الله الخلق أحدثهم لا على مثال سابق . وبدع سمن ، وبدع بداعة وبدوعاً صار بديعاً ، وأبدع أبدأ والشاعر أتى بالبديع فهو مبدع ، ومنه البديع الخالق المخترع ، وفي المذهب أنها إيراد أقوال لم يستند فاعلها أو قائلها فيها لصاحب الشريعة؛ لأنّ أصل مادّة بدع الاختراع على غير مثال سابق ،كقوله تعالى ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ**﴾[٣] ولكن مجريات الأحداث وتطورات الأُمور جعلت التعريف في اختلاف ومذاهب ، فمنهم من جعلها في العبادات خاصة ، ومنهم من جعلها في العبادات والعادات ، فتعدّدت وجهات النظر في إطلاق البدعة أو الضلالة ، واستهل الناس قذف الآخرين بها مما عمّق الخلاف بين المذاهب أو الطوائف ، فطائفة تتهّم الأُخرى بالبدعة والضلالة وتتوّهم أنها تحتكر الهدى وتسيطر على الحق دون غيرها ، وهذا يحدث ردّ فعل عند الطائفة الأُخرى ، فيردّ الاتّهام على الطائفة بنفس الأسلوب ، وبأنّها مبتدعة خارجة عن الدين ،

---

(١) صحيح الترمذي ج٥ ص٢٦ ، ج١ ص٢٦٤ .

(٢) الاعتصام للشاطبي ص٣٦٣ .

(٣) الأحقاف : ٩ .

وهي على الهدى .

وبهذا فقد أشتدّ الهياج ، وكثرت الفتن ، وانتشرت الفوضى ، وهنا نرى لزوم الحديث عن الفوارق التي حلّت بين المسلمين . وكيف أصبحت كلمة بدعة أو مبتدعة سلاحاً يوجه للناس وهم في حالات أقرب بها إلى الله ومبادئ الإسلام من أولئك الذين يستخدمونها لتغطية ضعفهم وانهزامهم . وكيف وُجّهت إلى الجماعات التي تهدّد مناهج الجمود والانغلاق ظلماً. كما وجّهت توجيهاً سليماً إلى الجماعات التي لا غبار على بعدها عن السنّة وخروجها على ما جاء به صاحب الشريعة ﷺ .

## من هو المبتدع؟

لقد حدثت أمور بسبب الاختلاف في تمييز البدعة ومن هو المبتدع؛ فخلطوا بين السقيم والصحيح وسارت الأُمور على غير المنهج العلمي ، فكانت هناك أشياء هي مدعاة للأسف لأنها تعكس سلوك رجال لم يسلكوا مع خصومهم الطريق التجزدي المعقول ، بل التجأوا إلى استخدام القوة وكل ما يتعارض مع حرية الفكر التي ضمنها الإسلام ، وجعلها إحدى مقومات المجتمع الإسلامي ، ولنقف على بعض الأقوال في لزوم تجنب صاحب البدعة ، ولنأخذ صورة عن تلك العصور المظلمة ، والوقوف على تلك المفارقات التي حدثت بالمجتمع .

يقول بعضهم : من جالس صاحب بدعة ، نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه(١) .

(١) الاعتصام للشاطبي ص٦٦ .

وعن يحيى بن كثير أنّه قال : إذا لقيت صاحب بدعة في طريق ، فخذ طريقاً آخر[١] .

وعن الفضيل أنّه قال : من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ، والماشي إليه معين على هدم الإسلام[٢] .

وقال هاشم بن حسّان : لا يقبل الله من صاحب بدعة صلاة ولا صياماً ، ولا زكاة ولا حجاً ، ولا جهاداً ، ولا عمرة ، ولا صرفاً ، ولا عدلاً[٣] .

وقد أوردوا عن صاحب الرسالة ﷺ أحاديث تدعم هذه الآراء ، فعن هشام بن عروة مرفوعاً «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»[٤] .

وعنه ﷺ : «من أتى صاحب بدعة ليوقّره فقد أعان على هدم الإسلام ، ومن أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له في الله ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر ، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله مائة درجة ، ومن سلّم على صاحب بدعة أو استقبله بالبُشر ، أو استقبله بما يُسرّه ، فقد استخفّ بما نزل على محمّد ﷺ»[٥] .

وجاء عن عائشة ، أنّها سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ ؟ فقال ﷺ : «هم أصحاب الأهواء وأصحاب البدع وأصحاب الضلالة من هذه الأُمة ، يا عائشة : إن لكل ذنب توبة ، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة ، وأنا بريء منهم ، وهم براء مني»[٦] .

---

(١) الاعتصام للشاطبي ص٦٦ .

(٢) الاعتصام للشاطبي ص٧٠ .

(٣) الشاطبي ج١ ص٦٠ و١٠٧ .

(٤) الاعتصام للشاطبي ص٥٧ .

(٥) جمع الفوائد ج٢ ص٢٣١ .

(٦) الاعتصام ص١٠٥ و ٤٩١ ـ ٤٩٢ .

وغير ذلك من الآثار التي أسندت إلى رسول الله ﷺ . ولسنا في معرض نقدها من حيث الصحة أو الدلالة ، وبيان علتها ، ولكن الأمر المهم أن ننظر إلى الواقع العملي وكيف استعملت كلمة البدعة في معان مختلفة . واتّهم بها رجال هم مثال التمسك بالسُّنّة . ونودّ هنا استكشاف الواقع حول انطباق هذه التسمية لنخرج بنتيجة وهي : من هو الذي تنطبق عليه هذه السمة في الإسلام؟ ومن هو صاحب السنّة المتمسّك بها؟

١ ـ فهذا أحمد بن حنبل في معرض كلامه عن الفرق المبتدعة يقول : ذِكْرُ محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين ، والكف عن مساوئهم ، والخلاف الذي يشجر بينهم ، فمن سبّ أصحاب رسول الله ، أو واحداً منهم ، أو تنقّصهم أو طعن عليهم أو عرض بعيبهم ، أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، بل حبّهم سنّة ، والدعاء لهم قربة ، والاقتداء بهم وسيلة ، والأخذ بآثارهم فضيلة[1] .

٢ ـ وقال : من زعم أنّه لا يرى التقليد ، ولا يقلد دينه أحداً فهو قول فاسق عند الله ورسوله ، إنما يريد بذلك إبطال الأثر ، والتفرّد بالرأي والكلام والبدعة .

٣ ـ وأصحاب الرأي وهم مبتدعة ضلّال ، أعداء للسنة والأثر ، ويبطلون الحديث ، ويردّون على الرسول ﷺ ويتخذون أبا حنيفة ومن قال بقوله إماماً ويدينون بدينه ، وأيّ ضلالة أبين ممن قال بهذا وترك قول رسول الله ﷺ وأصحابه؟

٤ ـ والولاية بدعة ، والبراءة بدعة ، وهم الذين يقولون : نتولى فلاناً ونتبرأ

(١) مناقب أحمد بن حنبل للجوزي ص١٦٥ ـ ١٧٧ .

من فلان ، وهذا القول بدعة فاجتنبوه .

فمن قال بشيء من هذه الأقاويل أو رآها ، أو صوّبها ، أو رضيها ، أو أحبّها فقد خالف ، وخرج من الجماعة وترك الأثر ، وقال بالخلاف ، ودخل في البدعة وزلّ عن الطريق ، وما توفيقي إلّا بالله .

وبهذا ختم الإمام أحمد هذا الفصل من رسالته أو اعتقاده الذي رواه عنه أحمد بن جعفر الاصطخري والتي يقول في أوّلها : هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر ـ إلى أن يقول ـ : فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها ، أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة . ثم يعدّد العقائد أولاً مما ينطبق على ما تذهب إليه الحنابلة فقط . ويذكر الأقوال ثم يعدد الفرق المبتدعة ومنهم المرجئة والخوارج والمعتزلة إلى آخر ما ورد في الرسالة من أُمور هامّة[1] .

وإذا وقفنا وقفة المتأمل في عبارات هذه الرسالة ، أو المرسوم الذي اتخذه الحنابلة منهجاً ودستوراً يسيرون عليه في معاملة المسلمين وبيان منزلتهم الدينية ، يبدو لنا جلياً أنّه لم يَسْلَم أحد من جميع الأُمة الإسلامية من الضلالة ، وارتكاب البدعة . أو بعبارة أوضح ، لم تَسْلَم فرقة من فرق المسلمين من ذلك ، إلّا الحنابلة أنفسهم فهم المسلمون ، ولهم الإسلام وحدهم دون سواهم كما يدّعون ويصرّحون بذلك . فهذا الشيخ عبدالغني المقدسي من أشهر علماء الحنابلة ، ذكر شيئاً من العقائد أنكرها عليه بقية المذاهب ، فعقدوا له مجلساً ، وأصرّ على رأيه ، فقال له الأمير برغش :كل هؤلاء ضلّال وأنت وحدك على

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٩ ص٥١٢ ح١٨٧٦ .

الحق؟ قال : نعم فغضب الأمير ، وأمر بنفيه من البلد ، وكسر منبر الحنابلة[١] .

قال ابن كثير : وجرت خبطة شديدة نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن[٢] .

ويؤيد ذلك تصريح شيوخهم بأنّ غير الحنابلة مبتدعة . يقول قتيبة بن سعيد : أحمد بن حنبل إمام ، ومن لا يرضى بإمامته فهو مبتدع . وادعوا على الشافعي أنه قال : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق اسم الكفر عليه، فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل عاند السُنة ، ومن عاند السنّة قصد الصحابة ، ومن قصد الصحابة أبغض النبيﷺ ، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم[٣] .

وقال أحمد الدورقي : من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء ، فاتهموه على الإسلام[٤] .

وقال بعض الحنابلة : إذا رأيت البغدادي يحبّ أبا الحسن بن بشار ، وأبا محمد البربهاري ـ وهما من شيوخ الحنابلة ـ فاعلم أنه صاحب سُنة[٥] .

* * *

ومن الصعب الإحاطة بما خلّفته تلك الظروف من ادعاءات وتقوّلات . وقد أعرضنا عن كثير مما وصلنا من ادعاءات الحنابلة في علمائهم عامة وابن حنبل خاصة ، وسواء صحت تلك الأقوال أم لم تصح . فالعامة يأخذون

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٦ ص١٩ ج٥٣٨٥ .
(٢) البداية والنهاية ج١٣ ص٢ .
(٣) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٦ .
(٤) مناقب أحمد بن حنبل للجوزي ص٤٩٥ .
(٥) انظر مناقب أحمد بن حنبل للجوزي ص٥١٤ .

بها ويجعلونها شعاراً في مسيرتهم نحو أهدافهم ، وقد أوردوا عن أحمد بن حنبل وغيره أُموراً لا يمكننا أن نصدّقها ، فهي بعيدة كل البعد عمّا اتصف به أحمد من العلم ، والاتّزان . ولكن الحنابلة جعلوا ذلك دستور حياتهم ، بدون تثبت ، وقد دعمت تلك الأقوال حركاتهم في مقابلاتهم لجميع الفرق ، واشتدوا بصورة خاصة على الشيعة .

أما المعتزلة ـ وهم خصوم الحنابلة السياسيين ـ فقد نالوا من الأذى ما لا يوصف ، وكذلك الأشعرية الذين اختلفوا معهم في العقائد ، وقد صرّحوا بالطعن على الأشعري ، ونسبوا له أقوالاً مخالفة لروح الإسلام ، وذهب بعضهم إلى كفر أصحابه ، وخروجهم عن حظيرة الإسلام نظراً لما يعتقدونه مما يخالف عقائد الحنابلة ، وبهذا وصفوا الأشعري نفسه بأنه مبتدع ، ففي سنة (٤٤٥ هـ) أعلن بنيسابور لعن الأشعري رسمياً ، وكان قد رفع إلى السلطان طغرلبك من مقالات الأشعري ، فأمر بلعنه .

ووقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة والأشعري حتى تأخر الأشاعرة عن حضور الجمعات خوفاً من الحنابلة .

وخلاصة القول ، أنّ الحنابلة يرون من خالفهم من المسلمين كفاراً . ويقابلهم الأشعري كلهم أو بعضهم بتكفير شامل لمن لا يعرف وجود الباري بالطرق التي وضعوها ، وقد خالفهم الحنابلة في جميع ذلك ، وذهبوا إلى أنّ العدول عن مذهب الأشعري ولو قيد شبر فهو كفر ، ولو كان العدول في شيء نزر فهو ضلال وخسر . وهكذا فالأشعرية والحنابلة يكفّر بعضهم بعضاً ، وقد لقي الأشعري من الحنابلة في حياته ، عنتاً وتحاملاً عليه وعلى أتباعه ومؤيدي أفكاره وآرائه ، ولشدّة تعصّبهم عليه أخفى أصحابه قبره بعد وفاته سنة (٣٣٣ هـ) حذراً من أن تنبشه الحنابلة ، لأنّهم حكموا بكفره وإباحة دمه .

ولقد وقعت بين الحنابلة والأشاعرة حوادث كثيرة وحروب وقتال في شوارع بغداد ، أهمها يوم دخلها القشيري ووعظ بها . فاضطر إلى الخروج من بغداد ، وكانت اللعنات تنهال على الأشعري ، ونسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجّهوا الرأي العام ضد الأشعرية ، وقد اتخذ الحنابلة يوم الجنائز إعلاناً لمبدئهم ، وتكفيراً لمن خالفهم ، وقد كانوا يردّدون في تشييع الجنائز هتافات معادية للأشعرية وغيرهم من خصومهم ، وبهذه الأمور المحزنة يستمر الوضع السيّء بين جماعات المسلمين ، وتنتشر الفرقة بين صفوفهم ، والأمر يشتد كلّما مرّ الزمن . وقد قطع الحنابلة في مسيرتهم أشواطاً بعيدة في الدعوة لآرائهم بعنف وقوة ،كما صبّوا جام غضبهم على من خالف بعض تلك الآراء .

وقد أفتى بعض علمائهم ـ وهو الشيخ عبدالله الأنصاري الملقب بشيخ السُنّة في خراسان ـ بعدم حلّية ذبائح الأشعرية ، لأنّهم كفّار في نظره تبعاً لرأي العامة ، من الحنابلة[١] .

وقد امتحن كثير من العلماء ، وراحوا ضحية الجهل والفوضى ، واتّهم كثير منهم بسوء الاعتقاد ،كما رمي الكثير منهم بالكفر والزندقة .

وكان ابن جرير الطبري المتوفى سنة ( ٣٤٠ هـ ) من أُولئك الرجال الذين نالهم غضب الحنابلة ـ كما أشرنا سابقاً ـ مع عظيم منزلته ومكانته العلمية ، وهو صاحب التفسير الشهير والمؤلفات القيّمة ، فرموه بالإلحاد والزندقة؛ لأنّه خالفهم في مسألة اليدين ، فقال في قوله تعالى : ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢] أي نعمتاه . وهم يرون أن اليد هي اليد الجارحة ،كما زادوا في اتّهامه أنّه

---

(١) العبر ج٣، ص٢٩٧، مناقب أحمد بن حنبل للجوزي ص٥٢٤ـ٥٢٥ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

رافضي ، لأنه كان يرى جواز المسح بالوضوء على القدمين . كما ألّف كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم ، وآخر جمع فيه طرق حديث الطائر المشوي[١] .

ومن هذا وذاك ، فقد امتحن وغضبوا عليه ، ورموا داره بالحجارة حتى علت على الباب ، ومنع من التحديث . ولما مات منعوا دفنه نهاراً ، ودفن ليلاً خوفاً منهم . وكان أبو الحسن الآمدي حنبلياً ، ثم انتقل لمذهب الشافعي ، وحدث بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى ، واشتهر فضله وانتشرت فضائله ، فتعصّبوا عليه وكتبوا محضراً بخطوطهم ، واتهموه بمذاهب التعطيل والانحلال ، وخرج إلى دمشق وانعزل ولزم بيته إلى أن مات . وأُلقي القبض على ظهير الدين الأردبيلي الشهير بقاضي زاده ، وهو حنفي المذهب ، وقطعت رقبته وعلّقت على باب زويلة بالقاهرة ، لأنه ذهب إلى عدم وجوب ذكر الصحابة في الخطبة ، فاتهموه بالبدعة ، أو أنه يتشيع ، فعوقب لذلك . وحكم على الحسن بن أبي بكر السكاكيني بالزندقة وأنه يسبّ الصحابة ، وأقيمت عليه الشهادة عند القاضي شرف الدين المالكي ، فحكم عليه بالقتل ، فضربت عنقه بسوق الخيل[٢] .

واتّهم لسان الدين بن الخطيب ـ عالم الأندلس ـ بالزندقة ، فحكم عليه بالقتل . وذلك أنهم أحصوا عليه كلمات في مؤلفاته ورفعوها إلى القاضي ، فسجّل عليه الحكم بالزندقة ، وأفتى بعض الفقهاء بقتله ، فطرقوا عليه السجن

---

(١) وقد رواه عدة من الصحابة عن أنس بن مالك : أنّ النبي أُهدي إليه طائر مشوي ، فقال : «اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر» فجاء علي ﷺ فأكل معه . رواه الترمذي وقال الحاكم في المستدرك رواه عن أنس أكثر من ثلاثين .

(٢) انظر الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٧٨ ـ ٨٢ .

فخنقوه وأخرجوا شلوه وأحرقوه[١] .

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ المحكمة التي تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة عن الدين هي تحت رئاسة قاضي مالكي ، والزنديق أو المبتدع عن المالكية ينفّذ فيه الحكم وإن تاب ، بخلاف بقية المذاهب ، وهو رأي مالك ، وقد خالف ابن مخلد وابن الموازي ذلك .

قال الشوكاني : ابتلي أهل تلك الديار بقضاة من المالكية يتجرأون على سفك الدماء بما لا يحلّ به أدنى تعزير؛ فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم بجهالة وضلالة وجرأة على الله ، ومخالفة لشريعة رسول الله ، وتلاعباً بدينه بمجرد نصوص فقهية واستنباطات فرعية ليس عليها آثار من علم ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

وربما كان حكم المالكي عن غضب وتأثر ، فإنّ الباجريقي الشافعي الذي اتهم بانحلال العقيدة ، فحكم الحنبلي بعصمة دمه ، فغضب قاضي المالكية وحكم بقتله .

وقدم رجل متّهم بالبدعة ، ولما أحضر أنكر ذلك . فحكم بقتله ، فقال : كيف تقتلونني وأنا أقول : لا إله إلّا الله محمّد رسول الله؟

قال ابن أبي عقيل : أنا أقتلك .

قال : بأي حجة ؟

قال : يقول : الله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٢] .

ومن الفظائع المؤلمة ، أنّهم حكموا على إبراهيم الضبي بالسجن ، فضمّ إليه

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٨٢.

(٢) غافر : ٨٤.

في السجن رجل يُعرف بابن الهذيل ، ثم صدر حكم بأن يضرب ابن الهذيل خمسمائة سوطٍ ، وأن تخبط رقبة إبراهيم ليلاً ، فاشتبه العامل وضرب إبراهيم خمسمائة سوطٍ وأعاده إلى السجن ، وأخرج ابن الهذيل فضربت عنقه ، ثم انتبه الوالي للغلطة ، فأخرج إبراهيم وضربت عنقه ، ثم ربطت أرجلهما بالحبال وجرّا مكشوفين غير مستورين من دار الإمارة ، ثم صلبا ثلاثة أيام[١] .

واستمر الحال على هذه الفوضى والتحكّم بأرواح الناس باسم حماية الدين ومقاومة المبتدعة والمفسدين ، وكانوا يرون مؤاخذة هؤلاء بالشدّة ، ومعاملتهم بالعنف انتصاراً لمبادئهم ، وإنجاحاً لمخططاتهم ، فلا يسمعون قول أحد في الدفاع عن نفسه ، وربما لم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه ، ولا يُلتفت إلى ما يكتبه بالردّ على ما اتّهم به خوفاً من وضوح الحجّة وعجزهم عن نقضها ، وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطة ليرغّبوها في إبادة المفكرين حماية لأنفسهم ، فأخذوا بفتوى مالك ومن رافقه من أصحاب الشافعي إلى قتل الداعية إلى البدع ، فلا توبة له ، وأعرضوا عن نصوص الدين في قبول توبة المؤمن .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٧٨ .

# القَصَصُ وَالقَصَّاصُونَ

أدّى تحول النظام الإسلامي إلى الملك ، وتحكّم الأفراد ، إلى ظهور وسيلة جديدة من وسائل أصحاب السلطان في توطيد دعائم حكمهم وتثبيت نفوذ عوائلهم ، فاستحدث القصص مرادفاً لدور الخطباء أو الشعراء الذين انزلقوا مع الحكّام في سياستهم التي استخدموا بها الدين لأغراضهم ومصالحهم . ولا نعرف أثراً متفقاً عليه يشير إلى وجود القصص أو ظهور القصّاصين كظهور الشعراء قبل الإسلام أو بعده ، أو أنّ العرب عرفوا هذا النوع بما يقرب من الألوان التي عرفتها الشُعوب الأُخرى ، فليس في الجزيرة من أمثال تلك الأساطير أو الحكايات ، وما كان فيها محدود التفاصيل والأثر ، أمّا في الإسلام فقد تميز عن الأديان السابقة بوحدة العلاقة والواسطة ، وعدم وجود وساطات أُخرى تفسح المجال للاستعانة بالخيال . وما طرأ في العقائد كان من مخلّفات بني إسرائيل التي منع الرسول محمد ﷺ من سلوك طريقها؛ حيث يذكر أنه قال ﷺ : «**إن بني إسرائيل هلكوا لما قصّوا**»(1) .

ونودّ هنا أن نشير بعجالة إلى مبدأ هذا الأسلوب الذي وضع لخدمة أغراض الحكّام ، والذي لعب دوراً كبيراً في إثارة الفوضى وإشاعة الفرقة وتأجيج نار العداء ، وتطور إلى صنعة يُتكسب منها من لم يفلح في المجالات الأُخرى ، أو من لم ينجح في أُمور الحياة ، أو تدفعه نيات خبيثة وأحقاد على الإسلام . إضافة إلى كونها وظيفة من وظائف الدولة يتّصل من خلالها القاصّ بأصحاب

(1) تحذير الخواص : ص٢٢٧ ، ح١٥٤ .

السلطة والخلفاء من خلال ما يقوم بإشاعتها ، وبقدر ما يحرّك فيهم الإعجاب ، وهو يعبر عن أغراضهم وما يعملون على إشاعته ونشره .

وكان هذا النوع من النشاط من أشدّ الأساليب فتكاً في جسد الأُمة، وتأثيراً سلبياً في واقع الناس ، وقد كانت لحمته مختلطة ومتنوّعة تجافي المنطق والعقل ، ولعبت في عقول الناس وميولهم ، ثم جرأت السلطة القصاصين على أن يتناولوا كل ما من شأنه خدمة دولهم وحكم أسرهم .

والقصّاصون استعملوا قصصاً تحمل الناس على ارتكاب المعاصي ، أو تدفعهم إلى القتال والنزاع . ففي سنة (٢٨٤ هـ) أثار القصاصون الفتن بين أتباع المذاهب الدينية؛ مما حمل الخليفة المعتضد على منعهم[١] .

وقد وصفوهم بالكذّابين ، وأنّهم يروون الأعاجيب[٢] ومنع عضد الدولة ظهورهم في المساجد سنة (٢٦٧ هـ) وغيرها ، واعتبرهم آفة المجتمع؛ لأن أحاديثهم كانت سبباً في إثارة الناس[٣] .

* * *

ولم يعهد في صدر الإسلام وجود قصّاصين ، ولكن الأمر محدث في العهد الأُموي ، أحدثه معاوية حين كانت الفتنة ، فكان للقصّاصين نشاط سياسي يقومون به لتقويم دعائم الملك ، إذ هم يحرّضون الناس على تأييد الدولة ، ويوغرون قلوب الناس بما يخترعونه من القصص ، ويلهبون شعورهم بما يضعونه من الأحاديث ، فيزداد نشاط الناس بالغيظ وحبّ الانتقام .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ص١٨٢ ، والمنتظم ج٧ ص٨٨ .

(٢) مروج الذهب ج٥ ص٨٦ ط أوروبا . والمقدسي في البدء والتاريخ ج١ ص١٩٩ .

(٣) العبر ص٦٥ ـ ٦٦ .

وكان الحكم الأُموي منذ لحظاته الأولى يخطّط لكسب الأكثرية من الناس ، وإيهام الرعية بشرعية سلطانهم ، فلجأوا إلى أساليب كثيرة أهمها الدعايات الملفّقة ، ومن صور الدعايات التي ابتكروها كانت تجنيد القُصّاص لترسيخ دعائم حكمهم على حساب مكانة الرسول ﷺ وأصحابه الأخيار ، ولكي يضمن الأُمويون الإفادة من جهود القصاص ألزموا الناس بلزوم الاستماع إليهم .

ولقد قام أُولئك القصّاصون بكل جهدهم بصياغة القصص وتلفيق الأحاديث .

قال حبيب بن الحرث الثمالي : بعث إليّ عبد الملك بن مروان فقال : يا أبا أسماء ، إنّا قد جمعنا الناس على أمرين . فقلت : وما هما ؟ قال : رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة ، والقصص بعد الصبح والعصر[1] .

كما اتّخذت السلطات في العهد الأُموي استخدام القصّاص وسيلة لتشويه مبادئ الإسلام وتعضيد حكمهم واختلاق النصوص والقصص بما ينسجم مع سياستهم في العنف والتحكم وإخماد حرية الرأي ؛ فكان القصّاصون ركيزة الدولة الأساسية في مواجهة القوى التي أخذت تكتشف حقيقة تركيب النظام الأُموي وسياسته الظالمة ، فبذل القُصّاص غاية جهدهم في تشويه الحقائق ، والسماح لهم باختلاق الروايات ووضع الأحاديث ، والإغضاء عن الافتعالات المفضوحة التي انضم بها القصاص إلى ركب المدّاحين وأهل الخطب الذين شوّهوا دور المنابر ، وأساءوا إلى مهمة رجال العلم بصمتهم المطبق ، وهم يرون سفك الدماء ، وانتهاك الحرمات ، والتعدّي على تعاليم صاحب الرسالة

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث لشهاب الدين أبو شامة ص٦٦ .

ومبلّغ الشريعة وأهل بيته الأطياب ، وبجلجلة ألسنتهم وهم يركبون الكذب ، ويجمعون الموضوعات ، ويسوقون الخرافات والمنامات والأساطير تزلّفاً وتكسّباً ، فباعوا دينهم بأبخس الأثمان ، وعند الله الجزاء .

ثم انتشرت خرافات القصص الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات ، وقد قام بذلك جماعة من اليهود ، وفي طليعتهم كعب الأحبار[١] ، تلك الشخصية اليهودية التي دخلت الإسلام وهو يحمل على كتفيه مهمة نشر الإسرائيليات وبثّها في ثنايا علوم الإسلام وفنون القرآن ، فكان أكبر وأخطر مصدر لهذا الفن . وقد سقنا الحديث المروي عن النبي ﷺ الذي يشير فيه إلى أنّ اليهود في قصصهم قد هلكوا ، وقصدنا إظهار ما فيه من تحذير ، وقد جاء كعب ليكون من دعائم بنيان فن القصص الذي عملوا على توسيعه ، فالتقت الأغراض .

فاليهود هم أكبر عامل لإثارة الحزازات والنعرات والنزعات العصبية بين القوميات التي تعيش في المجتمع الإسلامي ، وطريقتهم في تآمرهم على الإسلام هي : التظاهر باعتناقهم إياه ، ثم يبدأون ببث سمومهم بما يلقونه من قصص وأخبار وهي ليست بذات قيمة ؛ لكنهم يجيدون استغلال الظروف والتحرك المناسب .

وقد حذّر النبي ﷺ من خطرهم ، وأمر بإجلائهم ، وكانت آخر وصية له ﷺ أن قال : **«الله في أهل بيتي ، أوصيكم في أهل بيتي خيراً ، وأخرجوا اليهود من جزيرة العرب»**[٢] ولكن المسلمين لم يأخذوا هذه الوصايا بعين الاعتبار ؛ فكان

---

(١) حلية الأولياء : ج٥ ، ص٣٦٤ ـ ٣٩١ ح٣٣٣ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ج٢٣ ص٢٦٥ ح٥٦٠ .

ما كان من عواقب وخيمة .

وقد أجلى عمر بن الخطاب جماعة من اليهود ، فسكنوا الكوفة ، فكانوا قطب رحى الخلافات ، وقد شوّهوا سمعة هذا البلد العربي المسلم . حتى عرف بالمكر والخيانة ، والغدر ، والخديعة . ولعب هؤلاء اليهود دوراً مهماً في نشر الخلافات في جيش الإمام الحسن ﷺ وتمزيق وحدة الصف ، وإثارة النعرات .

ولا يتسع المجال لشرح مواقفهم من قضية الحسين ﷺ بدفع عجلة الحوادث ، وتطوير الوقائع ، للإسراع في القضاء على الحسين ﷺ؛ لأنّهم يعدّون ذلك نصراً لهم ، وفتحاً جديداً في موقفهم العدائي للإسلام ، واستمرّت أعمالهم في العهد الأُموي يوسّعون دائرة الخلافات ، ويقيمون العراقيل في طريق التفاهم بين الفئات المتناحرة .

* * *

وعلى كلّ حال ، فقد استمرّ القُصّاص بمساندة السلطة وتأييدهم الحاكم الذي يصبح وضعه ينذر بالخطر لسوء السيرة وقبح المعاملة ، فيلجأ إلى استعمال سلاح الحماية باسم الدين بشتى الوسائل ، فيوعز إلى القصّاص بالنزول إلى غمار العامة يقصّون عليهم ما يحرّك شعورهم ضد الفئة المعارضة للدولة ، أو يشغلونهم بحدوث فتنة . وقد استطاعوا أن يجلبوا أذهان السذّج ، ويؤثّروا على تلك العقول في وضع الأحاديث واختراع القصص ، فكانوا أداة فرقة ، وأكبر عامل لإثارة الفتن .

قال ابن الجوزي : وكان القصّاص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن

بين السنّة والشيعة(١) .

ويقول أيضاً في موضوعاته : إن معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصّاص؛ لأنهم يروون أحاديث ترقق والصحاح تقل في هذا . واختلف أهل البصرة في القصص ، فأتوا أنس بن مالك فسألوه : أكان النبي ﷺ يقصّ؟ قال : لا (٢) .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره ـ من أهل العلم ـ أنهم قالوا : لم يقصّ في زمان النبي ﷺ ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر ؛ وإنما القصص محدثة ، أحدثها معاوية حين كانت الفتنة(٣) .

ولا شك أنّ معاوية استعمل تلك الفئة المرتزقة كما قدّمنا؛ ليستعين بها في وضع الأحاديث لدعم ملكه ، وحمايته بوجه موجة الاستنكار ، وقد استطاع أن ينشر بين الناس مناقب عثمان الموضوعة ، ومناقب البلدان ، ومناقب بعض الرجال والعشائر كما يشاء .

كما أنّه استطاع أن يختلق لخصومه مثالب أبرزها في قالب الابتكار والخيال الواسع ، وتمكّن بهذه القوة ، أن يزوي ما لعلي ؑ من مناقب وما ورد فيه من أحاديث صحاح ، فكان بحكم تلك الدعايات التي هي كأوامر رسمية أن أصبح الخطباء يعلنون سبّ علي ؑ وشيعته ، وكان الوعّاظ يختمون مجالسهم بشتمه ؑ وكان يلزم الناس بإعلان سبّه والبراءة منه ، وفرض عليهم تعليمه لأبنائهم ، وأصبح معاوية بمقتضى تلك الأساليب وبتلك الأكاذيب هو : أمين الأمّة ، وكاتبَ الوحي وخال المؤمنين ، إلى آخر ما هنالك من أساطير .

---

(١) انظر المنتظم ج٧ ص٨٨ .

(٢) الموضوعات لابن الجوزي ج١ ص٤٤ .

(٣) تحذير الخواص ص٢٣٥ .

ومهما حاول معاوية إخفاء فضل علي عليه السلام فقد انهار ما بنى ، وبقي ذكر علي وأهل بيته عليهم السلام تردّده الأجيال بفخر واعتزاز على مرّ العصور والأيام .

إذا ما بناءٌ شاده الدين والتقى تـهدّمت الدنيا ولم يتهدّم

ولسنا هنا بمعرض البحث عن تلك الأزمنة ، فقد أشرنا إلى بعضها في الأجزاء السابقة ، وجلّ اهتمامنا في جميع ما ذكرناه هنا وهناك ، هو إعطاء صورة عن الأمور المحزنة التي تحزّ بالنفس ، والتي حدثت في أزمنة متأخرة من الزمن . الذي كان ظرف تلك الحوادث وهي امتداد لما حدث فيها من خلافات .

* * *

وعلى أيّ حال ، أنّ الأثر الذي أحدثه القصّاصون في ذلك المجتمع من إثارة فتن ، وإيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين ، وإشعال حروب طاحنة؛ هو من أعظم الأُمور التي ابتلي بها المسلمون في تلك الفترة المظلمة .

لقد كان أُولئك النفر يحرّضون الناس على القتال والنهب ، ويحرّكون القلوب ويثيرون الشعور بما يفتعلونه من أقوال ويضعون من أحاديث ، يغذّون بها أدمغة العامة ،كما قاموا في المساجد والجوامع والطرقات والأندية يبثّون سمومهم؛ فاتخذتهم السياسة سلاحاً فتّاكاً ـ كما قدمنا ـ وهم ينتشرون في ساحات الحرب يشجعون الجند على القتال . ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفترياتهم؛ حتى أصبح من العسير الإنكار على واحدة منهم . ومن تجرأ فأنكر ، يكون عرضة لسخط العامة . وحيث عظم خطرهم وفشا كذبهم وظهر تلاعبهم بتفسير الكتاب العزيز ، فأراد بعض العلماء أن يقوم بتوجيه الناس بحملة إنكار على هؤلاء الذين فتكوا بجسم الأُمة بأكاذيبهم ، ولكن أقعد أُولئك العلماء خوف العامة ، فتركوا الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر تقية وخشية من السلطان؛ لأنّهم تحت رعاية الدولة . وربما خرج القاصّ محاطاً بالجند ومزوّداً بالسلاح .

ففي سنة (٤٧٥ هـ) عبر قاصٌ من الأشعرية ـ يقال له البكري ـ إلى جامع المنصور ومعه الشحنة والأتراك بالسلاح ، وكان البكري في حدة وطيش ، وكان النظام أنفذ ابن القشيري ، فتلقاه الحنابلة بالسبّ ، فأرسل إليهم النظام هذا القاصّ ، فأخذ يسبّ الحنابلة ، ويستخفّ بهم ، وقد أُحيط بالسلاح من الأتراك ، وصعد المنبر وقال : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (١) ما كفر أحمد بن حنبل ، ولكن أصحابه كفروا . وحكى على الحنابلة في صفات الله عزّ وجلّ ما لا يليق ، فأغرى بهم الناس وأعلن شتمهم(٢) .

وأراد جماعة من العلماء الإنكار على محمد السمرقندي؛ لأنّه كان يقصّ ويحدّث بأحاديث منكرة ، فلما حضروا عنده ، اجتمع العامة ، فخاف العلماء من شرّه .

ونزل قاصّ في دار الحذّائين وروى أحاديث منكرة ، فأراد يحيى بن معين أن ينكر عليه ، ولكنه ترك ذلك تقية خشية أن يقتله الحذّاءون بشفارهم .

وحكى السيوطي قصته مع القصاص الذي حدّث الناس بحديث لا أصل له وكذّبه السيوطي ، وأفتى بأن هذا الحديث لا أصل له وهو باطل لا تحلّ روايته ولا ذكره وخصوصاً بين العوام ، والسوقة ، والنساء ، وأنه يجب على هذا الرجل أن يصحح الأحاديث التي يرويها في مجلسه على مشايخ الحديث .

فنقل كلام السيوطي إلى ذلك القاص ، فاستشاط غيظاً وقام وقعد ، وقال :

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

(٢) تحذير الخواص للسيوطي ص٥٠ .

مثلي من يصحح الحديث عن المشايخ ؟! مثلي يقال له في حديث رواه أنه باطل ؟! أنا أصحح على الناس . أنا أعلم أهل الأرض بالحديث . ثم أغرى الناس بالسيوطي فهاجت العامة ، وقامت الغوغاء ، وتناولوه بألسنتهم ، وتوعدوه بالقتل والرجم[1] .

وأنكر علي بن نبال على قاصّ بما حدّث ، فعظم ذلك على العامة وهمت بإيقاع المكروه فيه ، فاختفى عنهم وتوارى في بيته . وسمع الأعمش أحد القُصّاص يقول : حدثنا الأعمش . فقام وتوسط الحلقة ، وجعل ينتف شعر إبطه . فقال القاص :

يا شيخ ، ألا تستحي نحن في حلقة علم ، وأنت تفعل مثل هذا؟!!

فقال الأعمش : الذي نحن فيه خير من الذي أنت فيه .

قال : كيف ؟

قال : إني في سنّة ، وأنت في كذب ، أنا الأعمش ، ما حدّثتك مما تقول شيئاً[2] .

وتجنّب العلماء معارضة القصّاصين ، والردّ عليهم تقية وخوفاً على أنفسهم؛ لأنّ العامّة ارتبطوا بالقصّاص ، وأقبلوا عليهم وتقبلوا كل ما يلقونه من الموضوعات ، والقصص الخرافية . وقد قام أحد القصّاصين فحدّث عن النبيﷺ أنه قال : من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار . فلم يبق أحد منهم إلّا وقد أخرج لسانه يومئ بها إلى أرنبة أنفه[3] . ومن هذا الباب تسرّبت أكثر الأحاديث المرغّبة في كثير من الأعمال .

---

(١) تحذير الخواص للسيوطي ص ٥٠.

(٢) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٥٥ ، وإحياء العلوم للغزالي ج١ ص٥٨.

(٣) القصّاص والمذكّرين لابن الجوزي ص ٩٠.

ودخلت أذهان العامة تلك الخرافات والأباطيل ، وأصبحت وكأنها حقائق لا تقبل الشك ولا تخضع للجدل ،كما أدخلوا كثيراً من العقائد المفتعلة ضمن أحاديث مكذوبة أحدثوها ، وربما خلقوا لها أسانيد من أنفسهم . ومن أغرب ما ورد عنهم أن أحدهم قام فحدّث عن أبي خلفة أنّه قال : حدثنا الوليد بن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي . فقام إليه أبو حاتم البستي وقال له : رأيت أبا خلفة؟ قال : لا . قال له كيف تروي عنه ولم تره؟

فقال القاص : إن المناقشة معنا من قلة المروة ، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد ، وكلما أسمع حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد[1] .

ومن ذلك أنّ قاصّاً حدّث بحديث وأسنده عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ـ وكانا حاضرين بالمجلس ـ وبعد أن فرغ أوحى إليه ابن معين بيده ، فأقبل متوهماً لنواله ، لأنّ القُصّاص كانوا ينالون الأموال من المستمعين ، فلما جلس قال ابن معين : من حدثك بهذا الحديث ؟ قال : حدثني يحيى بن معين وأحمد بن حنبل .

فقال ابن معين : هذا أحمد بن حنبل وأنا ابن معين ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا . فقال له : أنت يحيى ؟

قال : نعم .

قال القاص : لم أزل أسمع أنّ يحيى بن معين أحمق ، ما حقّقت إلا الساعة .

فقال له يحيى : كيف علمت أني أحمق ؟

فقال : كأنّ ليس في الدنيا أحمد بن حنبل وابن معين غيركما؟ قد كتبت

---

(١) تحذير الخواص ص٢٠٢ .

عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فوضع أحمد بن حنبل كمّه على وجهه .

وقال : دعه يقول .

ولم يستطع أحدهما والحالة هذه أن يشتد في الإنكار عليه مع عظيم منزلتهما واشتهارهما بين الناس خوفاً من الغوغاء(١) .

وحدّث بعضهم عن الأعمش بلا سند قال : خرجت في ليلة مقمرة أُريد المسجد فإذا أنا بشيء عارضني ، فاقشعر منه جسدي . فقلت : أمؤمن أنت أم كافر ؟ فقال : بل مؤمن . فقلت : أمن الأنس أنت أم من الجن ؟

قال : بل من الجن .

فقلت : فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟

قال : نعم .

ثم قال : وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في أبي بكر وعمر فاحتكمنا لإبليس .

فقال العفريت : إنّهما ظلما علياً واعتديا عليه . فحكينا ذلك لإبليس فضحك وقال : هؤلاء ـ أي الذين يقولون بهذه المقالة ـ من شيعتي وأنصاري وأهل مودتي . ثم قال : ألا أُحدّثكم بحديث ؟ قلنا : بلى . قال إبليس : إني عبدت الله في سماء الدنيا ألف عام ، ثم رفعت إلى الرابعة ، ورأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبي أبي بكر وعمر ، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر(٢) .

---

(١) الأسرار المرفوعة ص٤٣ ـ ٥٥ .

(٢) انظر شرح العينية ص٥١٠ ـ ٥١٢ .

بهذا يتقدم قاضٍ يعهد إليه توجيه المجتمع حسب رغبات الدولة ، وأي خدمة أعظم من هذه؟ وهي إبراز خصوم الدولة ـ وهم الشيعة أو المبتدعة في منطق السياسة ـ بمظهر يشمئز منه كل واحد ، وقد وسموهم بأنهم يلعنون الشيخين ويبغضونهما ، وشاع ذلك في المجتمع بدون وقوف على واقع الحال .

كما اتخذوا من القصص وسائل تدخل في أذهان العوام عندما يسندون ذلك إلى عالم الغيب أو الخضر عليه السلام وهو يتردّد على ألسنة القصّاص في أكثر المناسبات لتوجيه الشعور إلى ما يمكن قبوله .

لقد حدّثوا عن بلال الخوّاص أنه قال : كنت في تيه بني إسرائيل ، فإذا رجل يماشي ، فتعجبت منه ، ثم إني أُلهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له : بحق الحق من أنت؟

فقال : أخوك الخضر .

فقلت له : أُريد أن أسألك .

فقال : سل .

فقلت : ما تقول في مالك بن أنس ؟

قال : هو إمام الأُمة .

فقلت : ما تقول في أحمد بن حنبل ؟

فقال : رجل صدق .

فقلت : فما تقول في بشر الحافي ؟

فقال : لم يخلق بعده مثله[1] .

---

(١) أحمد بن زيني ، شرح العينية ص ٥١٦ .

وهكذا تدور هذه المحاورة الخيالية ، وتبرز للوجود بهذا الشكل ، لتلعب دوراً في مجال الدعاية المذهبية ، وتأخذ طريقها إلى عقول تتقبل الخرافات والأباطيل .

ولقد أبتلي الخضر ﷺ بأولئك القصّاصين ، فهم يزجّون بشخصه ، ويدخلون اسمه في كثير من قصص الدعاية المذهبية ، كما جعله بعض الأحناف تلميذاً لأبي حنيفة في حياته وبعد مماته كما تقدم .

كما استعمل الصوفية من شخصيته وسيلة إعلام لبعض شخصياتهم أو شاهداً على صحة طريقتهم[1] .

* * *

لقد دخل نشاط القصّاصين في أغلب زوايا المجتمع ، واستخدمه الناس في أغراضهم المختلفة ، ولجأ إليه أصحاب المذاهب . وكانت القصص تتبدل شخصياتها بحسب تغيّر المتنفّذين والصنعة التي يحملونها : مذهبيةً أو عرقية أو إقليمية . ولكن الأمر الذي لا يتغير هو العداء للشيعة والهجوم عليهم تحت ستار سبّ الصحابة أو بغض الشيخين ؛ لأنّ الحكّام منذ عهد معاوية اعتمدوا هذه التهم ، وراحوا يستميلون الأُمة ، ويجعلون اتجاه وجودها واستمرارها عدائياً تجاه الشيعة ، وتأكيد سلطة الحكام وصفتهم الدينية من خلال أصحاب الصنعة في الخطابة والحديث والقصص .

كان مجلس القصّاصين يضمّ الرجل والمرأة والطفل ، وكلّهم على مستوى واحد من حيث قبول تلك القصص ، ولا تتعدّى أنظارهم ومدركاتهم حدود المنابر التي يرقاها مرّة الوعاظ المرتزقة ، ومرّة العلماء المأجورون ، ومرّة

---

(١) أحمد بن زين ، شرح العينية ص ٥٣٤ .

القصّاص الكذبة وهو يستجون بحمد الظلمة ويأتمرون بأمر البغات منذ أن قامت الفتنة على يد الطلقاء من الأمويين ، ومنذ أن اشرأبت الجاهلية من على دست حكمهم في الشام ، فراحت هذه الزمر ومؤسساتها تؤثر في أذهان الناس ، وتبني عقائدهم كما تشاء . بحيث يُصبح الحاكم الظالم والفاسق الفاجر إماماً بنصٍّ مكذوب وأثرٍ موضوع ، فيتقبل الناس ما يلقونه إليهم من سموم .

وفتح من جرّاء ذلك شدة البغض لهؤلاء الذين يوصفون أو يتهمون ببغض الشيخين أو لعنهما ، وبالأخص تضاعف التهم على الشيعة؛ حتى أصبحت من الأمور الارتكازية . لهذا ثبت في أذهان السذّج أن بغض الشيعة من السُنة ، وأنه خير عمل يقدّمه الإنسان لربه .

وجاء في النجوم الزاهرة في ترجمة الخفّاف أنّه كان شديداً من السّنة ، ولما مات ابن المعلّم فقيه الشيعة ـ وهو الشيخ المفيد رحمه الله ـ جلس للتهنئة وقال: ما أُبالي أي وقت مُتُّ بعد أن شاهدت موته .

قال مؤلف النجوم الزاهرة : ومما يدلّ على دينه وحسن اعتقاده بغضه للشيعة ، ولو لم يكن من حسناته إلّا ذلك لكفاه عند الله(١). فلا غرابة أن يصبح بغض الشيعة سنّةً معمولاً بها ، وهي عندهم خير ما يلقى الإنسان بها ربه . وقد أصبح الكثير من هذه البدع من المسلّمات عند العوام لا تقبل الجدل والنقاش ، وأنّ الكثير من الخرافات قد ارتكزت في الأذهان كحقيقة واقعية لا لبس فيها ولا غموض .

وقد خفيت تلك الخرافات على أكثر الناس ، وأصبح لها مكانة . وهي عنصر فعّال في توجيه الشعور ضد الخصوم ، لا سيما أنّهم أشركوا الشياطين

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦١ .

والجنّ في المعاونة معهم بالعمل ضدّ كل من يخالف المتسلطين ودعاة التحجر والجمود .

حدّث أحمد بن نصر قال : رأيت مصاباً بالصَرَع ، فقرأت في أذنه ، فكلّمتني الجنية من جوفه فقالت : يا أبا عبدالله ، دعني أخنقه ، فإنه يقول بخلق القرآن[١] . وأحمد بن نصر هو من كبار العلماء ، وممن يقول بقدم القرآن ، وقد امتنع عن القول بخلقه ، فأحضره الواثق فقال له : ما تقول في القرآن ؟

فقال : كلام الله .

قال الواثق : أفترى ربك يوم القيامة؟

قال : كذا جاءت الرواية .

فقام الواثق إليه بنفسه ، فقتله صبراً[٢] .

ويروي الخطيب البغدادي في التاريخ أنّ الواثق قال له : ويحك! يرى كما يرى المحدود المتجسّم ؟ يحويه مكان ويحصره الناظر . أنا أكفر برب هذه صفته[٣] وقد كان أحمد بن نصر من ضحايا السلطان ، نصب رأسه ببغداد على رأس الجسر ، واستخدم القصاص من الحنابلة طريقة موته ، وادخلوا المنامات ، وكم للمنامات والرؤى من أهمية عندما يعز الأثر وتنعدم المادة ، وهي من أسهل الأساليب . وقد عجّت بها المصنفات المختلفة ، فأحاط القصاص موت أحمد بن نصر بما يخدم عقيدة التجسيم ، إذ يروي الخطيب البغدادي عن الحنابلة : رأى بعض أصحابنا أحمد بن نصر في النوم بعدما قتل ،

(١) و(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٨١ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٥ ح ٢٩٣٩ .

فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ماكانت إلا غفوة حتى لقيت الله ، فضحك إلي .
أخبرنا أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن طاهر الدقاق ، أخبرنا أبو بكر النجاد ، حدثنا عبدالله بن أحمد حدثنا أبو الحسن بن العطار محمّد بن محمّد قال : سمعت محمّد بن عبيد ـ وكان من خيار الناس ـ يقول : رأيت أحمد بن نصر في منامي فقلت : يا أبا عبدالله ، ما صنع بك ربك ؟ فقال : غضبت له ، فأباحني النظر إلى وجهه، انتهى [١] .

ثم ينشرها المختصّون ويذيعونها . وقد ذكرنا فيما سبق أن الواثق كان يمثل المرحلة الوسطى التي تجمع بين المأمون في شدته وبين المتوكل في إدنائه الحنابلة والعامة ، أو أن هناك ما يشير إلى ميل لتبرئة آل العباس من دماء الأبرياء وإبقاء صلة القرابة بالرسول ﷺ معتمداً لمكانتهم المقدسة ، فوضعوا على لسانه أن أحدهم سأله وهو «... عليه السندس والاستبرق وعلى رأسه تاج : ما فعل الله بك يا أخي ؟ قال : غفر لي وأدخلني الجنة ، إلا أنّي كنت مغموماً ثلاثة أيام . قلت : ولم ؟ قال رأيت رسول الله ﷺ مرّ بي ، فلما بلغ خشبتي حوّل وجهه عنّي ، فقلت له بعد ذلك : يا رسول الله ، قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال : أنت على الحق ، ولكن قَتَلَكَ رجل من أهل بيتي ، فإذا بلغت أستحيي منك .

ويعقد ابن الجوزي بابين مستقلّين في المناقب يذكر فيهما المنامات التي رؤي فيها أحمد بن حنبل ، وباباً آخر يذكر فيه تأثير موت أحمد عند الجن ، نذكر منها على لسان رجل بطرسوس : أنا من اليمن وكانت لي بنت مصابة ، فجئت بالعزّامين ، فعزموا عليها . ففارقها الجنّي على أن لا يعاود ، فعاود بعد

---

(١) تاريخ بغداد ج٥ ص٣٨٧ ـ ٣٨٨ رقم ٢٩٣٩ .

سنة . فقلت : أليس قد فارقت على أن لا تعاود ؟ قال : بلى ولكن مات اليوم رجل بالعراق يقال له أحمد بن حنبل ، فذهبت الجن كلها تصلّي عليه إلّا المردة وأنا منهم ، ولست أعود بعد يومي . فما عاد[1] .

ومن المضحك ، بل المخزي في آن واحد ما وقع في سنة (٤٥٦ هـ) أنّ قوماً من الأكراد خرجوا متصيّدين ، فرأوا بالبرية خيماً سوداً سمعوا فيها لطماً شديداً وعويلاً كثيراً وقائلاً يقول : مات سيدوك ملك الجن ، وأي بلد لم يلطم عليه ولم يقم له فيه مأتم قلع أصله وهلك أهله . فخرجت النساء من حريم بغداد إلى المقابر يلطمن ثلاثة أيام ويخرّقن ثيابهنّ وينشرن شعورهنّ ، وخرج الرجال يفعلون مثل ذلك ، وفعل هذا في واسط وغيرها من البلدان[2] .

بمثل هذه العقلية الضحلة ، أصبح الناس يعيشون تحت ظلال علماء وقادة يدفعون بهم إلى مهاوي الجهل والتعصب ، ويقبعون في ظلمات الفرقة ، وقد نشرت تحت ستار الوعظ خرافات وأوهام وأباطيل ، وطغت موجة الغلو والتحدي لتعاليم الإسلام ، وانتشرت عقائد بعيدة عن روح الإسلام ونظمه ، ومصدر ذلك تلك الحلقات التي أتخذت لأغراض خاصة وأبواق المأجورين .

ولقد أخذت تلك الخرافات مكانتها في أدمغة السذّج ، وهي السمّ القاتل ، والسلاح الفاتك ، ثم تحولت إلى مادة يشطح فيها الخيال ، ويحاط بها الأشخاص . وتظهر على الساحة جماعات بمسوح دينية وشعائر مبالغ فيها ، تجعل لها قادة من الرجال الأحياء أو الأموات ، فتنسب إليها الأعمال أو تصوّر سيرهم بأوضاع لا تجد لها مستنداً من عقل أو حقيقة ، وما هي إلّا أوهام تنجم

---

(١) مناقب أحمد بن حنبل للجوزي ص ٤٣٠ .

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص ٨١ .

عن حالات خاصة يمارسها الأشخاص ، فتخلق أجواء يبرز بها مختصّون في الأداء والتوجيه ، تجتذب أفعالهم السذّج والبسطاء ، فتصبح عندهم عقيدة وطريقة . وقد جاءوا بمناقب لمن وسموهم بالأولياء أو الشيوخ ذوي الكرامات .

فهذا يدّعي له بأنّ الشمس وقفت له إكراماً حتى يصل إلى وطنه عندما ضايقه الليل كالشيخ محمد الحضرمي حتى قالوا في ذلك :

ومن جاهه أومأ إلى الشمس أن قفي فلم تمش حتى أنزلوه بمقعد[١]

وقالوا : أنّ الكعبة توهّدت وهي تطوف بسريره[٢].

وأوردوا عن النبي ﷺ : أن من قبّل يد الشيخ الحضرمي دخل الجنة[٣] . إلى غير ذلك من خرافات وأوهام .

وكذلك ادعي للسيد أحمد الرفاعي أن الشمس وقفت في قرصها إلى أن دخل قرية أُم عبيد[٤] وأكثروا عن المشايخ نقل كرامات تدل على مبلغ ما وصل إليه الانحطاط الفكري ، وقد جعلوا الاعتراف بها والخضوع لها من عقائد الإسلام ، فمن مارى فيها شكّوا في دينه[٥] .

فكانوا يلزمون الناس بالاعتقاد بأن شيبان العجمي سخرت السماء لخدمته ، عندما يريد أن يغتسل ، فهناك تأتي سحابة تمطره فيغتسل ، ونسبوا لآخر منهم أنه يخرج في القافلة من البصرة يوم التروية ، فيدرك الحج أول النهار .

---

(١) مرآة الجنان، اليافعي ج ٤ ص١٨٨ .

(٢) انظر شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٢ .

(٣) ابن العماد ، شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٢ .

(٤) روضة الناظرين، الشيخ أحمد الوتري ص٩٩ .

(٥) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي ص١٢٤ .

وقالوا : إنّ إبراهيم الخراساني كان يمشي على البحر بين الأمواج ، وأحمدبن خضير البلخي كان يفرش بساطه على البحر[١] .

وغير ذلك من ادّعاءات كاذبة ومناقب مفتعلة ، وليت الأمر اقتصر على تخيّل الكرامات وادعاء المعجزات التي يسهل أمرها عند تحكيم العقل وتدقيق النظر ، فإن قائمة الموضوعات امتدت إلى الأحكام الشرعية وابتغائها على نتاج هذه الأمراض التي تكبّل طاقات البشر وتشلّ قدراتهم ، فيُعلم العيد من امتناع الوليد عن الرضاع وهو في حضن أُمه . أو ما أوردوا للسيد البدوي من أنّه بعد أن مات قام فغسّل نفسه ، وبعد انتهائه من الغسل مات ثانية .

وقد ابتني على هذا نزاع فقهي كما أورده الشيخ الباجوري وغيره في تغسيل الجنائز فقالوا : إن الميت لو غسّل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية كما وقع للسيد أحمد البدوي[٢] .

ويروون أنّ جماعة من الفقهاء والفقراء اجتمعوا عنده في المدرسة النظامية ، فتكلم في القضاء والقدر ، بينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حيّة من السقف ، ففرّ منها كل من كان حاضراً عنده ولم يبق إلّا هو ، فدخلت الحية تحت ثيابة ، ومرت على جسده ، وخرجت من طوقه ، والتوت على عنقه ، وهو لا يقطع كلامه ولا غيّر جلسته ، ثم نزلت على الأرض وقامت على ذنبها بين يديه ، فصوتت ، ثم كلّمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين ، ثم ذهبت . فرجع الناس وسألوه عما قالت، فقال : قالت لي: لقد اختبرت كثيراً من الأولياء فلم أر مثل ثباتك . فقلت لها : وهل أنت إلّا دويدة يحركك القضاء

(١) الكواكب الدرية، المناوي ج١ ص١٩٢ ـ ١٩٨ .

(٢) انظر نور الأبصار للشبلنجي ص٣٦١ ـ ٣٦٨ .

والقدر الذي أتكلم فيه(١) .

ومن الغريب أنّهم يربطون بين خرافاتهم وبين واقع الإسلام ، كما أنّهم اخترعوا أسطورة لرقصتهم في مجالس الذكر ، وأنهم يفعلون ذلك اقتداء بأبي بكر ، وقالوا : حدّث الأشناني عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، هبط عليّ الأمين جبريل وعليه طنفسة وهو متخلل بها . فقلت : يا جبريل ، ما نزلت إلي بزيٍّ مثل هذا الزيّ ؟

قال : إنّ الله أمر الملائكة بأن تتخلل بالعباءة إكراماً لأبي بكر . ورواها العلاء بسند عن ابن عمر . بينما الناس عند النبي وعنده أبو بكر وعليه عباءة ، قد خللها على صدره بخلال ، إذ نزل جبرئيل وقال : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها ؟ فقال النبي ﷺ : يا جبرئيل قد أنفق ماله عليّ . قال جبرئيل : فأقرأه من الله السلام وقل له : يقول ربك : أراضٍ أنت أم ساخط ؟ قال ابن حجر في بقيّة الحديث : فبكى أبو بكر وقال أعلى ربي أغضب؟

وقد أورد هذه المنقبة صاحب الذهب الأبريز في شرح الوجيز ص٣٩٢ ، وهي أنّ أبا بكر أنفق ماله في سبيل الله ، وأعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة ، ونزل جبرئيل وقال : يا محمد : إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر من الله ، وقل له : إن ربك عليك راضٍ فهل أنت عنه راضٍ ؟

فقال أبو بكر : إني عن ربي راضٍ . وصار يفتل (يفتر) كالدولاب . وعنه أخذ الصوفية الدوران والرقص(٢) .

ونسبوا إلى أبي بكر أنه ألبس أحدهم الخرقة في المنام وهو ابن هواد

---

(١) انظر طبقات الشعراني ، ترجمة الجيلي ، الجزء الأول .

(٢) الذهب الأبريز في شرح الوجيز ص٣٩٢ .

البطائحي وكان شاطراً يقطع الطريق ، فكان أول من ألبسه أبو بكر ـ كما يروي الشعراني ـ ثوباً وطقية في النوم ، فاستيقظ فوجدهما عليه ؛ ويرقى بهم الحال ، فيدّعون للشيخ عبدالقادر منزلة النبوة ودرجة المناجاة مباشرة من دون واسطة ، فيقول : يا رب . فيقول الله : لبيك .

وقد جمعت هذه المناجاة والوحي الإلهي في رسالة أسموها : الرسالة الغوثية . نقتطف منها ما يلي : قال الشيخ عبدالقادر الكيلاني :

الحمد لله كاشف الغمّة ، باسط النعمة ، والصلاة والسلام على نبيه خير البرية .

قال الغوث الأعظم المستوحش بغير الله والمستأنس بالله .

قال الله تعالى : يا غوث الأعظم .

قلت : لبيك يا رب ، الغوث .

قال : كل طوْر بين الناسوت والملكوت فهو شريعة ، وكل طور بين الجبروت والملكوت فهو طريقة ، وكل طوْر بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقة .

وقال لي : يا غوث الأعظم ، ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان .

ثم سألت فقلت : يا رب هل لك مكان ؟

فقال لي : يا غوث الأعظم ، أنا مكان المكان ، وليس لي مكان . وأنا سرّ الإنسان .

ثم سألت فقلت : يا رب هل لك شرب وأكل ؟

قال : أكلي أكل الفقير ، وشربه شربي .

ثم سألت وقلت : يا ربّ من أي شيء خلقت الملائكة ؟

إلى آخر ما جاء في هذا الباب من المناجاة التي تضمنتها «الرسالة الغوثية»

وقد طبعت باللغة التركية ، وترجمت إلى العربية ، ويأتي ذكرها في تعداد مؤلفات الشيخ عبدالقادر[١] وفيها تلك المناجاة ، أو المقابلة بين الشيخ وربه .

وقالوا عنه : أنه كان في حفرة أيام رضاعه دليلاً على هلال شهر رمضان ، لأنه كان يمسك عن الرضاع في شهر رمضان نهاراً ، ولأنه صائم ورضاعه في آخر الشهر دلالة على هلال شوال.

وصادف أن غُمّ الهلال على الناس في آخر الشهر ، فسألوا أمه : هل رضع اليوم ؟

قالت : نعم . فعلموا أنه العيد .

وبعض المصادر الصوفية تروي ذلك على لسان والدته التي يصفونها بأنها لها قدم في الطريق . وأنها قالت : لما وضعت ولدي عبدالقادر كان لا يرضع

---

(١) هو الشيخ عبدالقادر بن موسى بن عبدالله ، أمه أم الخير فاطمة بنت السيد عبدالله الصومعي الزاهد . ولد في بنيق قصبة من بلاد جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ ميلادية ، ودخل بغداد في سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ ميلادية ، فقرأ الفقه والأُصول ، وسمع الحديث ، واشتغل بالوعظ ، ولازم الانقطاع والخلوة ، وأسند له الولاية . وعرف بالشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وله مؤلفات كثيرة ، كما ذكروا له كرامات ومعاجز خصص لها كتب تنوف على أكثر من ٣٠ كتاباً . توفي في بغداد سنة ٥٦١ هـ وقبره ظاهر يزار ، ومحلة تعرف بمحلة باب الشيخ نسبة له .

جاء في النظرات ج٢ ص٩١ الطبعة ٦ ـ مطبعة الرحمانية في مصر سنة ١٩٣٠ م . تحت عنوان : دمعة إلى الإسلام ، يقول فيه :

إنه ورده كتاب من الهند يصف كتابه مؤلفاً موضوعه تاريخ حياة عبدالقادر الجيلاني وذكر مناقبه وكراماته وما وصفه بصفات وألقاب هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة فضلاً عن مقام الولاية . كقوله : سيد السماوات والأرض ، النفاخ الضرار المتصرف في الأكوان والمطلع على أسرار الخليقة محيي الموتى ومبرئ الأعمى والأبرص والأكمه ، وأمره من أمر الله . . . إلى آخر تلك الألفاظ .

وهلم معي فاقرأ بقية الكتاب ص٩٣ يصف الكتاب أمة من الناس يسجدون القبر ينتسب لأولاد عبدالله سجود رق من دون الله ، وإن في كل بلاد صورة مزار لقبر عبدالقادر ، فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد... الخ . أصحيح هذا ؟ نحن قرأنا كما قرأت والسلام .

تديي في نهار رمضان ، فأتوني وسألوني عنه ؟ فقلت لهم : إنه لم يلتقم له تدياً ، ثم اتضح ذلك اليوم كان من رمضان[١] .

لقد أدى إقبال العامة على القصّاص ، ووضوح أهداف مجالس القصّ في تمجيد الحكّام والدفاع عن أصحاب القوة والنفوذ إلى ظاهرة أُخرى ، هي التي نحن بصددها حيث نجمعها في التأثير السلبي مع القصاص .

ومع تباين الأغراض والنزعات فإنّنا إذا أخذنا بمقاييس البدعة ومعايير الأحداث ، فإنّ ما يجمع بين هذه الأعمال هو تجاوز الحد والمبالغة في السلوك ، سواء في الدفاع عن الظلمة والكذب على الرسول محمّد ﷺ أو في تعظيم الأشخاص ونسبة الأُمور العظيمة إليهم والتقيّد بشعائر تخرج الإنسان المسلم من حال الاتّزان والقبول .

ولا تحول صفة الزهد والتقشف أو أغراض الوعظ دون نظرنا إلى النتيجة .

يقول الإمام الحافظ أحمد بن محمّد بن الصديق في كتابه «فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي» : وقد نص السلف على أنّ القصص بدعة ، وأن التزهّد والتقشّف الخارج عن السنّة بدعة أيضاً ، فكان مقتضى هذا أن تردّ رواية كل زاهد ومذكر ، ويعلق ذلك بزهده وتذكيره؛ لأنه وجد الكذب شائعاً ، ووصفوا بالبدعة كما هو حال الآخرين .

فإن قيل : لم يصدر الكذب إلاّ من جهلة الزهاد ومن لا تقوى عنده من القصّاص والوعاظ .

قلنا : وكذلك المبتدعة ، فإنّا لم نجد الكذب شائعاً إلاّ في فسقتهم ، ومن لا يخشى الله منهم . أما أهل الدين والتقوى فوجدناهم في نهاية الصدق وغاية

---

(١) طبقات الشعراني ج١ ص٤٩ .

التحرز من الكذب ـ انتهى ـ وبما أنّ المصنف من أصحاب التصوّف ، فهو لم يتطرّق إلى الكرامات ، وتناول الجانب الذي يهمّ بحثه فقط ، وقد كان متصفاً في محاولته تطبيق الأحكام التي تصدر بفعل العوامل التي ذكرناها والظروف التي بيّناها من تسلط الحكام وتأثيرهم على أصحاب الفتوى والحديث ، واستخدام البدعة في الاتجاه الذي ترغب به السلطة . فهو يذكر ما ورد في ترجمة أحمد بن عطاء الهجيمي الزاهد . قال ابن المديني : أتيته يوماً فجلست إليه ، فرأيت معه درجاً يحدّث به ، فلما تفرقوا عنه ، قلت له : هذا سمعته ؟ قال : لا ولكن اشتريته وفيه أحاديث حسان أُحدّث بها هؤلاء ليعملوا بها وأُرغّبهم وأُقرّبهم إلى الله ، ليس فيه حكم ولا تبديل سنّة . قلت له : أما تخاف الله ، تقرّب العباد إلى الله بالكذب على رسول الله ﷺ ؟

كما يذكر ما ورد في ترجمة زكريا بن يحيى الوقار : كان يتّهم بوضع الأحاديث لأنّه يروي عن قوم ثقات أحاديث موضوعة قال : والصالحون قد وسموا بهذا أن يرووا أحاديث في فضائل الأعمال موضوعة ، ويتّهم جماعة منهم بوضعها(١) .

ولقد ظلت الصوفية تحتفظ بعناصرها العلمية وفلسفتها ، وهي كطريقة في الحياة أو في العباد لا نتناولها ، فلا يعنينا ذلك ، فهي قد تكون من أُصول قديمة أبعد من الإسلام ، ثم تجددت بعد فجر الإسلام ، فوجدت في المنهج الحياتي للإمام علي ؑ خير تعبير عن اتجاهها ، فجلعته القدوة . أو قد تكون إسلامية بحتة لها صفة العلم ، وحمل ما جاء به رسول الله ﷺ وإنّ الله أعدّ لقبول ما جاء به الرسول أصفى القلوب وأزكى النفوس ، فظهر تفاوت

---

(١) فتح الملك العلي ص ٦٠ .

الصفاء ، واختلاف التزكية في تفاوت الفائدة والنفع . وسوقهم حديث أبي حمزة الثمالي : حدثني عبدالله بن الحسن قال : حين نزلت هذه الآية : ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾(١) قال رسول الله ﷺ لعلي : **سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي** . قال علي : **فما نسيت شيئاً بعد ، وماكان لي أن أنسى** . قال أبو بكر الواسطي : آذان وعت عن الله تعالى أسراره(٢) .

وحرصهم على الاتصال بالإمام علي ﷺ شديد ، حتى شملهم نصب ابن تيمية فتناولهم بلسانه ودبجت يراعه في النيل ، فهم جزءٌ من تراثه الحنبلي السلفي .

وأياً كان ، فإنّ الكرامات والأحوال وتناقل خوارق الأعمال ، يؤدّي إلى بقاء المتعلقين بهم في حالة من ضعف الإدراك ووهن العزيمة ، وطريقة أداء الأذكار قد شجّعت على الحلول ، وأدّت إلى اعتقادات بعيدة عن الإسلام . وفي موضوع التصوف نتلمّس آثار القصّاص بمحاولات إبعاد طرق المتصوّفة أو حالات الزهد الكامل والتقشف المقبول عن أي صبغة شيعية . والشيعة ليس لهم رغبة أو يد في ذلك ، لكن الكثير من طوائف المتصوفة مقيمون على ولائهم للإمام علي ولآل البيت صلوات الله عليهم أجمعين ، وعبر المراحل الزمنية واختلاط المحدّثين والقصاص بأهل الذكر ، وتطور أحوال المتصوفة تبع بينهم من أصناف إلى «الهوس» أصلاً «سيئاً» حرصاً منه ، ثم انتهت المجالس إلى غاية بذاتها تفوق أو تعلو على أية غاية . لتكون مسرحاً لرواية الخوارق ، وإقامة الحركات ، والدقّ التي يعجز أي عاقل عن اختلاق

---

(١) الحاقة : ١٢ .

(٢) السهروردي ، عوارف المعارف ص ١٢ و١٣ .

أصل إسلامي لها .

وعلى أيّ حال ، فلقد اشتدّ نشاط القصّاص ، وأخذوا مكانتهم من السلطتين الزمنية والتشريعية ، فهم ينشرون بين الناس أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أنهم يتمتّعون باحترام العامة وتقديرهم ، لأنّهم يمثّلون الجانب الروحي، وإلى جانب ذلك لهم نفوذ إرادة ، إذ الدولة تمنحهم رعايتها ، وتعتني بشؤونهم ، وقد استعملوا نفوذهم هذا ضد كثير من الطوائف وجماعات من الناس . وبدأت روح الاستياء تسري في جسم الأُمة ، ونمت خلال ذلك فكرة إيجاد مجالس لذكر الله وللوعظ ، ليشغل الناس عن مجالس القصّاص ، فاتجه الأفرادإلى هذا اللون الجديد . وصفها أبو طالب المكي بقوله: إن مجالس أهل العلم بالله وأهل التوحيد والمعرفة ، هي مجالس الذكر[١] .

وتطوّرت هذه المجالس ، وتسرّبت إليها يد القصّاصين ، فتدخلوا فيها ، وقد وضعت فيها أحاديث ، وأُحيطت بهالة من التعظيم والتقديس تشجيعاً للناس والالتفاف حولها ، حتى أصبح لها بين العامة شأن من الشأن ، وتعلّقوا بها وجعلوا الحضور فيها من أعظم الطاعات وأفضل القربات ، وتزاحم الناس على تلك المجالس ، ولا ندري هل استغل المتصوفة هذه الفرصة ، ومن هنا انتشر ذكرهم ؟ وهل كان ظهور التصوف قبل انتشار هذه المجالس ، أم أنّه انطلق منها فكانت نقطة بداية ؟ ومن المستحسن هنا الإشارة إلى نشأة التصوف وتطوره ، وكيف أصبح وسيلة لنشر الخرافات وبعث الحزازات .

والذي يظهر أنّ بداية التصوف كان سنة (٢٠٠ هـ) في الاسكندرية عندما ظهرت طائفة يسمّون الصوفية ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فيما

---

(١) أبو طالب المكي ، قوت القلوب ج١ ص١٥٢ .

زعموا ، ويعارضون السلطان في أمره ، وترأس عليهم رجل منهم يسمى أبو عبدالرحمن الصوفي[١] .

ويقول القشيري : انفرد خواص أهل السُّنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[٢] .

وأول من سلك طريق الملامة : أبو صالح حمدون بن عمارة القصار المتوفى سنة ( ٢٧١ هـ ) وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أنه يخشى أن يصرفه تعظيم الناس له عن الله .

وقيل : إنّ فكرة الملاقية قديمة ، فقد وصفها أفلاطون في أول الكتاب الثاني من الجمهورية ، العادل : الحق الذي يظنّ الناس أنّه ليس عادلاً .

وكان التصوف قد شغل ناحية هامة من نواحي الحركة العقلية الإسلامية ، بل العالمية من جهة ، وكان لأعلام مفكري الإسلام كالفارابي وإخوان الصفا وابن سينا والغزالي والحلاّج وابن العربي في التصوف آراء نظرية وخطط عملية .

ولسنا بهذا العرض نريد ـ كما قلنا ـ أن نتعمق في البحث عن التصوّف ، ونشأته وتطويره في مجال الفكر ، وقد تناولت ذلك أقلام الكتاب والمؤرخين . والذي يعنينا هنا ، هو أن نعرف كيف تطوّر التصوّف ، ومتى حصلت فيه تلك الآراء الخاطئة ، وتحوّل إلى ادعاءات فارغة ووقوع أعمال منكرة ، وقد أصبح ضرره على المجتمع لا يقل عن أضرار القصّاصين ؛ بل

(١) الكندي ، الولاة والقضاة ص ١٦٢ .

(٢) الرسالة ص ١٧ .

ربما اختلط المنهجان ، وانطلقا سوية في طريق البعد عن كثير من المدّعين الصلة به ، إذ أصبح فيه من الدخلاء ودعاة السوء ما تشوّه حقيقته ، وفتح على المجتمع حكايات خرافية وأساطير ادّعوا أنها دينية ، ووضعوا أحاديث الرقائق ، ويرون في ذلك طاعة الله ونصرة الدين ، وأصبحت فكرة الاتحاد أو الحلول خارجة عما كان يسلكه القدماء من طريق النور والبصيرة الذي لا يتيسر إلّا بطريقة العبادة ، فكثرت ادّعاءاتهم في قربهم لله ، ووضع الكرامات الخارقة للعادة في حق أصحابهم الذين لهم مراتب وأسماء ومنازل وألقاب تجعل منهم نظاماً متكاملاً في الأفضلية والتأثير والمقامات والدرجات ، طالما تدخلت الأهواء الخاصة والرغبات الشخصية في إبرازها في زمننا لتحقيق المصالح والتظاهر بالعظمة الروحية والخصائص الذاتية التي تجعل له مقدرة على الأعمال في أُمور الدعاء أو الشفاء ، والله أعلم بسرّ تلك الحالات التي اشتهرت بين الناس وأصبحت عندهم بمستوى اليقين .

وإضافة إلى ما أدّى إليه التصوف وما قام على حالاته من اعتقادات وأفكار ، فإن من دواعي الإشارة إليه في كتابنا وفي هذا الموضع ، تلك الأفكار التي وجدت مع البدايات ، ولقد لمحنا إلى الاختلاف في أصل أو مصدر التصوّف ، وكان هذا الاختلاف موضع نقاش واسع وكبير اختص به كتاب كثيرون ، وقد كان المتحاملون منهم يتبعون الأُسس التي وضعها المستشرقون للطعن في الإسلام والدخول إلى أفكار الطبقة المثقفة منهم بطابع جديد ، وعلى الأخص أُولئك الذين تلقوا دراساتهم في أروقة الغرب ، وتتلمذوا على أساتذة الجامعات الإنكليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية ، وكان مذهب أهل البيت غرضهم الأول الذي وجهوا إليه سهام الاتهام ، فاختلقوا الأفكار الساذجة التي لا تستقيم ولا تثبت أمام الحقائق المعروفة ، فادّعوا أن موقع

القيادة التي أحل بها الشيعة أئمتهم ، ونظرة الاحترام والإجلال التي أحاطوا بها زعماءهم من أهل بيت النبي ﷺ لها مصادرها الأجنبية . وفي ذلك خروج على المنطق، وتجاوز وتعدّ على أبسط قوانين البحث والنظر ، احتاج دحضه والردّ عليه إلى جهود كبيرة ، وذلك لاتّساع الجهات التي تولّت القول ، ونصبت نفسها بالنيابة عن أعداء الأمة لترويج هذه الأقوال ، وقد جئنا على بعضها في الأجزاء السابقة من الكتاب ، لكن الملاحظة الهامة أنّ أتباع الغرب من أبناء اليوم أو غيرهم من حشوية السلف وعاشقي الجمود لا يصرّحون بالتجريح ، ويترددون في الشتم والاتهام في عرضهم لحالات الهوس ، والأفكار التي جعلتنا نضمّ نتائج التصوف إلى العوامل التي أدّت إلى تخلف وفرقة شديدين . ولا بد أن نذكر أنّ «الشيخ» ابن تيمية يكشف في رده على ابن عربي ومحتويات كتابه «فصوص الحكم» عن غرضه الحقيقي ، وهو تناول الشيعة والإساءة إليهم ، إذ ينسب كبارهم كالتلمساني وابن سبعين إلى الفرقة الغالية التي اقتضت الأغراض السياسية أن تحسب على الشيعة وتقرن بالإمامية ، وكان يكفي «لشيخهم» ابن تيمية ذرّة من إنصاف أو اطلاع وتحقيق ليعلم الفرق ، ولو تخلى لحظة عن مرض الحقد الأعمى ، وأنصت إلى ما يقوله الشيعة عن مذهبهم ، لبعد عن الزلل والخطأ الذي هو فيه ولو بمقيد شعرة .

وعندنا أنّ حالات الحلول والمعتقدات الأُخرى التي اتّسم بها التصوف ، تعود إلى الوضع النفسي الذي يتخلّل أوقات القيام بطقوس الصوفية ، وهي لا شك متفرعة عن تصرفات أشياخهم الأوائل الذين في نظرهم أمسكوا بأُصول المعرفة ومفاهيم المحبة الإلهية ، وراحوا يبيحون لأنفسهم تصرفات وأفعالاً غزت عقول مريديهم ، وحجبت الأُصول الحقيقية والمفاهيم الجلية التي

ستطّلع عليها في مظانّها الصافية ومصادرها النقية عند رجالات أهل البيت النبوي ، وموقع الإمام الصادق عليه السلام في هذه السلسلة .

ونقف قليلاً لنوضح بموجز من البيان منشأ كلمة الصوفي في الإسلام ، ومبدأ اشتقاقها ، فإنا نجد هناك زخماً من الأقوال فلا حاجة للبسط في ذلك ، ولعل أهمها أنها نسبة إلى الصفّة الأولى التي كان المتنسكون يجتمعون عليها في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم من الفقراء ، حتى نسب إليها جماعة فيقال فلان من أهل الصفة ، والصفة مكان في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند يمين الداخل من باب جبرئيل ، وهناك قوم يقولون أنها نسبة إلى الصفاء ـ كما قلنا سابقاً ـ أو أنها نسبة من صافى ربّه فصوفي ، وقيل أنها الصف الأول في الصلاة ، وقيل نسبة إلى بني صفة . وفريق يقولون إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي صوفينا ومعناها الحكمة ، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه بحثاً فلسفياً ، وآخرون يقولون نسبة إلى الصوف الذي اشتهر المتنسكون به ، وقد اختار هذا الإسلام جماعة منهم[1] .

ونجد التنسك في الإسلام حيث تنسك جماعة من الصحابة في عهد النبي وعرفوا به كأبي ذر وحذيفة وأويس القرني وغيرهم . وكان المتصوّفون في أول نشأتهم يتنسكون ويتعبدون من دون إطلاق لتسمية المتصوّفة عليهم؛ لأنّ تنسكهم وزهدهم من وجوه إيمانهم بأحكام القرآن وعقائد الإسلام ، وهو ما كان سبب مأساة أبي ذر الذي قصد إلى تطبيق نظام الإسلام وضمان حق الفقراء ، وتمسك بمبدأ الآخر وزوال الدنيا ، فكان شعاره قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ

---

(١) بين التصوف والتشيع ص ٢٨٣ ـ ٢٩٣ .

أليم﴾[١] فامتدت إليه يد الأغنياء ، ورمته في أحضان حكم معاوية ، فكان لا يخفي إنكاره لما فيه معاوية من بذخ وترف يتعارض مع الإسلام ، وزاد على ترديده قول الله ، قوله لمعاوية جهاراً : إن كان ما أنفقت من مال الله فهو خيانة ، وإن كان من مالك فإسراف .

ولقد أدّت أوضاع الدعوة في زمن الرسالة وضرورات نشر الدين إلى معاناة كبيرة وتضحية بالغة شملت الأهل والمال والمسكن . فقد كان أهل الصفة ـ غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ـ ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا : يخرّون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين . وكان لباسهم الصوف حتى أن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر . هذا وصف بعضهم لهم حتى قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ : أنه ليؤذيني ريح هؤلاء ، أما يؤذيك ريحهم؟[٢] .

والمتصوفة يتمسكون بنسبتهم إلى حال أهل الصّفة ، وأنّ التسمية منها ، غير أن ذلك لا يتفق مع اللغة ، وتأباه قواعد الصرف . أما النسبة إلى الصوف فقد تكون من حيث اتفاقها مع قواعد اللغة والتاريخ هي الأصح . ولا نعني بالقطع واختيار أحدها على وجه اليقين . فليس لذلك أهمية في نظرنا ، وقد يخرج عن صلب البحث . كما أن الصوفية يريدون أن يجمعوا بين كل التسميات ، وربطها بالصفّة والصوف اللذين يتوحّدان في نظرهم ، ومن نسبهم إليهما فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم ، وذلك أنهم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الأخدان ، وساحوا في البلاد ، وأجاعوا الأكباد ،

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ٢٢.

وأعروا الأجساد ، لم يأخذوا من الدنيا إلّا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسدّ جوعة[(١)] .

ونختصر القول في نصّين كليهما لأحمد أمين ، لأني في دار الغربة والابتعاد عن الوطن حيث داري ومكتبتي ، أُعاني معاناة لا يعرفها إلّا الله من توفير ما احتاج إليه من ضرورات البحث وأُمهات المصادر التي كانت متيسرة في داري في النجف الأشرف ، وأنفقت بين رياض الأفكار الشطر الأوفى من عمري ، كان حصيلته الأجزاء الستة الماضية من كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ومخطوطاتي الأُخرى . ناهيك عن وهن البدن وضعف البصر حتى الكلل . لك الحمد اللهم أولاً وآخراً .

يقول أحمد أمين : ومن ناحية أُخرى تغالي الصوفية في الأعمال النفسية الروحية ، ولم يضغطوا ضغطاً كافياً على الأعمال الظاهرة . فكان هناك فقهاء وصوفية ، وعداء بين الفقه والتصوف . الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبأون إلّا بالقشور من مظاهر الأُمور ، والفقهاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا في أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام وسمّوهم أهل الباطن[(٢)] .

ويقول الدكتور أحمد أمين : وكان التصوّف يغلو في الباطن ، وكان مرتعاً خصباً للخرافات والأوهام والتحرر من الشعائر ، وارتكاب الموبقات ، واخترعوا بجانب التصوف الموسيقى والذكر والشطح والرقص وغير ذلك ، وكان لهم أثر كبير في النظام الاجتماعي المتهافت ، وكان من نتائج الصراع الشديد بين الفقهاء والمتصوّفة أن آل الأمر إلى سجن بعضهم[(٣)] .

---

(١) انظر أبو بكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

(٢) ظهر الإسلام ج٢ ص٥٧ .

(٣) أحمد أمين ، يوم الإسلام ص١٠١ .

وهذا ما يكشف لنا جانباً من جوانب الصراع الحاد ، ممّا يحدث ردّ فعل في نفوس أكثر الناس ، فالمتصوفة سلكوا الجانب الروحي إدّعاءً ، ودعوا الناس إلى الاعتقاد بما لا يقبله العقل ولا ينطبق مع نظم الإسلام ، وأصبح جانب التصوّف يدعم تلك الخرافات التي انثالت على المجتمع بسمّ قاتل ، وكانت تلك الرباطات مصدراً لأُمور لا رابطة لها بالإسلام . ووجهوا الناس إلى تعظيم قبور من يسمونهم بأولياء على طرقهم المعروفة وأساليبهم الخاصة ، يكمل هذا وذاك إدعاءات الأحداث والأفعال للأموات والأحياء الذين يتصلون بهم ، فتسود حالة من الإيمان بقدرات المخلوقين والاعتقاد بكرامات أوليائهم ، وتتحجّر الأذهان والأفهام على ألوان من الإيحاء التي يتسفيد منها الذين يحتلّون الصدارة .

وفي وسط فوضى القيام بأعمالهم وأشكال طرقهم ،كان الناس يساقون إلى مستويات عقلية واهية ، ويرفعون إلى مهاوي الجهل كما علمنا سابقاً ومرّ بنا في ثنايا البحث .

# خُلاصةُ البحثِ

إنّ روح العداء التي سقط بها المجتمع في مخالفة صريحة لأحكام الشريعة وتعاليم السنة النبوية ، تظافر على ظهورها عوامل عديدة وأسباب شتى . كانت يد المصالح الخاصة وأغراض السلطان هي الأقوى والأغلب .

ومن عوامل نجاح الدعوة إلى القضاء على محاولات استمرار العداء والانقسام ، قيامها على التحقيق والتثبت والابتعاد عن حمّى الفرقة وداء التعصب الذي ما زال ينخر في نفوس بعض الناس في عصرنا الحاضر .

وقد بحثنا الجمود الفكري ، واطلعنا على آثار الجهل ونتائج مقاومة روح العقل وحرية الأفكار ، وكيف التقت مصالح الحكام وأصحاب السلطان مع ذوي النفوذ والمكانات ، واجتمعت الجهود والطاقات للوقوف بوجه انفتاح آفاق الفكر ، وأسهم كلّ من موقعه ومسؤولياته في محاربة أصحاب الأفكار والعقائد ، واحتل التعصب المنزلة العالية لدى الذين يخشون آراء الناس وإطلاق حريتهم ، وتكوّنت لدى السلطان والحكام فكرة تحدّد الخطر في جهة النظر والاعتماد على الفكر ، وتماسكت في العهد العباسي الأجزاء التي أوجدها الحكّام المتسلّطون منذ أن انحرفوا بالنظام الإسلامي واستبدّوا بالحكم بعد الإمام علي عليه السلام وأصبحت مساهمتها في ارساء الظلم أعظم من السابق ، فإنّنا نلاحظ أنّ معاوية كان يملي إرادته دوماً على فقهائه وخطبائه والمنضمّين إلى سلطانه ، أمّا في حكم بني العباس فقد بات الاتّجاه إلى تأسيس المذاهب أولاً ، وكانت العلاقات متبادلة ومتوازنة في كثير من الأحيان بين تدخل الخليفة ورأي رجال الفقه ، ثم برز على السطح من استهان بروابط العقيدة

وروح الأُخوة في الدين وأغرته السلطة بمنافعها وملاذها .

كذلك بحثنا مسألة خلق القرآن . وهي من أعظم المشاكل وأشدّها تعقيداً ، ومن وجوه تعقيدها أن تحسب من عوامل الانحطاط في المجتمع ، ومن أسباب دفعه إلى التفرقة ، فهي قد تكون مشكلة تتجه إليها الأفكار وتعقد حولها المناظرات لتكون مادة تسلك بها مسالك الاستدلال وطرق الاستنتاج ، وتقابل الحجة بالحجة ، ويلاقي الرأي بالرأي على منهج التيارات الفكرية التي ظهرت في تلك المرحلة ، وتمثلت في أفكار واعتقادات كان حافزها الدفاع عن الإسلام ودحض افتراءات أهل الكتاب . لكن أغراض أهل الحكم والسلطان جعلتها كبقية الأفكار والتيارات ، وسلبتها ميزتها وأهمّ خصائصها؛ فباتت واحدة من أسلحة الخلفاء التي تنتهك بسببها الحرمات والأموال والدماء ، وأحدثت نتائج بالغة الضرر ترتّبت على أساليب السلطة الملتوية السيئة في تبنّيها لأفكار المعتزلة ، وقد أشرنا إلى مسؤولية رجال العقل من المعتزلة في ذلك وكأنّهم التذّوا بالسلطة كما التذّ بها من سبقهم .

وكانت مرحلة المأمون وخَلَفيه ، قد أدّت إلى زيادة وترسيخ علاقاة العامة بالسلطة ، واستسلامها للنظرة التقليدية التي عمل على رسمها بصفتها الدينية وصلاحيتها الواسعة رجال متعددون ، ارتبطوا بالخلفاء ، وأذعنوا لرغبات الحكّام فكانوا من أسباب الفرقة وحماية الظلم .

ثم اخترنا قضية البدع والضلالات ، والتي أصبحت تطلق بلا روية ، وتخضع للأهواء حتى شملت الطوائف جميعها .

كما اخترنا من عوامل تخلّف المجتمع وانقسامه مسألة القصاص ودورهم في استمالة العامة وخدمة الحكّام وجبروت الملوك ، ثم ألحقنا بهذا العامل ـ من حيث التأثير ـ قضية التصوّف وما أدّت إليه من مستوى عقلي يتقبل

الخرافات ويُقبل على الأوهام .

ومن يبحث يرَ أُموراً أُخرى عملت في جسم المجتمع تمزيقاً ، ودفعت به إلى مهاوي التخلف . غير أنّا اخترنا هذه العوامل من غير أن ننكر دور العوامل الأُخرى ، وهي في عمومها ما زالت آثارها باقية حتى الآن نسعى ـ والله من وراء القصد ـ إلى إظهار ظروف قيامها وتحكيم العقل والنظرة الواعية التي تسمو عن التعصب والجهل لنعود إلى أُصول العقيدة ، والبحث المنصف يسهم بتحقيق هذا الهدف؛ لأنّ الكشف عن ملابسات وجود هذه العوامل ، والتأكيد على حقائق قيامها ، من أهم أسباب النجاح في إدانة الطائفية والتخلي عن التعصب والعناد .

وقد بحثنا مشكلة خلق القرآن ، وطرفاً من أثر القصّاصين والوضّاع في عقول العامة في الجزء الأول من كتابنا ، وزدنا هنا ما اقتضته ضرورة البحث ومتطلبات اكتمال كل جزء من الأجزاء الأخيرة السابع والثامن بمواد البحث المطلوب التي تتيح الفائدة . وفي هذا الجزء مهدنا من خلال التطرق للبدع التي طرأت على الصوفية إلى التفسير الصوفي لسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام .

# الإمام الصادق

# والتفسير الصوفي

من الأمور الّتي ثبتت واستقرت على أُسسها ، واحتفظت بملامحها الأصلية ، وقاومت موجات العداء ، هي سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام ، فظلّت شخصياتهم الفذّة مصادر إلهام تستمدّ منها الأُمة العبر والدروس ، وتتأسى بمواقفها وتجربتها . وبقي الشيعة يتلقون أُمور دينهم من هؤلاء الرجال الذين تعرّضوا لمختلف أنواع المحن وضروب التجارب القاسية ، فرسم الأئمة ﷺ لمحبيهم وأتباعهم في كل مرحلة طريق العمل ، ووضعوا لهم سبل النجاة من خلال نماذج سلوكية ومواقف جهادية وفكرية تنير الطريق أمام شيعتهم ، وهم يعانون الويلات على أيدي الحكّام والملوك وأصحاب السلطان والجبروت .

ولا تحتكر الشيعة طرق الاتّصال بتاريخ الأئمة الطاهرين ، ولا تدّعي اختصاص الأخذ عن تراث وأحكام أهل البيت ﷺ بأحد ، بل يرون أنّهم رجال الإسلام وأعلام الهدى الذين تتجه رسالتهم إلى كل الطوائف من المسلمين ، وتسع تعاليمهم جميع المسلمين .

وقد واجه الشيعة حملات ظالمة ، وموجات عنيفة تزعّمها رجال مختلفون على مرّ العصور ، وإن لم تكن على هيئة حملات الحكام وموجات ظلمهم المتكررة ضد أهل البيت وأتباعهم ، وما يعني ذلك من ألسن ترقى منابر يفترض أن تقوم بمهمات المنبر المحمدي ، وقصاصات ومراسيم ، وجنود ودماء وأسلحة تلاحق أهل البيت ﷺ وشيعتهم . إلّا أنّ الحملات التي يقوم بها نفر بين فترة زمنية وأُخرى ، وبين مرحلة ومرحلة ، تجد لها آذاناً صاغية

لما تتستر به من مراكز احتلتها بفعل ظروف سياسية واجتماعية غلب عليها الطابع الديني ، وقد مهروا في دفع العامة إلى الإيمان بأقوالهم والاعتراف بوجهات نظرهم التي هي في حقيقتها غير سليمة لقيامها على الاجتراء والتحكّم . وقد تطرّقنا إلى ما انتهى إليه التصوّف من طقوس أسهمت في تخلّف العامة ، وتشجيع ظهور حالات يؤدّون بها حركات تخرجهم عن الاتزان والسلامة ، أو ادّعاء الكرامات التي يرافقها بيان وشرح تجعلها بمستوى المعجزات .

فكانت هذه النهايات في المتصوفة ، إضافة إلى الأفكار والمعتقدات التي تأولوها عن شواهد وأحداث لآل بيت الرسول محمد ﷺ مادة تعميق الانقسام في المجتمع الإسلامي ، وتأكيد الفرقة بين السنة والشيعة وذلك لضياع التحقيق وفقدان التدقيق .

ولئن أدّت حركة العلم والنشاط الفكري إلى اختلاط وتداخل بين دوائر الشيعة الفكرية وبين المعتزلة ، فقد حسمتها دلائل كثيرة مادية ومعنوية في الفكر والتصرف ، وبات واضحاً لكل ذي بصر ينظر بتجرد ، أن تشابه المناهج وتقارب المنحى الفكري بين الشيعة والمعتزلة ، لا يعني اتحادهما المطلق أو تشابهما التام ، ومع هذا بقيت إلى يومنا هذا ، كمثل قضية تشيّع ابن أبي الحديد شارح كتاب نهج البلاغة ، وعدم الالتفات إلى اعتزاله ، وما ينطوي ذلك على أمور لا تقرّها الشيعة ، وما ذلك إلى من نتائج إغفال التحقيق وإهمال أمانة البحث . وإلاّ فإنّ أصول التشيّع تقترن بأصول الدعوة الإسلامية وجوداً ومضموناً ، وكان أهل البيت من أئمة الشيعة قد امتازوا عبر كل عهود الحكام ـ وقبل ظهور تيارات الجدل والكلام ـ برعاية الفكر وتحفيز الرأي في حدود الشريعة والأحكام ، وضرورة العقل .

وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام من أعظم صروح الفكر الإسلامي ، لما اضطلعت به من نشاطات ومهمات تعنى بالفكر والدين ، وقد تقدّمت الإشارة في الأجزاء السابقة من الكتاب ـ وسنأتي على ذكرها في موضعها في الجزء الثامن إن شاء الله ـ إلى اتّصال رجال المعتزلة بالإمام الصادق عليه السلام ولقد أصبحت مسألة تأثر الشيعة بالمعتزلة وأخذهم عنها من جملة المحاولات التي ترمي إلى الإساءة إلى مذهب الشيعة ، والتقليل من شأنه ، فالنظرة العجلى تظهر الحقائق ، فما ظنّك بالتحقيق ورعاية الأمانة ؟

فما المعتزلة إلّا تيار لا يختلف عن بقية التيارات التي تهبّ بعوامل مختلفة لفترة معينة ، وقد نمت في ظلّ المماحكات والمناظرات . وقامت على أُسس المناظرة والجدل ، فهي في إطار الكلام وفي مناحي العقيدة ، تمثل مجموعة من الأفكار والنشاطات التي تتصل بالعقيدة ، والقصد منها الردّ على جهات داخل صفوف الأمة الإسلامية أو خارجها ، وتبنّي اعتقادات جديدة واجتهادات في الجزئيات والفروع وأقوال في الصفات ، إلى غيرها من أبواب نشاط المعتزلة ، ولا ندري كيف يسمح لنفسه منصف أن يجعل الشيعة بفكرهم وبفقههم وبرجال مذهبهم من أئمة الهدى وسادة أهل البيت عليهم السلام تابعاً ومتأثراً بالمعتزلة ، الذين كان أفضل رجالهم تبعاً لأفكار الشيعة . وهو ما تميزت به مدرسة بغداد الاعتزالية . ولقد كان من أخص الخصائص في وجود الشيعة تاريخياً ودينياً ، استقلالهم بالفقه والرواية ، وقيام أُسسها على مدرسة أهل البيت الطاهرين عليهم أفضل الصلاة والسلام . وما انتظم فكر المعتزلة من قضايا رئيسية انطوى فكر الشيعة على أُصولها وأُمهاتها قبل أن تستجد عوامل انبعاث تيار المعتزلة وظهور أُصولهم التي نادوا بها .

وفي الحقيقة ، فإنّ قضية العلاقة بين الشيعة والمعتزلة ، تبقى قضية من

قضايا الفكر ، تبرز في مستويات للبحث تستلزم الأمانة وتتطلب الموضوعية ، وأي تناول يزلّ عن غرض العلم ، ويلجأ إلى أساليب التهجّم والاتّهام ، يفضح دوافعه ويعري أغراضه؛ ولهذا وجدنا الكثير من الباحثين المعاصرين ، يتناولون القضية بطابعها الفكري وفي حدود ظروف قيامها ، وانتهاء تيار المعتزلة وبقاء طائفة الشيعة .

أمّا القضية ذات الخطر الجسيم ، فهي قضية التصوف التي قصد في كثير من استخداماتها إلى الطعن بالشيعة ، وإبقاء الخلط بين الفرق التي تحسب على الشيعة ، وبين طائفة الشيعة الإمامية .

يقول ابن تيمية في ردّه على ابن عربي : (ما تضمّنه كتاب «فصوص الحكم» وما شا كله من الكلام فإنّه كفر باطناً وظاهراً ، وباطنه أقبح من ظاهره . وهذا يسمّى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول ، وأهل الاتحاد ، وهم يسمون بالمحققين . . . فأقوال هؤلاء ونحوها باطنها أعظم كفراً وإلحاداً من ظاهرها ، فإنّه قد يظنّ أنّ ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين أهل التحقيق والتوحيد . وأما باطنها فإنه أعظم كفراً وكذباً وجهلاً من كلام اليهود والنصارى وعبّاد الأصنام .

ولهذا فإنّ كل من كان منهم أعرف هؤلاء بهذا المذهب وحقيقته ، كان أعظم كفراً وفسقاً ؛ كالتلمساني ، فإنّه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب ، وأخبرهم بحقيقته . فأخرجه ذلك إلى الفعل ، فكان يعظّم اليهود والنصارى والمشركين ، ويستحل المحرمات ، ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم ، يقرّهم فيها على عقيدتهم الشركية . وكذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء ، وكان له من الكفر والسحر الذي يسمى «السيميا» والموافقة للنصارى

والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله)[١] .

ولا نحتاج إلى بيان القصد عندما أوضح ابن تيمية وجاء على أسماء الفرق ليجعل من إدراجه «الرافضة» بهذا الشكل دلالة على لون من ألوان نيله من الشيعة ، وكم له من نصوص لا يتردّد فيها في ذلك دون رويّة أو معتمد أو مسوّغ .

أما ابن خلدون ، فهو أيضاً من أبطال الدعوة ورجال الحملة الظالمة على الشيعة ، وكغيره من الذين استسلموا لأسلافهم ، ولعبت بعقولهم الأهواء ، يجد في الصوفية مادة للطعن على الشيعة ويساهم في إثارة الغبار الذي يحجب الفوارق والحدود بين الشيعة ومن ينتسب إليهم ، ولو طبقت المناهج المحدثة التي استمدّت من ابن خلدون أفكارها الاجتماعية على هذا الجانب ، لأصبحت قضية ما يحمل على الشيعة وما يتهمون به من الأفكار الغالية والحلولية من أسس مناهج البحث التأريخي المعاصر ، ولأدّى تطبيقها إلى زوال ما أُلصق بالشيعة ظلماً ، غير أنّ ابن خلدون اتُّخذ حجة وعلَماً في فن ـ كما يرون ـ وأسهم في أمر لا يقوم على فن أو شيء من الصحة . فمتى كان التعصب علماً ، ومتى كان الهوى منهجاً ؟ فما التعصب إلّا من صور الجهل . وما الميل إلى الهوى إلّا من قلة الإدراك . ولكنّها إرادة الحكام وسياساتهم في التأثير على أفكار العامة ، وحملهم على الاعتقاد بأن كلما يصدر عن السلطان هو الحق ، وما يقوم به حاكم الزمان هو العدل ، فكان ابن خلدون وغيره من خدمة حضرات الملوك والمتزلّفين لكراسي السلاطين من الدعاة إلى ذلك .

فانظر مقدمة مقدمته وما خلع من ألقاب على الذين جعلهم كعبة تطلعه

---

(١) ابن تيمية ، الصوفية والفقراء ص ٤٤ و ٥٥ .

ومهوى أحلامه ، ولقد كان أبعد الناس عن منهج التاريخ الذي أورده في فصل علم التاريخ ، لأنّه راعى الملوك في دولهم والحكّام في سياستهم على مدى الأقطار ، فأخلاقه تجعله يمدّ لكل حاكم يداً لأجل أن يستقرّ يوماً في أحد الدواوين أو يضمّه أحد القصور ، وما التزم بما قال من أنّ فن التاريخ محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط[١] .

يقول ابن خلدون : ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة ، المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحسّ توغّلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه ، وملأوا الصحف منه ، مثل الهروي في كتاب المقامات له ، وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف ، وابن الفارض ، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم ، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة ، الدائنين أيضاً بالحلول وألوهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم ، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين[٢] .

لقد حاولنا الاقتصار على بعض أهم الأُمور التي لا بد منها في تناولنا للتصوف ، وعلى أبرز الجوانب التي جعلوها في طرقهم ، وقلنا في السابق أنّهم أوجدوا لهم نظاماً متكاملاً على رأيهم حسب المراتب والدرجات والمقامات والأحوال ، كالمريد والغوث والقطب والأبدال . وهي منازل وضعوا رجالهم

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج١ ص١٣ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٣٩٦ .

بها ، اصطلحوا على خصائصها ، واتفقوا على ماهيتها بحسب تكوين عقائدهم ، وظروف نشأتهم ومع وضوح اختصاص المراتب بالتدرج الذي يدخل في أساليب الدعوات السرية والتعاليم الباطنية ، فإنّ ابن خلدون يرى أنّ ذلك هو ما تقوله الشيعة في النقباء .

يقول ابن خلدون : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي ، وإنما هو من أنواع الخطابة ، وهو بعينه ما تقوله الرافضة ، ودانوا به ، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء ، حتى أنّهم لمّا أسندوا لباس خرقة التصوّف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم ، رفعوه إلى علي عليه السلام ، وهو من هذا المعنى أيضاً ، وإلّا فعلي عليه السلام لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال ؛ بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثرهم عبادة ، ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص ، بل كان الصحابة كلّهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة ، يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات ، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق[1] .

ويضطرنا تحامل ابن خلدون في الأمور الاعتقادية والتاريخية التي تخص الشيعة ، إلى مناقشته بنصوصه ، والجدير بالذكر ، أنّ تحامل ابن خلدون كان من أسباب إقدامنا على تأليف الكتاب ، فهو يقول عن مذاهب الشيعة في حكم الإمامة : إنّ الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة ،

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٣ .

ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة(١) .

ولنوضّح أن لا حجة ولا دليل لابن خلدون في الربط بين عقائد الشيعة وأقوال المتصوفة عن رجالاتهم والنظام الذي وصفوهم فيه:

١ ـ إنّ أمر الرسالة يحتاج الى دوام في الدعوة ، وبقاء في التوجيه يقوم على ميزات وصفات تتصل بصاحب الرسالة والقائم بالدعوة ، وتنتمي إليه في التوجه والمضمون؛ لذلك فهي من أركان الدين . وحديثه ﷺ : **«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»**(٢) ويروي : **«من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»**(٣) صريح في الدلالة على وجوب معرفة الإمام لأغراض الدين واستيضاح الأحكام .

لذلك نرى الإمام أمير المؤمنين يقول : **«وإنما الأئمة قوّام الله على خلقه ، وعرفاؤه على عباده ، ولا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه»**(٤) .

وقد كان الإمام علي عندما آلت إليه الخلافة ، قد أرسى حكمه على نظام الإمامة؛ لأنها أقرب إلى جوهر الإسلام ، وتمثل سلطانه الروحي . قال الله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾**(٥) وقال الله تعالى : **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**(٦) وقد أوضح الإمام علي عليه السلام الحالات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٤ .

(٢) بحار الأنوار ج٨ ص ٣٦٤ ح ٣٩ .

(٣) مسند أحمد ج٢٨ ص٨٨ ح ٦٨٧٦ .

(٤) بحار الأنوار ج ٢٤ ص ٢٢٥ .

(٥) الأنبياء: ٧٣ .

(٦) البقرة : ١٢٤ .

التي تخرج صاحبها عن حدود رعاية الدين عندما بيّن أصناف الناس في حديثه لكميل بن زياد ، وبيّن أصل الإمامة الديني حيث قال : «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا وأين أُولئك؟ أُولئك والله الأقلّون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتى يودعها إلى نظرائهم ، يزرعونها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى ، أُولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»(١) .

كما أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام أنّ الضلال في عدم التعرف على الإمام ، فلما سئل عليه السلام ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاًّ ؟ قال عليه السلام : «أن لا يعرف من أمر الله بطاعته ، وفرض ولايته ، وجعله حجته في أرضه ، وشاهده على خلقه»(٢) .

فإذن اتصال الإمامة بشؤون الدين وأصوله يجعلها من أركان الدين ، فهي لحفظ الشريعة وتدبير أمر الناس واستمرار الدعوة إلى الهدى والإيمان والنيابة عن صاحب الأمر وإبقاء مقام النبوة من حيث بيان الأحكام وإيضاح علوم الشريعة وحفظ السنن ، والفرائض والدعوة إلى الحق والعمل بالصدق .

فالأئمة عليهم السلام هم الأوصياء وورثة الأنبياء الذين خصّهم الله بالكمالات والعصمة ، فقال الإمام الصادق عليه السلام : «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلّم الأمر إلى مَن بعده»(٣) .

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤ ص٣١١، وحلية الأولياء ج١ ص٨٠.

(٢) بحار الأنوار ج٢٣ ص٨٢ ح٢١ .

(٣) بحار الأنوار ج٢٣ ص٢٧٣ .

يقول الفضل بن شاذان في الجواب عن علّة نصب الأئمة والأمر بطاعتهم : أنّ الخلق لما وقفوا على حدّ محدود ، وأُمروا أن لا يتعدّوا تلك الحدود لما فيه من فسادهم ، لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلّا بأن يجعل عليهم فيها أميناً يأخذهم بالوقف عندما أبيح لهم ، ويمنعهم من التعدّي على ما خطر عليهم ، لأنّه لو لم يكن ذلك؛ لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره ، فجعل عليهم قيّماً يمنعهم من الفساد ويقيم فيهم الحدود والأحكام . وفيها : أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا قلة من الملل بقوا وعاشوا إلّا بقيّم ورئيس لما لا بد لهم منه في أمر الدين والدنيا ، فلم يجزِ في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه ، ولاقوام لهم إلّا به ، فيقاتلون به عدوهم ، ويقسّمون به فيأهم ، ويقيمون به جمعتهم وجماعتهم ، ويمنع ظالمهم من مظلومهم . ومنها أنه لو لم يجعل لهم إماماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة ، وذهب الدين ، وغيّرت السنن والأحكام ، ولزاد فيه المبتدعون ، ونقص منه الملحدون ، وشبهوا ذلك على المسلمين ، إذ قد وجدنا أنّ الخلق منقوصون محتاجون غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم ، وتشتت حالاتهم ، فلو لم يجعل فيها قيّماً حافظاً؛ لما جاء به الرسول الأول ، لفسدوا على نحو ما بيّناه ، وغيّرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان ، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين . . . الخ[1] .

٢ ـ إنّ أمراً بمثل هذه الأهمية وعلى مثل هذه الصفة الدينية ، لا يمكن أن يهمله النبي المصطفى ﷺ . وفحوى الاختلاف هي التي تعيّن الصفة الدينية أو الصفة الزمانية؛ لأنّ الأخذ بالوصية وفق منظور الأئمة ، والهداية الدينية

---

(١) علل الشرائع ج١ ص٢٩٥ ح٩ .

يجنّب الأمة ما انتهت إليه الأحوال في عهد بني أُمية أو بني العباس . ولا يدع مجالاً لغلبة الأهواء أو تحكّم المصالح ، وعندنا أنّ الناس عند التحاق النبي صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى وانقطاع الوحي بموته ، لم يكونوا جميعهم على درجة واحدة من الإيمان ، بل كانت المدينة المنورة والجزيرة العربية تضمّ أُناساً من الذين أسلموا فحسب ، وآخرين من المنافقين؛ وذلك بنص القرآن وشهادة النبي صلى الله عليه وآله قال الله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) . وقال سبحانه : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(٢) . وقال الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال : ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣) وقال تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٤) صدق الله العلي العظيم .

ثمّ هل تخفى على ذي عقل دلالة ما نزل به جبرائيل أن يكون إشهار البراءة وإعلان انتهاء العهد مع المشركين على يد الإمام علي بن أبي طالب؛ لأنّ ذلك يقتضي أن يكون على يد صاحب الشريعة أو واحد من أهل بيته يمثله(٥)

---

(١) الأنفال: ٤٩ .

(٢) المائدة: ٥٢ .

(٣) الأحزاب: ٢٠ .

(٤) البراءة: ١٠١ .

(٥) في ذخائر العقبى للمحب الطبري ص٦٩ بإسناده عن أبي هريرة ، وفي رواية من حديث أحمد عن علي ←

لإعلام المشركين ما ستكون عليه علاقاتهم بأهل الإسلام بعد أن تمكنت الدعوة وأصبح لها من القوة ما تستطيع به أن تهاجم المشركين، وتتحول إلى محاربة وجودهم وعقائدهم؟ ولكن الأهواء والتعصب تجعل من كل حقيقة مثاراً للجدل.

فأخذ الأمر بالصفة الدينية التي تتظافر عليها الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة، يجعل مهمات الدعوة قائمة، ولا بد أن يكون لهذا الدين من أئمة يقومون بالأمر، وينشرون أحكام الدين ويُبيّنون أُصوله. فمن أولى من عترة النبي محمد ﷺ؟ وما قيل فيهم من قبل الشيعة ليس من أنواع الخطابة ـ كما يقول ابن خلدون ـ التي هي بضاعة خطباء الحكام أو نكايا المتصوفة، بل هي نصوص معتبرة تصف حال القائمين بالأحكام والداعين إلى الإسلام وانتهاجهم منهجاً يحيي سنة الرسول الأعظم.

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

**«إن الإمامة منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة رسوله ﷺ ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام.**

**إنّ الإمام زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين. الإمام أس الإسلام النامي وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود ومنع الثغور والأطراف.**

**الإمام يحلّل حلال الله ويحرّم حرامه، ويقيم حدود الله، ويذبّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة»**[1].

---

← أن النبي ﷺ لما راجعه أبو بكر قال له: «جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك».

وفي صحيح البخاري: ج٤ ص١٧٠٩ ح٤٢٧٨ «إلّا أنا أو رجل منّي».

(١) الكافي ج١ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ ح١.

فيكون السلوك والنسب من جنس الدعوة وصاحب الدعوة . فإذا كان أصحاب الطرق ومريدو بعض الأشخاص قد أرادوا أن يتقربوا من آل البيت عليهم السلام ، أو يتظاهروا بذلك على مختلف الأغراض والدوافع ، فليس إلى تساويهم مع الأئمة الأطهار عليهم السلام من سبيل يقره المنطق ، إلّا إذا غلب التعصب والهوى . فكل غوث أو بدل أو أي مرتبة عندهم لا تسمو إلى أي فرد من أهل بيت النبوة الأئمة الأطهار عليهم السلام حتى وإن ساقوا أحاديث صححوها وحسنوها ورواها أحمد كحديث : الابدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن ، كلّما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً[1] . وحديث الأبدال في أُمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون[2] . أو الذي رواه الطبراني عن عوف بن مالك ووصفه السيوطي بالحسن : الأبدال في أهل الشام ، وبهم تنصرون ، وبهم ترزقون[3] . فإذا قيل أنّ المقصود بهم يشمل أئمة أهل البيت عليهم السلام فإن خصائص الأئمة الأصلية التي بيناها هي الأحق .

ولو أعدنا النظر في قول ابن خلدون لنتناول نقطة أُخرى من بين النقاط التي تستدعي التوقف والمناقشة ، فابن خلدون هكذا شأنه في كل أمر يتعلّق بآل البيت الأطهار ، فهذا النص على قصره يضمّ عدة نقاط نترك مناقشتها للقارئ الكريم ، ولضيق ما نخصصه لابن خلدون هنا ، وهي في أغلبها بادية النصب والعداء ، ولنعد إلى قوله: ثم قالوا بترتيب الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً

(١) مسند أحمد ج ٣٧ ص ٤١٣ ح ٢٢٧٥١ .
(٢) مسند أحمد ج ٢ ص ٢٣١ ح ٨٩٦ مع اختلاف .
(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٤٧٠ ح ٣٠٣٤ .

لطريقتهم وتخيلهم رفعوه إلى علي ﷺ ، وهو من هذا المعنى أيضاً ، وإلّا فعلي ﷺ لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال ، بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة . . . إلى آخر كلامه(١) .

وابن خلدون على الانحراف والتحوّل عن أهل بيت النبي ﷺ اللذين دفعا من سبقه ومن اتبعه إلى أن يبعدوا أُصول التصوف التي اتفق عليها المتصوفة وادعوها عن مجالات أهل البيت ﷺ ومواقع القرب منهم ، ومدىٰ صحة ذلك وقربه أو بعده عن الحقيقة من شؤون المتصوفة وطوائفهم لا من شأن الشيعة؛ لأنّ الشيعة هم أتباع الأصل وأنصار الجوهر . وكما حفلت صفحات المناقب التي يقصد بها المضاهاة أو التأثير على مناقب أهل البيت وعظيم منزلتهم ، حفل تيار الانحراف في اهتمامه بما يتعلق بالتصوف وأُصوله التي أقيم عليها بما ينجم عن هذا القصد منها : أن أبا بكر لما أنفق ماله في سبيل الله وأعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة ، نزل جبرائيل وقال يا محمد: إن ملائكة السماوات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر من الله ، وقل له إن ربك عليك راضٍ فهل أنت عليه راضٍ ؟ فقال أبو بكر : إني عن ربي راضي(٢) .

وسرى ذلك إلى صفوف المتصوّفة ، وسمح لكثير من أشياخهم باحتلال المراتب التي يسعون إليها ، مع أنّ القسم الأعظم ـ وعلى الأخص في مصر ـ بقي محتفظاً بصورة الأُصول التي أقاموا عليها طرقهم ، وجعلوا من سيرة أهل البيت الأطهار مصدراً ثابتاً ، وأقاموا على الولاء الذي خالطته حالات

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج١ ص ٦٢٠ .
(٢) الذهب الأبريز في شرح الوجيز ص٣٦٢ .

الطرق التي أشرنا إليها ، وبعض من آثار التيارات الأُخرى التي ظهرت على ساحة الإسلام .

كما أنّ الصوفية يأخذون بالإمامة لتكون على معنى الدرجات التي تكوّن نظامهم غير أنهم يختلفون في شرط النسب .

وإذا نظرنا إلى نظرياتهم وقواعد سلوكهم؛ لوجدناهم يستخلصون أغلبها من أحداث تاريخ أهل البيت ، إذ لديهم في الولاية نظرية ولاية العلم وولاية الحكم أو خلافة الحكم ، وأن الإمام علياً اختص بالأولى .

وفي مجال الإمامة يقولون بإمامة الأشباح والأرواح ، وهي ما تقصده في الحديث عن السلطان الروحي لأهل البيت وأئمتهم الأطهار عليهم السلام ، وكيف أقاموا منزلهم في نفوس شيعتهم ومحبيهم على أساس النصح والإرشاد والوعظ والتبليغ ، وعزفوا عن سلطان الحكم ، ووجهوا أتباعهم إلى عوالم دينية روحية تجعل من الأحكام والفرائض ديناً ومجتمعاً قائماً . يروي الشيخ الصدوق رحمه الله عن جابر عن أبي جعفر عن أبيه عليهما السلام أنه قال : «**إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد: أيها المؤمنون أغدوا إلى جوائزكم**» ثم قال أبو جعفر عليه السلام : «**يا جابر، جوائز الله عزّ وجلّ ليست كجوائز هؤلاء الملوك**» . ثم قال : «**هو يوم الجوائز**»(١) .

كما يروى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً : «**ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلّا وهو يجدّد لآل محمد فيه حزن؛ لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم**»(٢) .

يقول أبو المعالي محمد سراج الدين الرفاعي عن الإمامة عند الصوفية :

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج١ ص٣٢٣ ح١٤٨٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ج١ ص٣٢٤ ح١٤٨٤ .

وجعلها إطار الدرجات والمنازل التي لديهم ، واشتراط النسب الشريف : وهي الإمامة التي عناها حجاجة الصوفية ، ووسموها بالقطبية الكبرى ، والغوثية العظمى ، والإمامة الجامعة ، وقالوا لصاحب مرتبتها : الغوث ، وقطب ، والإمام الجامع ، والإنسان الكامل ، وأطبق جماهير الصوفية سلفاً وخلفاً أن الغوث هذا المعني بهذه الإمامة لا يكون من غير أهل البيت النبوي أبداً ، وقالوا : إن أهل البيت النبوي لمّا فاتتهم إمامة الأشباح التي هي الخلافة الظاهرة ، عوّضهم الله سبحانه وتعالى ما هو خير منها ، وذلك إمامة الأرواح ، فإمامهم هذا أعني القطب الغوث يتصرف في ذرّات الأكوان ، وصاحب خلافة الظاهر ذرة منها.

ثم يورد قول السيد إبراهيم أبو إسحاق الأعزب الرفاعي كلمتان مردودتان عند أهل البساط :كلمة شريف يطلب نيل الإمامة الظاهرة بعد أن انعقدت على الإمامة الجامعة الروحية بيعة الأرواح لأهل البيت ، وأمضى الله تعالى ورسوله ﷺ لهم ذلك ، وها هي تنقلب بحمد الله تعالى فيهم ، ولا تنزع منهم حتى تختم بسيدنا الإمام ولي الله المهدي ؑ . والكلمة الثانية:كلمة رجل قال: إن قطبية الأقطاب يعني الغوثية والإمامة الكبرى الروحية ، تكون في غير أهل البيت ، فإن هذه الكلمة من عثرات ألسن بعض أهل الرأي لا يلتفت إليها ولا يعول عليها . نعم إن المحاذاة للغوث ثابتة عند المتمكنين ، فقد يحاذي الولي ليس بشريف ـ بمحض فضل الله وتوفيقه ـ مرتبة الغوث الجامع ، ولكن لا ينزل تلك المنزلة بعينها أبداً[1] بسبب منزلة أهل البيت في قلوب الناس ، وميل النفوس إليهم لم يكن من السهل إغفال هذا الشرط ، ولكن من السهل

---

(١) صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار ص ٥٠ ـ ٥١ .

ادّعاء النسب والالتصاق بالشجرة الطاهرة المباركة النقية . وظل الصوفية يرون آل البيت بمنظار طرقهم وعقائدهم . اقرأ هذا النص الصوفي :

وذكر بعضهم أنها تروى ـ الطرق ـ من جهة الحسن عن النبي ﷺ ومن جهة عن علي ، لأنّ الحسن كان أول فتحه ومدده من يد النبي ﷺ ثم صحب واقتدى بوالده عليه السلام كما وقع لكثير من أهل الله تعالى حصل لهم الفتح من يده ﷺ مباشرة ، برؤيا منامية أو اجتماع روحاني ، ثم صحبوا بعد ذلك الشيوخ للسلوك والتهذيب ، أو انتسبوا إليهم للأدب مع الشريعة والركون إلى الواسطة .

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة صلى الله عليها وسلم ، وهي أول الأقطاب على الإطلاق ، وكل هذا صحيح ، فإنهم بيت النبوة ، ومنبع المعارف والكمالات والأسرار ، وقد ألبسهم النبي ﷺ جميعاً بكسائه الشريف ، وسقاهم بمدده العظيم ، وشملهم بنوره الفخيم ، فحازوا منه ﷺ أعلى مراتب الولاية . وأقصى ما يصله البشر من درجات العرفان . انتهى[(١)] .

ثم يطلّ المتصوفة على مأساة كربلاء وفاجعة الطف ، حيث مسرح ثورة أبي الأحرار الحسين بن علي عليه السلام ومرضع نهضة سيد الشهداء ، وصفحات البطولة ، ومواقف الجهاد ، فيروون بطرقهم أنّ الإمام الحسين لما انكشف له في سرّه تدلي الخلافة الروحية التي هي الغوثية والإمامة الجامعة فيه وفي بنيه على الغالب ، استبشر بذلك ، وباع في الله نفسه لنيل هذه النعمة المقدسة ، فمنّ الله عليه بأن جعل في بيته كبكبة الإمامة ، وختم ببنيه هذا الشأن ، على أنّ

---

(١) لم نعثر عليه .

الحجة المنتظر الإمام المهدي عليه السلام من ذريته الطاهرة وعصابته الزاهرة[1] .

فإذا كان النظر في جوانب عظمة الإمام علي عليه السلام كان التأثر على أشدّه ، وراحوا يقتبسون من سيرته ، ويؤسسون على فضائله ، ويصفونه بحسب أوصافهم التي قد يلتقون عبرها مع شيعة أهل البيت أو ينفردون بها ، كما أنّهم لا يطبقون على رأي وليسوا كالشيعة في الوصية والإمامة ، فمنهم من يجعل الإمام في الطبقة الأولى من طبقات المتصوفة ، ويمضي في ذلك حسب ترتيب الخلفاء ، ومنهم من يقول أنّ الأفضلية التي يراها السنة في الخلفاء لا تستلزم الأعلمية ، ويسوقون أدلة على ذلك كقصة الخضر مع موسى عليه السلام فإنّ القرآن أثبت أعلمية الخضر بالحقائق على موسى ، مع أن موسى أفضل منه بلاخلاف بين أحد يعرفونه . ويقولون : ويكفي أن الخضر نبي وموسى عليه السلام رسول ، بل من أفضل الرسل ، ولا يوجد من يقول بأن هناك نبياً أفضل من بعض أولي العزم من الرسل عليهم السلام .

وفي الإمام علي يقولون :

بأنّه مدينة العلوم والمواهب ، وليّ المتقين وإمام العادلين ، أقدمهم إجابة وإيماناً ، وأقومهم قضية وإيقاناً ، المنبئ عن حقائق التوحيد ، المشير إلى لوامع بوارق علم التفريد ، ذو القلب العقول واللسان السؤول . والآذان الواعية والعهود الوافية . ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد صلى الله عليه وآله النبوة ، الأخيشن في دين الله ، الممسوس في ذات الله . وقد قيل : التصوف مرافقة المودود ومصارمة المعهود . قال حذيفة : قالوا يا رسول الله : ألا تستخلف علينا ؟ قال : «إن تولوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً» ، وسئل المصطفى صلى الله عليه وآله عنه

---

(١) صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار ص ٥٠ .

فقال: «قسّمت الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي تسعة والناس واحداً» وقدم عليه يوماً فقال : «مرحباً بسيد المسلمين وإمام المتقين . إن الله أمرني أن أُدنيك وأعلّمك لتعي» وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه»(١) . وقال : «علي مني وأنا منه»(٢) وقال : «أنا مدينة العلم وعلي بابها»(٣) وقال : «لا يحبه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق»(٤) . وقال : «من آذى علياً فقد آذاني ، ومن سبّه فقد سبّني ، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أحبّه فقد أحبّني»(٥) وقال : «علي مع القرآن والقرآن مع علي»(٦) وقال ابن عباس ﷺ : ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي ﷺ(٧) وكان إذا غضب المصطفى ﷺ لم يجسر أحد أن يكلّمه إلّا علي . وقال : لعلي ثماني عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأُمة . وقال يوم خيبر : «لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله»(٨) . وجعل حبه علامة الإيمان وبغضه إمارة النفاق . وقال الإمام أحمد : ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلي ﷺ . رواه الحاكم(٩) وغيره . وكان رضي الله عنه الانقياد والاستسلام شأنه ، والتبري من الحول والقوة مكانه . وقد قيل : التصوف إسلام الغيوب إلى مقلّب القلوب ، وإذا أردت أن تعرف منزلته من

---

(١) مسند ابن أبي شيبة ج٧ ص١٥٦ ، ح١ .
(٢) مسند ابن أبي شيبة ج٦ ص١٥٩ ح٢ .
(٣) البيان الجلي ص١١٣ ـ ١١٤ .
(٤) فضائل الصحابة لـ «أحمد بن حنبل» ج٢ ص٥٦٣ ح٩٤٨ .
(٥) فضائل الصحابة لـ «أحمد بن حنبل» ج٢ ص٦٢٢ ح١٠٦٦ .
(٦) المستدرك للحاكم ج٤ ص٩٣ ح٤٦٨٥ .
(٧) علي في الكتاب والسنة للشاكري ج١ ص٢٨ .
(٨) الخصائص للنسائي ص٤٣ ح٢٢ .
(٩) المستدرك للحاكم ج٤ ص٦٩ ح٤٦٢٨ .

المصطفى ﷺ فتأمل صنيعه في المؤاخاة بين الصحابة ، جعل يضم الشكل إلى الشكل ، والمثل إلى المثل ، فيؤلّف بينهما إلى أن آخا بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وادّخر علياً كرم الله وجهه لنفسه ، واختصه بأخوّته ، وناهيك بها من فضيلة ، وأعظم بها من شرف[(١)] .

ثم يستمدّون من سيرته ما يؤيّد المقالات الصوفية ، ومن أقوال أئمة المسلمين فيقول المناوي : وقد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعي ﵁ . قيل له : ما نفّر الناس عن علي ﵇ إلاّ أنه كان لا يبالي بأحد . فقال الشافعي ﵁ :كان عظيماً في الزهد ، والزاهد لا يبالي بأحد ، وكان بذات الله عليماً ، وعرفان الله في صدره عظيماً . وقد قيل : التصوف البروز من الاحتجاب إلى رفع الحجاب .

وأعيان رجالهم وكبارهم المشهور عندهم أن طريقتهم تتصل بالإمام أمير المؤمنين ﵇ يقول الوتري : نعم ، إن خرقة الصوفية (رضي الله عنهم) تتصل بالخليفة الرابع أسد الملاحم والمعامع ، شيخ أئمة الآل ، فحل الرجال ، صهر رسول الثقلين ، والد الريحانتين ، إمام المشارق والمغارب ، أمير المؤمنين أسد الله سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه ، وقد ندر اتصال خرقة بغيره ، وكلهم على هدى يتصلون بسيد المخلوقين حبيب رب العالمين ﷺ ولا يلتفت لما تقوّله البعض في شأن خرقة الصوفية ، فإن ذلك قد نشأ عن هفوات لا تعتبر ، ولا يبنى عليها الشك بعد اليقين بصحة الخبر[(٢)] .

ثم يحسبون الأئمة من آل البيت صلوات الله عليهم أجمعين أعياناً

---

(١) الكواكب الدرية ج١ ص٣٨ و٣٩ .

(٢) أحمد بن محمد الوتري ، روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين .

لخرقتهم ، فيقول الوتري ، وإنّ أعيان أهل الخرقة ساداتنا أهل بيت النبي ﷺ وأعيانهم أئمة الآل الأعلام عليهم الرضوان والسلام ، وهم : السبط الجليل القدر ، الوفير المنن أمير المؤمنين الإمام أبو محمد الحسن ، والسبط العظيم المقام ، قرة عين سيد الكونين أمير المؤمنين الإمام أبو عبدالله الحسين ، وسيدنا الإمام علي زين العابدين ، وسيدنا الإمام محمد الباقر ، وسيدنا الإمام جعفر الصادق ، وسيدنا الإمام علي الهادي ، وسيدنا الإمام الحسن العسكري ، وسيدنا الإمام الخلف الصالح قرة عين الأئمة الهادين الإمام محمّد المهدي سلام الله عليه وعليهم أجميعن ، فهؤلاء السادات الأعيان ، أحوالهم مذكورة ، وأعلامهم منشورة ، وتراجمهم أشهر من أن ينبه عليها ، وفضائلهم ، أفعمت بها الدفاتر ، وجفّت لها المحابر ، وهم سادات السادات ، وأعيان الأولياء ، الذين خرق الله لهم العادات .

ماذا يقول المادحون بوصفهم ... وهم السراة خلائف المختار
ضربت قباب فخارهم وسُمُوّهم ... بين البتول الطهر والكرار
لله جفر طاب من أنسابهم ... عقدت عليه سلاسل الأقمار(١)

* * *

ولا نطيل في تفاصيل مقالات الصوفيين أو تعريفاتهم ، ونقتصر على أمرين نراهما المدخل الذي جاء منه الصوفية إلى رياض أهل البيت في سيرهم ، وراحوا يعقدون أكاليل معتقداتهم منها .

---

(١) روضة الناضرين وخلاصة مناقب الصالحين، أحمد بن محمد الوتري .

**الأوّل : الحبّ**

وجعل مدار الحبّ إلٰهياً ، يصبغ علاقة المسلم بربّه ، وهي في أشكالها تقوم على فكرة الإمام علي عليه السلام ، وتحديده ماهية العبادة أن تكون عبادة أحرار ، لا طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب ، وعليها أسّسوا ذلك، ولا تبعد بأي حال عن ثواب او خوفاً من عقاب، وعليها أسسوا ذلك ولا تبعد بأي حال عن أصلها الحقيقي مهما تعدّدت الأقوال .

يقول القشيري : من عرف الله عن طريق المحبة دون خوف هلك بالبسط والأدلال ، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد ، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرّبه وعلّمه ومكّنه .

أما أبو طالب المكي فيقول : وكلّ محبّ لله خائف ، وليس كلّ خائف محبّاً . وربما كانت المحبة ثواباً للخوف ومزيداً ، وهذا في مقام ربّ العالمين . وربما كان الخوف مزيداً للمحبة وثوابها ، وهذا في مقام العالمين . فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين . ومن كان الخوف مزيد محبته ، فهذا من الأبرار المحبين وهم أصحاب اليمين[1] .

وأرى من المستحسن هنا أن نذكر شيئاً من نصوص التراث الشيعي القائم على أفكار أئمتهم صلوات الله عليهم ومواعظهم ، بعد الإشارة إلى تعلّق هذا المدخل بالجانب الإشراقي الذي أغناه الرئيس ابن سينا في الإشارات .

يقول الشيخ الجليل محمد مهدي النراقي في «جامع السعادات» وتحت فصل المنكرين لحب الله : قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والأنس لله تعالى ، وأنّه المستحق للحب دون غيره؛ وبذلك ظهر فساد

---

(١) قوت القلوب ، الجزء الثاني ص ٥٨ و ٥٩ .

زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله تعالى وقال : لا معنى لها إلّا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلّا مع الجنس والمثل . ولما أنكروا المحبة أنكروا الأُنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول ، مضافاً إلى ما ذكر ، إجماع الأمة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً ، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه واتصاف الأنبياء والأولياء به[1] .

قال الإمام الصادق عليه السلام : **«حب الله ، إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحب أخلص الناس سرّاً لله ، وأصدقهم قولاً ، وأوفاهم عهداً ، وأزكاهم عملاً ، وأصفاهم ذكراً ، وأعبدهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويعطيهم إذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، ولو علم الخلق ما محلّه عند الله ومنزلته لديه؛ ما تقربوا إلى الله إلّا بتراب قدميه»**[2] .

وقوله عليه السلام يعطينا صورة واضحة عن منهجه في الدعوة إلى التمسك بالدين ، والانصراف لمرضاة الله ، في وسط تلك المعتركات والمحن التي تشهدها الأمة على أيدي المتسلطين ، الذين يتخذون من دين الله ستاراً لأغراضهم وأطماعهم ، فاختطّ لنفسه ولمريديه طريق الإخلاص لله ، والتقرب منه ، الذي يبعث في النفوس الطمأنينة ، ويحيي الأمل بعد تلك النكبات والفواجع التي ألمّت بأهل البيت الكرام صلوات الله عليهم ، وامتدت إلى المؤمنين من أتباعهم .

---

(١) جامع السعادات ج٣ ص ١٥٠ .

(٢) جامع السعادات ج٣ ص ١٥٥ .

ويوضّح الإمام الصادق عليه السلام أصول اتجاهه الروحي ، ويجعل شيعته ومريديه على معرفة وبيّنة من خصائص السلوك الذي يدعوهم إليه ، ودقائق المنهج الذي يحملهم عليه ، فيقول عليه السلام : «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أُصول: الخوف والرجاء والحب . فالخوف فرع العلم ، والرجاء فرع اليقين ، والحب فرع المعرفة . فدليل الخوف الهرب ، ودليل الرجاء الطلب ، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه . فإذا تحقق العلم في الصدر خاف، وإذا صح الخوف هرب ، وإذا هرب نجا ، وإذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل ، وإذا تمكن من رؤية الفضل رجا ، وإذا وجد حلاوة الرجا طلب ، وإذا وفّق للطلب وجد ، وإذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة ، وإذا هاج ريح المحبة استأنس في ظلال المحبوب على ما سواه ، وباشر أوامره واجتنب نواهيه ، واختارهما على كل شيء غيرهما ، وإذا استقام على بساط الأُنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه وصل إلى روح المناجاة والقرب . ومثال هذه الأُصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق ، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية ، ومن دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغل بغير ذكر الله»[1] .

كان الصادق عليه السلام في مركزه الديني ومكانته العلمية ، يتصدّى لمهمات القيادة الروحية ، ويضع لأصحابه الإمارات التي يميزون بها في خضم ذلك المعترك . من أقبل على نهجه بإخلاص ، ويطلب من أصحاب البحث عن الصفات بطريق العمل والالتزام بين صفوف شيعته فيقول عليه السلام :

«امتحنوا شيعتنا عند ثلاث : عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها ، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها من عدوّنا ، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم بها»[2] .

---

(١) الاثني عشرية في المواعظ العددية للعاملي ص٧٢.

(٢) الاثني عشرية في المواعظ العددية للعاملي ص١١٠.

**الأمر الثاني**

الذي راح الصوفية ينهلون منه ما يشاءون ، ويضعونه في أوعية خاصة بهم من شأنها أن تحوّل طعم المحتوى ، وتغيّر لونه هو الزهد .

وللعلماء في حقيقة الزهد اختلاف كبير ، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بالخرقة والطريقة؟ فلا بد أن يؤخذ الظاهر الذي يعضد الأقوال أو يدعم الأُسس . ونحن هنا نعرض القليل القليل مما يتحاشاه الذين يسوؤهم ذكر الحقيقة على حالها .

فالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في حياته الشريفة وسيرته الطاهرة ، قد أخذ منذ آلت إليه الخلافة وانتهى إليه الحكم بجعل فترة إمامته فترة تتولى معالجة آثار التطورات الماضية ، وتتجه إلى المستقبل لإحكام الصلة بين عهد الرسالة وحياة النبي محمد صلى الله عليه وآله بإشراقهما ونورهما ، وبين أُسس سياسته ، حتى تهدأ النفوس وتستقر على الهدى ، ولولا فترة حكمه وتطبيقات إمامته؛ لكانت عودة الجاهلية وأحقاد المشركين بأعنف مما كانت عليه ، ولما راعت أحداً من أهل الإسلام . ولذلك فإنّ الإمام علياً في سلوكه لم يدعُ إلى ابتعاد عن الحياة ، ولا إلى انغلاق . وإنّما هو المكلّف بحفظ السنّة على أُصولها ، وإبقاء الشريعة على مقاصدها .

عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صلى الله عليه وآله يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وآله فلمّا أُخبروا بها كأنّهم تقالوها ، فقالوا : أين نحن من النبي صلى الله عليه وآله وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أمّا أنا فأُصلي الليل أبداً . وقال الآخر : أنا أصوم النهار ولا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء النبي صلى الله عليه وآله فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني

**لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنّي أصوم وأفطر ، وأُصلّي وأرقد ، وأتزوّج النساء . فمن رغب عن سنّتي فليس مني»**(١) .

وما يبنى عليه من مظاهر سيرة الإمام علي ﷺ لدى الصوفية ، وخاصة في القرن الثاني الهجري ، وبدايات اتّساع طرقها وشيوع تعاليمها ، يغفل المقاصد الحقيقية التي تكمن في كل ناحية من حياة الإمام علي ﷺ وتتعلّق بما ينسجم مع نزعتها . فإذا قيل : إن الإمام علياً كان يلبس إزاراً خلقاً مرقوعاً ، فذلك تصف الحقيقة ، لأنّ تصرف الإمام وجوانب سيرته ، تظهر فلّسفتها في أقواله . فعندما قيل له في ذلك الإزار ، قال ﷺ : «**يخشع له القلب ، وتذلّ به النفس ، ويقتدي به المؤمنون**»(٢) .

وقوله ﷺ : «**... إن الله تعالى فرض على أئمة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره**»(٣) أي يجب على الإمام العادل أن يشبه نفسه في لباسه وطعامه بضعفة الناس ، لكيلا يهلك الفقراء من الناس ، فإنّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم ،كان ادعى إلى سلوان لذّات الدنيا ، والصبر عن شهوات النفوس .

ومن أحكام القرآن يتخذ الإمام ﷺ سياسته الاجتماعية والاقتصادية ويقول : «**إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير ، إلّا بما متّع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك**»(٤) .

وفي ثنايا أقواله المأثورة ، نجد تناوله للفقر من نواحي عديدة ،

---

(١) روضة المتقين للنووي ج١ ص١٨٤ ح١٤٧ .
(٢) نهج البلاغة ص٤٢٣ خطبة ٩٩ .
(٣) نهج البلاغة ص٢٤٤ خطبة ٢٠٠ .
(٤) نهج البلاغة ص٥٣٣ خطبة ٣٢٨ .

أوّلها: الناحية الدينية ، ثم وجوده الاجتماعي ، ويجعل ﷺ من الفقر إلى الله أصلاً ، ثم يعرض جوانب الفقر الأُخرى ، وفي نهجه ما يغني وما لا يحاط به بمثل هذا العرض الموجز . ولكن من المهم القول ، أنّ حياة الإمام علي من زاوية التصوف ، ينظر إليها بأكثر من زاوية ، أهمها جميعاً ما يأخذ بالظاهر ويتشبث بإبقاء الصفات والصلة إلى الحد الذي يضع على لسانه تعريفاً للتصوف ، ليس فيه أي صفة أو علامة من صفات أو علامات منهج الإمام في بلاغته وأفكاره ، وإنما هي من صفات المقالات الصوفية . فيروي على لسانه ﷺ : **التصوف ثلاثة أحرف ، الصاد صبر وصدق وصفاء ، والواو ودّ وورد ووفاء ، والفاء فرد وفقر وفناء**[1] .

والزاوية الثانية التي ينظر منها ، هي زاوية المتخصصين وأصحاب التجربة المقرونة بالنظر ، كما هو الحال عند الرئيس أبي علي بن سينا في كتاب الإشارات الذي ينقل عنه ابن أبي الحديد . قال أبو علي في مقامات العارفين : العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر ، فربما استوى عند العارف القشف والترف ، بل ربما آثر القشف ، وكذلك ربما استوى عنده التفل والعطر ، بل ربما آثر التفل ، وذلك عندما يكون الهاجس بباله استحقار ما عدا الحق ؛ وربما صغا إلى الزينة ، وأحب من كل شيء عقيلته ، وكره الخداج والسقط ، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليها في كل شيء ؛ لأنه مزية حظوة من العناية الأولى ، وأقرب إلى أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا في عارفين ، وقد يختلف في عارف

(١) عوالي اللئالي الأحسائي ج٤ ص١٠٥ . قال مع الفحص الشديد لم أظفر عليه راجع الهامش.

بحسب وقتين[1] . انتهى .

وينقل الصوفية المتأخرون قول العارف بالله المعروف بالباقي بالله شيخ السادة النقشبندية في كتابه «المثوى» عن جعله تكنية النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام بأبي تراب ـ وقصتها معروفة ـ أصلاً يتفق مع خواطرهم ومقاصدهم ومعناه : أنّ التراب إشارة إلى وجود أهل التوحيد والفناء ، فيكون حاصل معنى أبي تراب : أنه عليه السلام هو الأصل المقتدى به في هذا المعنى ، والمرجع لطائفة الفقراء أرباب الفناء الكمّل .

ومن جهة أُخرى يحملون معاني الأحاديث والأخبار النبوية في الإمام علي عليه السلام على مقاصدهم وطبيعة نهجهم ، وهي أحاديث رواها وصحّحها كبار المحدّثين من أهل السنّة ، وجاءت في مصنفات علمائهم كمسند الإمام أحمد ومنها : «**يا علي، أن الله قد زتنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحب إليه منها ، هي زينة الأبرار عند الله تعالى في الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً . ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً ، فطوبى لمن أحبّك وصدّق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذّب فيك**»[2] .

وهي نبوءة كشفت عمّا سيقع من أمر ، وكيف سيكون الحال بين جنده ومحبيه وهم يستميتون من أجل صون الرسالة وحفظ مبادئ العدل في مواجهة البغي والأثرة والجاهلية الجديدة التي تتخذ من الإسلام ستاراً وهي تشيد حكمها وملكها على الأثرة والاستغلال ، والنهب والقتل .

❊ ❊ ❊

---

(١) الإشارات والتنبيهات ج٣ ص٣٩٣ .

(٢) أسد الغابة ج٣ ص٥٩٧ ح٣٧٨٣، كفاية الطالب ص١٩١ ـ ١٩٢ ، حلية الأولياء ج١ ص٧١ .

وإذا عدنا إلى سيرة الإمام الصادق عليه السلام وجدنا أنّ منهجها الفكري والديني الذي شدّ إليه الناس ، وجذب نحوه رجالات الأقطار وعلماءها ، فتتلمذوا على يديه ، وتخرجوا من مدرسته ، يتّسم ببناء دقيق؛ لأنّه يتّجه إلى بناء المسلم من الداخل ، فيتكلّم عليه السلام بألفاظ ومفردات توضّح القصد ،كما تسهّل التأثير والفعل . وفي مجال الإيضاح والتفسير ، يتحدّث أبو عبدالله الصادق عليه السلام بصور وبيان يجسّد المطلوب ويجلو ما يخفى على الآخرين . فهو عليه السلام في خضم المعترك السياسي والمآسي الكبرى ، يتجه إلى داخل النفوس وما نجم عن معاناة الرعية بأشكالها المختلفة ، ويهتمّ عليه السلام بطهارة الأرواح واستقامة السلوك .

قال الإمام الصادق عليه السلام :

**«المرضى ثلاثة، عن النفس، وعن القلب، وعن الروح. فمرض المنافق عن النفس، ومرض المؤمن عن القلب، ومرض العارف عن الروح. فدواء المنافق نار جهنم، ودواء المؤمن معرفته وحبّه، ودواء العارف لقاؤه وقربه»**(١)

وقوله عليه السلام :

**«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»**(٢)

يقصد به أن يعلّم الناس أن قوة الحكّام الظلمة لا تطال المؤمنين ، وأن اللجوء إلى الله هو الحصانة والمنجئ من كل متسلّط جبّار . وقد اخترنا هذين القولين ، لنخلص إلى أنّ الإمام الصادق عليه السلام في حياته قد صبّ جهوده على أمرين، الأوّل: النصح والإرشاد ووعظ الناس والدعوة لدين الإسلام . والثاني: التأكيد

---

(١) الاثنا عشرية في المواعظ العددية للعاملي ص ١١٠.

(٢) أصول الكافي ج١ ص٦٨ ح٣.

على السلطان الروحي والعبودية لله تعالى التي تجعل من أشكال اضطهاد الرعية وألوان عنف المتجبرين وقوتهم امتحاناً زائلاً ومأزقاً طارئاً ، وأنّ المواجهة الدامية بعد التجارب التي مرّت بها الأُمة وروّع بها الناس ، لا تؤدّي في مثل تلك الظروف التي يعيشها إلّا الى الهلاك على يد الحكّام؛ لذلك سلك مع العباسيين مسلكاً يجنّب أهل بيته وشيعته مخاطر سلطانهم .

فلمّا أتخذ رأيه في عدم لبس السواد ذريعة من قبل الأعداء ، اتقاهم بما يزيل التهمة ويحفظ حياته ، فأخذ يلبس جبة سوداء . وروي أنّه كان يلبس خُفاً أسود مبطناً بسواد وفتق مرة ناحية منه وقال : «أما إن قطنه أسود» وأخرج منه قطناً أسود ، ثم قال ﷺ : «بيّض قلبك وألبس ما شئت»[1] .

أما إذا أضفنا الأقوال الأُخرى للإمام الصادق ﷺ ، فإنّ الصوفية لا يكتفون بالتأسيس عليها أحوالاً لهم ومقامات ، بل إن ما نراه من أحداث طبيعية تحفل بها سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت . يرون فيها كرامات لتعزيز أقوالهم بأصحابهم ، وادّعاء الأعمال الجليلة لهم .

قال الإمام الصادق ﷺ : «من أدخل قلبه صافي حب الله شغله عمّا سواه»[2] .

وهو قول من مصادر الصوفية لا يخرج عن مضامين مدرسة الإمام الصادق أو أقواله ، إلّا أنّ ما يجعلونه أساساً للمقامات والأحوال عندهم ، وما يصرفون إليه كلام الإمام ﷺ يسيئ كثيراً إلى الموقف الديني والفكري الذي اقتضته مصلحة الأُمة ، والذي اختطّه الإمام الصادق ، وأطلقنا عليه «الدعوة الصامتة» ويظهر أنّ الصوفية تنسج على نزعتها وتحيك على هواها المقاصد والمعاني ؛

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ج٢ ص٤٤ ح٥ ب٥٦ .

(٢) البحار : ج٧٠ ، ص٣٦ ، ح١٧ .

لأنّ واقع الإمام الصادق ﷺ وحركته الدائبة ونشاطه المعطاء ، يفنّد الغرض الذي يختفي وراء القول بالتخلي أو الخمول . إذ لا يهدأ بحال في أذهان الشيعة قول الإمام الصادق ﷺ : «**كونوا لنا دعاة صامتين**»(١) واقتران الدعوة بالصمت يشير إلى منهج الصادق في الابتعاد عن مواجهة الحكّام بما يحمي دماء الناس وأعراضهم ووجودهم ، فيما أوّلوا بعض أقواله ﷺ تأويلات اعتبروها أساساً لأوضاع قادتهم وهو : «عزّت السلامة حتى لقد خفي مطلبها ، فإن تك في شيء فيوشك أن تكون في الخمول ، فإن لم توجد فيه ففي التخلي ، وليس كالخمول ، فإن لم تكن فيه ففي الصمت ، فإن لم تكن فيه ففي كلام السلف الصالح . والسعيد من وجد في نفسه خلوة(٢) .

وهذا من النصوص التي لعب الخيال في إيجادها ، وكانت نتيجة الغرض الذي انطوت عليه نفوس قائليها ، فجعلوا من أصل الفكرة في توخي السلامة وسط مجمع مائج بالأهوال والمحن والابتلاءات ، ومقتضيات الإمام ومسؤولياته تجاه ربه ودينه منوالاً لأفكارهم ، وتنادي ألفاظ القول على بعدها عن البناء اللغوي والتوجه الوعظي الذي تمتاز به أقوال الإمام الصادق ﷺ . والمقارنة بالأصل تظهر الفارق ، فقد قال ﷺ في السلامة : «**أطلب السلامة أينما كنت ، وفي أي حال كنت لدينك ولقلبك وعواقب أمورك في الله ، فليس من طلبها وجدها . . . والسلامة قد عزّت في الخلق وفي كل عصر ، خاصة هذا الزمان وسبيل وجودها في احتمال جفاة الخلق وأذيتهم ، والصبر عن الرزايا وخفة المؤونة ، والفرار من أشياء تلزمك رعايتها ، والقناعة بالأقل من الميسور ، فإن لم يكن؛ فالعزيمة ،**

---

(١) الكافي ج٢ ص١٠٥ ح١٠ مع اختلاف .

(٢) الكواكب الدرية ج١ ص٩٥، وصفة الصفوة ج٢ ص٤٩٨ .

فإن لم تقدر فالصمت ، وليس كالعزيمة ، فإن لم تستطع فالكلام ينفعك ولا يضرّك ، وليس كالصمت ، فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب والسفر من بلد إلى بلد ، وطرح النفس في بواري التلف بسرٍّ صادق وقلب خاشع وبدن صابر ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ .

وانتهز مقسم عباد الله الصالحين ، ولا تنافس الاشكال ، ولا تدّع في شيء وإن أحاط به علمك وتحققت به معرفتك ، ولا تكشف به سرّك إلّا على أشرف منك في الدين ، وأنى تجد المشرف ، فإذا فعلت ذلك أصبت السلامة»[1] .

ومن أقواله عليه السلام :

«ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل أن ينساهنَّ على كلّ حال : فناء الدنيا ، وتصرّف الأحوال ، والآفات التي لا أمان لها»[2] .

فهل كانت مثل هذه الأقوال دافعاً لأصحابه على اعتزال الدنيا وترك مهمات الحياة؟ أم أنّ الرجل منهم كان يدعو أهل زمانه ويتصدّى لنشر تعاليم دينه وهو محمّل بمهمات الإرشاد والهداية ، مقبل على الدنيا؛ لأنّها تربة يزرع بها الإنسان الخير بتمسكه بدينه ، ونصرة عقيدة الإسلام ، وتولي أهل بيت الرسالة الذين خصّهم الله بالإمامة ، فجعلهم ينابيع هدى وتقوى ، يغذوهم بالعلم ، ويمدّهم بالسداد والتوفيق؟

قال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً صلى الله عليه وآله شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى: التوحيد والإخلاص وخلع الأنداد ، والفطرة الحنيفية السمحة لا

(١) بحار الأنوار ج٧٢ ص٤٠٠ ح٤١.
(٢) تحف العقول ص٣٣٩ ح٨٤.

رهبانية ولا سياحة ، أحلّ فيها الطيبات ، وحرّم فيها الخبائث ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ثم افترض عليهم فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والمواريث والحدود والفرائض والجهاد في سبيل الله وزاده الوضوء»[١] .

وما تراه الشيعة من خصائص أهل البيت لمنزلتهم الدينية ومكانتهم الروحية التي يعزّهم الله من أجلها ، ويكلأهم لحماية دينه ، يدرجه المتصوّفة في باب الكرامات الصوفية ، فمثلاً : موقف المنصور العبّاسي منه ، ومسلك الإمام الصادق عليه السلام في اتقاء شرّه ، وننقله هنا حسب مصنفات رجالهم : عندما حجّ المنصور سنة سبع ومائة ، قدم المدينة ، فقال للربيع : ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به متعباً ، قتلني الله إن لم أقتله . فتغافل الربيع عنه وتناساه ، فأعاد عليه في اليوم الثاني وأغلظ في القول ، فأرسل إليه الربيع . فلما حضر ، قال له الربيع : يا أبا عبدالله ، أذكر الله تعالى فإنه قد أرسل لك من لا يدفع شرّه إلّا الله ، وإنّي أتخوّف عليك . فقال الإمام : «لا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم» . ولمّا دخل على المنصور ، أغلظ له في القول وقال : يا عدو الله ، اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم ، وتلحد في سلطاني ، وتتبع لي الغوائل ، قتلني الله إن لم أقتلك . وأحضر الرجل الذي سعى به إلى المنصور ، فقال له المنصور: أحقاً ما حكيت لي عن جعفر ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال الإمام الصادق: «استحلفه» فبادر الرجل وقال : والله العظيم الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة الواحد الأحد ، وأخذ يعدّد صفات الله تعالى . فقال الإمام: «يحلف بما أستحلفه» فقال : حلّفه بما تختار ، فقال الإمام : «قل: برئت من حول الله

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملي ج١ ص٦٩٢ ح١ باب إباحة الطيبات .

**وقوّته ، والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا»** . فامتنع الرجل ، فنظر إليه المنصور نظرة منكرة . فحلف بها . فماكان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض وخرّ ميتاً . فلما خرج الإمام لحقه الربيع وقال له : يا أبا عبدالله رأيتك تحرّك شفتيك ، وكلما حركتها سكن غضب المنصور ، بأي شيء كنت تحرّكها؟ قال : **بدعاء جدّي الحسين : يا عدّتي عند شدتي ، ويا غوثي عند كربتي ، أحرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بركنك الذي لا يرام ، وارحمني بقدرتك عليّ ، فلا أهلك وأنت رجائي ، اللهم إنك أكبر وأجلّ وأقدر مما أخاف وأحذر ، اللهم بك أدرأ في نحره ، وأستعيذ من شرّه ، إنك على كل شيء قدير»**[1] .

ويضيف المناوي إلى هذه الحادثة وهو يقول : وله كرامات كثيرة وكاشفات شهيرة ، منها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال : سمعت الليث بن سعد يقول : حججت سنة ثلاث عشرة ومائة ، فلما صلّيت العصر ، رقيت أبا قبيس ، فإذا رجل جالس يدعو فقال : «يا رب يا رب» حتى انقطع نفسه ، ثم قال : «يا حيّ يا حيّ» حتى انقطع نفسه ، ثم قال «إلهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه ، وإنّ بُرْدي قد خلُق فاكسُني» قال الليث ﷺ : فما تم كلامه حتى نظر إلى سلّة مملوءة عنباً وليس على الأرض يومئذٍ عنب ، وإذا ببردين لم أر مثلهما ، فأراد الأكل ، فقلت : أنا شريكك لأنك دعوت وأنا أؤمن . قال : «كل ولا تخبئ ولا تدّخر» ثم دفع إليّ أحد البردين ، فقلت : لي عنه غنى ، فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أخذ الخلقين ونزل ، فلقيه رجل فقال: أكسني يا ابن رسول الله ﷺ فدفعهما إليه . فقلت : من هذا ؟ فقال : جعفر الصادق[2] .

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي ص٢٢٣ ، بتصرف بسيط .

(٢) بحار الأنوار ج٤٧ ص١٧٤ ـ ١٧٥ .

وهي لا شك من وحي الخيال الذي يرجون به إضفاء الواقعية على ما ينسبونه إلى أوليائهم ورجالهم؛ لأنّ الحال الذي تصوّر الرواية فيه الإمام الصادق بعيداً عن شواهد حاله المعروفة ، أو رغباته التي تدور في طاعة الله ومناجاته ربّه فيما يهمّ المسلمين وصالح الأُمة . فإذا ما قارنّا بين الأحداث وهي تروىٰ بطرقنا ، وصورتها وهي تفرّغ في قوالب خاصة بهم ، نجد أن الأمر فيما يتعلّق بالإمام الصادق أو غيره من أئمتنا ، يمثل لجوء الأئمة إلى الله فيما يهمّهم ، ولواذهم بقوته وعظمته . فلما قتل داود بن علي والي المدينة المعلى ابن خنيس مولى الإمام الصادق الأثير عنده ، هلك داود تلك الليلة ، وأن الإمام الصادق قال في دعائه : «اللهم إني أسألك بنورك الذي لا يُطفى ، وبعزائمك التي لا تخفى ، وبعزّك الذي لا ينقضي ، وبنعمك التي لا تحصى ، وبسلطانك الذي كففت به فرعون عن موسى» ودعا على داود حتى سمعوه يقول : «الساعة الساعة» فما استتم دعاؤه؛ حتى سمعت الصيحة في دار داود[1] .

وقد قلنا في الجزء الثاني أنّ المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه بأن يقضي على الإمام الصادق عليه السلام واتّخذ شتّى الوسائل في ذلك . فكم مرّة يحضره للفتك به ، وكانت سلامته في تلك المواقف أعجوبة ، لأنّ المنصور لا يتورّع عن إراقة الدماء ، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده في كل مرّة كان المنصور ينوي بها الفتك بالإمام الصادق عليه السلام .

يحدّثنا علي بن مسيرة ، قال : لما قدم أبو عبدالله على أبي جعفر ، أقام أبوجعفر مولى له على رأسه ، وقال له : إذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه . فلما دخل أبو عبدالله نظر إلى أبي جعفر وأسرّ شيئاً في نفسه ثم أظهره :

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٥٧ ط ٢ .

«يا من يكفي خلقه كلّهم ولا يكفيه أحد ، اكفني شرّ عبدالله بن علي» فسلّمه الله من شرّه واستجاب دعاءه[١] .

وخلاصة القول ، أنّ الإمام الصادق عليه السلام لم يكن يرى التصوّف أو يقصد تأييد ما ظهر من أفكاره في عصره ، بل ما رأته الصوفية وأوّلته وصبّته في قوالب أفكارها ، هي معالم سيرة طاهرة عرف بها أهل البيت عليهم السلام في كل عصر كقادة للأمة وهداة وأئمة . فلذلك لما جاء قوم ـ ممن يظهرون التزهّد ، ويدعون إلى التقشّف ـ إلى الإمام الصادق عليه السلام ، كما رواها الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في تحف العقول[٢] كان مما خاطبهم به الإمام الصادق عليه السلام «هاتوا حججكم» فقالوا: إن حجّتنا من كتاب الله . قال لهم عليه السلام : «فادلوا بها فإنّها أحقّ ما اتّبع وعمل به» قالوا : يقول الله تبارك وتعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمدح فعلهم . وقال في موضع آخر : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ فنحن نكتفي . فقال الإمام عليه السلام : «أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ، ومحكمه من متشابهه الذي في مثل ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمة؟» فقالوا : بعضه ، فأما كلّه فلا . فقال لهم عليه السلام : «من ها هنا أُتيتم ، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أمّا ما ذكرتم من إخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم ، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه ، وثوابهم منه على الله؛ وذلك أن الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به ، فصار أمره ناسخاً لفعلهم ، وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين لكي لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم ، فهم الضعفة الصغار

(١) الكافي ج٢ ص٥٦١ .

(٢) تحف العقول : ص٣٦٣ .

والولدان، والشيخ الفاني، والعجوز الكبير اللذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، فمن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على القرابة وإخوانه المؤمنين، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله».

ثم ساق عليه السلام جملة من أحاديث جدّه النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وقال بعد أن رواها: «فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين، ثم من قد علمتم في فضله وزهده سلمان وأبو ذر، فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه، رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قبل، فقيل له: يا أبا عبدالله، أنت في زهدك تصنع هذا وإنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء، أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت. وأمّا أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاة على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم ـ الشهوة إلى اللحم ـ فيقسّمه بينهم، ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال، ولم يبلغ من أثرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم، ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم...

أخبروني لو كان الناس كلّهم كما تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة، إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلّا قدّمه وإن كان به خصاصة؟ فبئس ما ذهبتم إليه، وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنّة نبيه، وأحاديثه التي يصدّقها

**الكتاب المنزل ، أو ردّكم إياها بجهالتكم ، وتركم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي...» .**

إلى أن يقول لهم عليه السلام :

**«فتأدّبوا أيها النفر بآداب الله للمؤمنين ، واقتصروا على أمر الله ونهيه ، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به ، وردّوا العلم إلى أهله تؤجروا وتُعذروا عند الله ، وكونوا في طلب الناسخ من القرآن من منسوخه ، ومحكمه من متشابهه ، وما أحلّ الله فيه ما حرّم ، فإنه أقرب لكم من الله ، وأبعد لكم من الجهل ، ودعوا الجهالة لأهلها فإنّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل ، وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾»[(١)] .**

وإذا كان المتصوّفة لا يتزحزحون عن الخرقة في انتسابهم إلى الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلا بد أن تكون سيرة زهده ومعالم ورعه من الأمور التي يتوهّم بها المتصوفة أنّهم يحجّون بها غيرهم حتى وإن كان ولده إمام الأمّة وعلم الهدى جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فتكثر الروايات التي تدل على ذلك ، وقد أشرنا إلى أنّ ما رواه الصوفية في باب الكرامات يبعد عن صفته في اللباس وأحواله في المعاش ، ومن هذه الروايات : أنّ رجلاً قال للإمام الصادق عليه السلام : أصلحك الله ، ذكرت أنّ علي بن أبي طالب كان يلبس الخشن ، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ، ونرى عليك اللباس الجيد؟ فقال له الإمام عليه السلام : **«إنّ علي بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر ، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به فخير لباس كان زمان لباسه أهله»**[(٢)] .

* * *

(١) تحف العقول ص٣٦٩ .

(٢) بحار الأنوار ج٤٠ ص٣٣٦ ح١٨

وعلى أيّ حال ، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام قد تزعّم الحركة الدينية والفكرية في زمنه ، وقاد أنصار العلويين عبر عهدين ، واستطاع أن يواجه مشكلة الحكّام بما يخفّف عن العلويين أعباء التضحيات وسفك الدماء .

وكانت شخصية المصلح التي تمثلت به عليه السلام قد اجتمعت فيها مؤهلات كبرى وصفات عالية ، جعلته يحتلّ تلك المكانة السامية والمنزلة المرموقة في المجتمع ، واحتل موقع القيادة والأعلمية ؛ فاتّجهت إليه الأنظار ، وقصدته الوفود من كل الأمصار .

وقد شهد في حياته فترة من العصر الإسلامي اشتدّت فيها التحولات السياسية ونمت فيها بذور التطورات الفكرية ، واستطاع الإمام الصادق عليه السلام أن يقف في زحمة الأحداث ووسط تلك المعتركات على اختلاف صورها ، ويترك آثاره في كل جانب من حياة المجتمع ، ويؤثّر في كل ناحية فكرية ، فلا غرو أن تكون سيرته مصدر إلهام ومعين علم . أما إذا تحكّم الهوى وغلبت الرغبات ، فلا عجب أن تخرج شواهد سيرته وأحداث حياته عن إطارها الحقيقي ، وتصرف أقواله عن مقاصدها الأصلية ، وأن تبرز عبر فترات متفاوتة ومتوالية آراء تبغي الإساءة ، وتنفضح مقاصدها وأغراضها .

ولا ننسى أن نذكر من يضاف إلى هؤلاء من المستشرقين[1] الذين بثوا سموم دعاواهم ونظرياتهم بين أبناء أمتنا ، حتى أنّ البعض منهم عندما يرى

---

(١) لم تخض في افتراءات المستشرقين - على شخصية جابر بن حيان أبي الكيمياء وتلميذ الإمام الصادق عليه السلام - وسلوكهم في مختلف الوسائل للإساءة إلى أستاذ جابر وإمامه من تشكيك ونسبة إلى الصوفية أو الإسماعيلية أو إنكار وجوده وغيرها ، وجميعها لم تؤثر على مكانة الإمام الصادق ، واتصال جابر بمدرسته عليه السلام والتخرج على يديه . ومن الجلي أنهم استعظموا أن يكون في الإسلام رجل كجابر الذي أنكروا وجوده ، فكيف لا يهولهم أن يكون في تاريخنا من هو أعظم من جابر وصاحب فكر تخرج عليه العلماء ؟ راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ١٣٠.

الجوانب العظيمة في شخصية الإمام الصادق عليه السلام ، يحاول أن يرجعها إلى أُصول يونانية . وهو قول نراه من السخف بحيث لا يستحق أي عناء في الرد .

لقد كان لأبي عبدالله الإمام جعفر بن محمّد الصادق من البيان والحكمة ما جعله متميزاً في الفقه ، ومنهج الوعظ ، وخطة الإصلاح .

سئل أبو حنيفة : من أفقه من رأيت ؟ قال : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد الصادق ، لمّا أقدمه المنصور بعث إليّ فقال : يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد ، فهيّئ له من المسائل الشداد . فهيأت له أربعين مسألة ، ثم بعث إليّ أبو جعفر ـ وهو بالحيرة ـ فأتيته ، فدخلت عليه وجعفر بن محمّد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر ، فسلّمت عليه وأومأ إليّ فجلست ، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة . ألقِ على أبي عبدالله من مسائلك . فجعلت ألقي عليه ، فيجيبني فيقول : **«أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا»** فربما تابعنا وربما تابعهم ، وربما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخلّ منها بمسألة . ثم قال أبو حنيفة رضي الله عنه : ألسنا روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس(١) .

وللإمام الصادق عليه السلام بناء بلاغي في المواعظ يقوم على عوامل من الفقه والتصوير والبيان؛ ليجعل منها وسيلة للنفوس والأفهام ، كقوله عليه السلام : **«التقوى على ثلاثة أوجه : تقوى بالله في الله ، وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة ، وهو تقوى خاص الخاص . وتقوى من الله ، وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام ، وهو تقوى الخاص . وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام ، وهو تقوى العام . ومثل التقوى كماء**

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق المكي ج١ ص١٧٣ ط١ .

يجري في نهر ، ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر من كل لون وجنس ، وكل شجرة منها تستمص الماء من ذلك على قدر جوهره وطعمه ولطافته وكثافته ، ثم منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها»[١] .

فكان هذا البناء البلاغي مادة للادعاء بتفسيرات صوفية للقرآن تنسب إلى الإمام الصادق عليه السلام تولّى إشاعتها والإقدام على وضعها الصوفي أبو عبدالرحمن السلمي[٢] . في طبقاته ، وفي حقائق التفسير .

ومن رجال الصوفية الكبار ممن صنّفهم السلمي في الطبقة الأولى كأبي يزيد البسطامي ، من راح يتعلّق بمناسبة وبدون مناسبة بالاتصال بالإمام الصادق ، ويزيد في ذلك ويبالغ ،كما راح أبو يزيد يأخذ أقوال الأئمة ليصوغها بألفاظه ، وعلى الأخص أقوال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منها: «عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله»[٣] .

وسئل : ما علامة العارف ؟ فقال : «أن لا يفتر عن ذكره ، ولا يملّ من حقه ، ولا يستأنس بغيره»[٤] .

وهم أرادوا أن يقحموا الإمام الصادق في حالاتهم ، ويدّعون عليه زوراً ما درجوا عليه من الحلول أو التجسيم التي كان يغالي بها البسطامي ، ومن أخفّها قوله : إنه ضرب الخيمة محاذاة العرش . وأنه يرى الله في المنام ، وأنه مرة جلس في محرابه فمدّ رجله ، فهتف به هاتف : من جالس الملوك ينبغي أن

---

(١) بحار الأنوار ج٦٧ ص٢٩٥ ح٤١ .

(٢) محمد بن الحسين بن موسى الأزدي النيسابوري المتوفي سنة (٤١٢ هـ).

(٣) شطحات الصوفية ص١٦٥ .

(٤) المصدر السابق .

يجالسهم بحسن الأدب . وحكي عنه أنه كان يقول : سبحاني سبحاني(١) .

فيقولون أنّه نقل عن الإمام جعفر الصادق ﷺ أنه خرّ مغشياً عليه وهو في الصلاة ، فسئل عن ذلك ، فقال : «ما زلت أُردّد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها»(٢) .

وإذا استعصى عليهم القول؛ ساقوه عن الإمام الصادق بنصّه ، ثم ألحقوا به إشارة أو بياناً يفيد ما يقصدون ، كذكرهم قول الإمام الصادق : «لقد تجلّى الله تعالى لعباده في كلامه ، ولكن لا يبصرون»(٣) . فيبيّنون بعد النصّ قصدهم بالقول : فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ، فالحدّ : حد الكلام ، والمطلع : الترقي عن الكلام إلى شهود المتكلم؛ مما يوهم بالاعتقاد بالرؤية ، والقول في الله بمشابهته عزّ وجل للمخلوقات من حيث النظر إليه سبحانه كما ينظر الإنسان إلى جسم محدود ، تعالى الله عن ذلك ، وحاشا أئمة أهل البيت وأعمدة الهدى ونواب صاحب الرسالة من قول ذلك .

والسلمي من أكثرهم نقلاً للأقوال التي تنسب للإمام الصادق ﷺ وهي تتراوح بين الإيغال في الغوامض والإشارات على طريقتهم المعهودة ، وبين محاكاة الرموز ، كذكره لقول الإمام ﷺ الحمد لله : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ، لأن الحمد حاء وميم ودال . فالحاء من الوحدانية والميم من الملك والدال من الديمومة .

ولقد حسم الإمام الصادق ﷺ هذه المسألة بقول يغلق أبواب التأويل ويفضح التقوّل والادّعاء ، إذ قال ﷺ : «والله لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه في كلامه ،

---

(١) اللمع في التصوف ص ٣٩١ .

(٢) السهروردي ، عوارف المعارف ، والأحياء للغزالي ج٣ ص ٥٢٠ .

(٣) بحار الأنوار ج٨٩ ص١٠٧ ح٢ .

ولكنهم لا يبصرون» . ونجد أنّ التعقيب على النص والإشارات القائمة عليه غريبة وأجنبية لا تؤثر في عقيدة التنزيه وردّ التجسيم والتشبيه .

كذلك فإنّهم في النصوص ينتزعون ما يوافق هواهم ومقاصدهم ولا يذكرون النص بكامله ، ولا يوردون القول بتفاصيله ، فقوله عليه السلام الذي مرّ بنا وهو يردّد الآية جاء مبتوراً ، إذ حقيقة قوله : «ما زلت أردّد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته» أي أنه عليه السلام كان يتدبّر في وجوه القدرة وجوانب العظمة ودلالة الوجود .

وعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال «نعم ، وقد رأوه قبل يوم القيامة» فقلت: متى؟ قال عليه السلام : «حين قال عزّ وجل لهم : ألست بربكم قالوا : بلى» ثم سكت ساعة ، ثم قال عليه السلام : «وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، ألست تراه في وقتك هذا؟» قال أبو بصير : فقلت له جعلت فداك ، فأحدّث بهذا عنك ؟ قال عليه السلام : «لا ، فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدّر أن ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى الله عما يصفه المشبّهون والملحدون»[1] .

كما أنّ الإمام الصادق كان يأمر أصحابه بمنع الزكاة عمّن قال بالجسم[2] .

إنّ التدقيق في أقوال الإمام جعفر بن محمّد الصادق ، والإمعان في معرفة منهجه في الوعظ والإرشاد ، يؤدي إلى معرفة ما يرمي إليه الإمام عليه السلام من اصلاح الأمة وتوجيه الرعية بسبل واضحة وألفاظ جلية ، تستمد من القرآن والسنة معانيها ومضامينها ، فليس للخيال الذي يفلت من النص أثر في جوامع

---

(١) التوحيد للصدوق ص١١٧ .

(٢) وسائل الشيعة ج٦ ص٢٢٧ ، أبواب المستحقين للزكاة ب٧ ح١ .

كلمه ﷺ كما أنّه ﷺ يتقيد بالنص ومناسبته أو علته ، لكي لا يدع للآخرين مجالاً يتذرعون به ، فيتركوا العنان لشطحاتهم ونزعاتهم تنال من أسباب التشريع أو تنحرف عن أغراض التنزيل ينتحلون ما يشاءون .

ومن حق الصوفية أن يبنوا على نظرية الإمام في المعرفة ، وأقواله في التوبة ومحاسبة النفس ، لكن ليس من حقهم أن يجعلوا تراثه الفكري مادة لبناء مصطلحاتهم ومباحثهم ، فالإمام تناول كل ما يتعلق بسلوك المؤمن وعلاقة المسلم بربه ، وأوضح بمزيد من البيان كل ما يتعلق بوجود المؤمن في مجتمعه ، وعلاقة المسلم بإخوانه ، فليس هناك من أحاديث الصادق ﷺ المأثورة ما يشبه في صياغته وبنائه بيان الصوفية وصورهم وأخيلتهم ، فمنها ما لدينا عن الشيخ الصدوق في معاني الأخبار ، أنّ الإمام الصادق قال في قوله عزّ وجلّ : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال ﷺ : «**يقول : إرشدنا إلى الصراط المستقيم ، إرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلّغ إلى دينك ، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب ، أو نأخذ بآرائنا فنهلك**»[١] .

ولأنّ هذا القول مشهور لدينا وصحيح بسنده لا يكاد يذكر أو يأتي محرّفاً ، مما يدلّ على أنّ أصل أقوالهم هو من نسج الخيال والتأثر بشخصية الإمام الصادق ﷺ وعظيم منزلته في عصره . وكذلك غيره من تفاسير الإمام الصادق ، والتي إما أن تكون بياناً لدلالة المعنى وشرحاً للمفردات القرآنية التي تتعلّق بالقصد والإرادة . أو شرحاً لمناسبتها وحادثتها ، كقوله ﷺ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾[٢] **كانت المراضع ، مما**

---

(١) معاني الأخبار ص٣٣ ح٤ .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

تدفع إحداهنّ الرجل إذا أراد الجماع تقول : لا أدعك ، إني أخاف أن أحبل ، فأقتل ولدي هذا الذي أرضعه . وكان الرجل تدعوه المرأة فيقول : إن أجامعك فيُقتل ولدي . فيدعها ولا يجامعها ، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك ، أن يضارّ الرجل المرأة ، والمرأة الرجل»(١) .

وروي عنه عليه السلام تفسيره لقوله تعالى :﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾(٢) قال عليه السلام : «يعني بقوله : وأقوم قيلاً ، قيام الرجل عن فراشه بين يدي الله عزّ وجلّ لا يريد به غيره»(٣) .

وقال في قوله تعالى : ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٤) «كانوا يستغفرون الله في آخر الوتر ، في آخر الليل سبعين مرة»(٥) .

أما غيرها كما في مورد تفسير قوله تعالى حكاية عن سليمان : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾(٦) يورد المفسّرون رواية الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه الإمام زين العابدين عليهما أفضل الصلاة والسلام قال : «اذا صاح النسر قال : يا ابن آدم ، عُش ما عشت آخره الموت . وإذا صاح العقاب قال : البعد من الناس أُنس . وإذا صاح القنبر قال : إلهي إلعن مبغض محمّد وآل محمّد . وإذا صاح الخطّاف قال : الحمد لله رب العالمين ، ويمدّ العالمين كما يمد القارئ»(٧) وقد أوردوا عن ابن عباس أيضاً أن القنبر يقول : اللهم إلعن مبغض محمّد وآل محمد(٨) .

(١) تفسير نور الثقلين ج١ ص٢٢٧ ح٨٨١.

(٢) المزمل : ٦.

(٣) تفسير نور الثقلين ج٥ ص٤٤٨ ح١٩.

(٤) الذاريات : ١٨ .

(٥) تفسير نور الثقلين ج٥ ص١٢٣ ح١٥.

(٦) النمل : ١٦.

(٧) انظر تفسير الخازن ج٣ ص٣٤٠، وتفسير البغوي ج٤ ص٤٠٩ و٤١٠، سورة النمل.

(٨) تفسير الخازن ج٣ ص٣٣٩، تفسير البغوي ج٣ ص٤٠٩.

ولا نعلّق على ذلك بشيء؛ لأننا في مقام إظهار منزلة أهل البيت ، وأنّهم ينبوع الأحكام ومناط الإيمان . فلا غرابة أن ينهل الناس منهم فيحلو المشرب ويصفو إذا كان في وعاء الولاية والولاء ، وفي صحف الدراية والمعرفة فيقرّ منها ما كان موافقاً للأُصول ومتفقاً مع بداهة العقول ، ويغفل أو يهمل ما خالف الأحكام وناقض العقول ، ويشمل ذلك كل ما نسب إلى أهل البيت بغضّ النظر عن الصبغة والمذهب .

ولا نلتفت إلى من ينسب إليه حفظ التفسير ونسخته ، وإنما يهمّنا الادّعاء بوجود تفسير صوفي للآيات لدى الإمام الصادق ﷺ على طريقة أقوال الصوفية ، ومنهجهم في تأويل النصوص والمغالاة في الباطنية ، وإلا فليخبرنا من يدّعي علماً ، متى أضاف الإمام الصادق ﷺ كلمة آمين في نهاية الفاتحة حتى تصبح من جملة ألفاظ ومفردات سورة الفاتحة التي يذكرها التفسير فيقول : قال جعفر [«آمين» أي قاصدين نحوك ، وأنت أكرم من أن تخيّب قاصداً] . لأنّ الشيعة في صلاتهم لا يجوّزون قول آمين في آخر الحمد وذلك اتباعاً لإمامهم جعفر الصادق وأهل بيت النبوّة؟

فمن المسائل الفقهية في المذهب الجعفري ، أن لا يصل الإمام ولا غيره قراءته «ولا الضالين» بآمين؛ لأنّ ذلك يجري مجرى الزيادة في القرآن مما ليس منه ، وأن الإمام الصادق ﷺ نهى عنها؛ لأنّ اليهود والنصارى يقولون في طقوس صلاتهم «آمين» . وقد تواترت عند غيرهم من المذاهب الإسلامية حتى أصبحت وكأنها من التنزيل ، وهو ما كان يخشاه أئمة الشيعة ، ونبّهوا إلى عدم جواز ذكرها بعد قراءة الفاتحة لكي لا يسمعها الجاهل فيراها من التنزيل وهي ليست من التنزيل . فإن قال : «آمين» تأميناً على ما تلاه الإمام ، صرف القراءة إلى الدعاء الذي يؤمّن عليه سامعه ، قال الإمام الصادق : «إذا

كنت خلف إمام فقرأ الحمد وفرغ من قراءتها ، فقل أنت : الحمد لله رب العالمين ولا تقل آمين»[١] .

وكل ما وصلنا من تفسير عن الإمام الصادق في مصادرنا المعتبرة ، لا يتطرق إليه التكلّف الواضح لتحصيل صرف المعاني إلى ما يميل إليه الصوفية ، ونرى أن الانتحال واضح وصريح ، سواء من جهة النصوص نفسها وما تدل عليه المقارنة ، أو من جهة المصادر التي هي أدنى من الصوفية إلى الإمام الصادق وأوثق في النقل عنه . ومن الملاحظة البسيطة للنصوص التي جاءت بطرقها الحسنة وإسنادها المعتبر يظهر الفرق بين النوعين .

ذكر الشيخ الطبرسي في الاحتجاج : عن حفص بن غياث[٢] قال : شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾[٣] ما ذنب الغير ؟ قال : «ويحك! هي هي ، وهي غيرها» .

قال : فمثّل لي ذلك من أمر الدنيا .

قال : «نعم ، أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ، ثم ردّها في ملبنها ، فهي هي وهي غيرها»[٤] .

وهذا في مورد الاحتجاج على الزنادقة . وردّ أقوالهم ومحاولاتهم في الطعن والتشكيك ، وهي تجمع الوضوح وعمق الدلالة .

---

(١) الكافي ج٣ ص٣١٣ ح٥ .

(٢) حفص بن غياث النخعي توفي سنة ١٩٤ هـ خرّج حديثه أصحاب الصحاح . انظر ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص٨٧ هامش رقم (١) .

(٣) النساء : ٥٦ .

(٤) الاحتجاج ج٢ ص٣٥٤ .

أمّا الأقوال الأُخرى للإمام في التفسير ، فهي تظهر أموراً لا يلتفت إليها غير من تمتّع بعلم خاص ، والغرض هنا إيضاح المنهج في التفسير ، وبيان بنائه في القول؛ لأن الأمر الأول يحتاج إلى بحث آخر . فقد سئل الإمام الصادق عن قول الله عزّ وجلّ في قصة إبراهيم ﷺ : ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1] قال : «ما فعله كبيرهم ، وما كذب إبراهيم ؟» قيل : وكيف ذلك ؟ فقال : «إنما قال إبراهيم : فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فإن نطقوا فكبيرهم فعل ، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً ، فما نطقوا ، وما كذب إبراهيم»[2] .

وسئل عن قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ؟ قال: «إنهم سرقوا يوسف من أبيه»[3] .

فسئل عن قول إبراهيم : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ .

قال : «ما كان إبراهيم سقيماً ، وما كذب ، إنما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً»[4] .

وفي قوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال ﷺ : «يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويُشكَر فلا يُكفر»[5] . إلى غيرها من الأقوال التي تفسّر الآيات ، وجميعها ليس فيها تعيين لحالات وأوضاع على حسب الخيال ، أو تشبيه وتقريب إلى حدّ التجسيم والتحديد بالجهة ، تعالى الله سبحانه ، وحاشا أئمتنا الأطهار .

ولنلاحظ ادّعاء التفسير الصوفي في آية : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ

---

(١) الأنبياء : ٦٣ .

(٢) الاحتجاج ج٢ ص ٣٥٤ .

(٣) الاحتجاج ج٢ ص ٣٥٥ .

(٤) الاحتجاج ج٢ ص ٣٥٥ .

(٥) تفسير نور الثقلين ج١ ص٣٧٦ ح٣٦٩ .

**مِنَ الْغَمَامِ﴾**[1] وأن الإمام الصادق عليه السلام قال : **هل ينظرون إلّا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق ، فيكشف عنهم أستار الغفلة ، فيشهدون برّه ولطفه ، بل يشهدون البار اللطيف**[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾**[3] أنه عليه السلام قال : **طهّر نفسك عن مخالطة المخالفين ، والاختلاط بغير الحق ، والقائمين مع فؤاد العارفين ، المقيمين معه على بساط الأنس والخدمة . ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ : الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البداية عن تناهي النهاية**[4] .

فجميعها من صُوَر الأحوال لديهم ، وصياغتها لا تختلف في شيء عن مقالات رجالهم ، بل ما أبعدها عن أقوال الأئمة ومشاهد مناجاتهم لله! أو تضرّعهم بين يديه بما لا يشعر إلّا بالعبودية وتنزيه الله تعالى عن كل مشابهة بالمخلوقات ، والتبرؤ عن أدنى ميل إلى الحلول أو الاتحاد أو التجسيم .

ولقد أوضحنا سابقاً أنّ الإمام الصادق احتجّ على الصوفية في أُمهات أفكارهم وأُسس طريقتهم ، ورأينا كيف ميّز موقفه ، فقد يكون من بين الذين يدخلون عليه جماعة يرون في الذي عليه الصوفية متفقاً مع عبادته ونسكه وأجواء الانقطاع لله التي يحسّونها في كلّ حركة وإشارة . والإمام الصادق يدعو إلى أن يكون الإمام والعمل شعار حياة المسلمين ، فلا تحول عبادة وأداء فريضة عن مسؤوليات الحياة العملية ، وينزوي الناس عن حياة مجتمعهم وهي الصعيد الحقيقي للدعوة والبناء .

ونحن شيعة أهل البيت عليهم السلام وأصحاب المذهب الجعفري نعلم أنّ من بين

---

(١) البقرة : ٢١٠ .

(٢) انظر بين التصوّف والتشيّع ص١٦٣ ـ ١٩١ .

(٣) البقرة : ١٢٥ .

(٤) انظر بين التصوف والتشيع ص١٢٥ .

كتبنا ما فيه بعض الأقوال التي تدرج في التفسير أو تنسب إليه ، وهي في حقيقتها أقوال تنطلق من واقع ولاء يأخذ الصورة التي تطلّ من وراء نص أو حديث ، ويرفعها بوجه تيارات العداء والنصب التي لعبت في عقول خدم الحكام وعبيد الخلفاء ، وعلى قلة هذه الأقوال أو ندرتها ، فما اعتبر منها لا يخرج عن باعث الولاء لأهل البيت والتعبّد ببعض الصور المأثورة ، كما قيل في : ﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان﴾ [1] . وليس هنا موضع بحث ذلك ، فهو يحتاج إلى سعة في القول يوفي بالغرض ويوضّح الفرق بين قول لا يقصد به إلّا الصورة وليس الحال وأسباب النزول ، وبين النِحَل أو الادعاء للاستفادة من موقع الإمام الصادق ومنزلته العظيمة في النفوس ، وإن كنّا لا ننفي وجود الحب والولاء لدى أهل الصوفية وميلهم إلى الإمام الصادق عليه السلام ، كما لا تفوتنا الإشارة إلى وجود محاولات لإدخال التعابير الصوفية في العقائد الشيعية وفي مجال التفسير ، وهي قائمة على أساس واضح من فهم عقائد أهل البيت وأحكامهم؛ لذلك فهي لا تتعدى استعارة الألفاظ الصوفية واستعمالها في الكتابة بسبب من الاتجاه والسلوك في الحياة ، والرغبة في الزهد الظاهر والتقشف الغالب ، وهي محاولات تفسيرية متأخرة رأت في اتجاهها وسلوكها ما يجمعها مع مفاهيم التصوّف وصيغه التعبيرية ، ولكنها تعتمد عقائد الإمامية ركناً وأساساً يضبط استعمالها في الكتابة؛ مما ينسجم مع بيئات الزهد في خراسان والمشرق ، والتي قامت على أساس جهاد النفس وقمع

---

(١) وهي مشهورة بسندها عن ابن عباس ، ولم يختص بإيرادها الشيعة وحدهم ، بل علماء السنة أيضاً كالخوارزمي . وهي تشبيهات يساعد عليها اللفظ ، وقد أدّت سياسات النصب، وحملات العداء لآل البيت إلى الاستشهاد بها وذكرها محرّفة، مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج٣ ص ١٠١، وكذلك عن أبي سعيد الخدري وأبي ذر، بحار الأنوار ج ٢٤ ص ٩٧ و٩٨ .

هواها تزكية لها؛ لتكون أهلاً لمعرفة الله وحمل رسالة الإسلام وأحكام المصطفى الهادي صلى الله عليه وآله وهو الأساس الذي يمكن أن يعزى إليه . ويوافق القبول روح الزهد في الدنيا والعزوف عن ملذّاتها وزخرفها ، والإقبال على الآخرة بالطاعة والعمل الصالح من دون انقطاع عن وتيرة الحياة ومسلك العيش والبقاء في صميم المجتمع .

ونورد بعض أقوال تفسير الإمام الصادق عليه السلام المعروفة بطرقها من مختلف المذاهب الإسلامية ،كقوله عليه السلام : «**نحن حبل الله الذي قال الله فيه : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾**»(١) . لأن الإمام الصادق عليه السلام تبوأ موقع الإمامة في ذلك المنعطف الحاسم الذي يشهد غليان الأطماع وتكالب الناس على الدنيا ، واتجاههم إلى الحكام ، فكان عليه أن يواجه ذلك بنهجه في توحيد صفوف الأمة وجمعها حول ما يمثل روح القرآن ورسالة محمد صلى الله عليه وآله ويصون كيانها من سيوف الظلمة ، وحرمات المؤمنين من تعدّيات الحكام وعقائد الأُمة من انحرافات القصور .

لقد كان عليه السلام يوجه الناس في ضوء الأحداث ، ويوصي أصحابه بما عليهم أن يقوموا به ، وقد يصل به الأمر إلى أن يطلب من أصحابه أن يعتزلوا لأمر يخشى منه إما من جور أو فساد كما في وصيته لحفص بن غياث : «**إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل ، فإنّ عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد ولا ترائي ولا تتصنّع**»(٢) .

ويجعل الناس على ثقة من زوال البلوى السياسية ، ويتخذ من سلاح الدين

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين ج١ ص٣٧٧ ح٣٠٥ .

(٢) بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٢٥ ح٩٥ .

وقاية ، إذ يقول لسفيان الثوري[١] : «**إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله . فإنها مفتاح الفرج**»[٢] .

إن الإمام الصادق يقيم سلطته الروحية على نصوص من القرآن ، يسوق تفسيرها ويجهر بها ، وقد كانت من أعظم الأخطار التي هددت الأُمويين والعباسيين . ولكنه ﷺ يعلن مقاصد الشريعة ، ويحرص على إظهار تفاسير النصوص التي تلاعب بها موالي الحكام وأذناب الولاة في كل عهد ومرحلة . دخل عليه الحسن بن صالح بن حيّ فقال له : يا ابن رسول الله ، ما تقول في قوله تعالى : ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[٣]، من أُولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ؟ قال: «**العلماء**» فلما خرجوا قال الحسن : ما صنعنا شيئاً ، ألا سألناه من هؤلاء العلماء؟ فرجعوا إليه فسألوه ، فقال : «**الأئمة منّا أهل البيت**»[٤] .

ونستظهر من تفسير الإمام الصادق أنّ معتمده في إمامته ، ومنزلته الروحية نص صريح يفصح عنه الإمام الصادق بكل ثقة وقدرة ، وهو في سلطانه الروحي هذا غير منازع؛ فقد أعجز السلطة حصر تأثيره أو حجزه عن الناس ، وقد كان من متطلبات خطته في الإصلاح وقيادته العمل ضد الجائرين . أن يكون منهجه واضحاً وقوياً وسهلاً؛ حتى أصبح من الممكن التفريق بين ما صدر عنه وما أسند إليه من غير صحة تحت تأثير مختلف العوامل . وأقوال التفسير المروية عن الإمام الصادق كثيرة جداً ، ولا نجد في ما نقل منها ـ خلا

(١) الكوفي . ثقة وحافظ وفقيه وحجة، توفي سنة ١٦١ هـ مرت ترجمته في الجزء الأول ص٩٢ و٢٢٣ .

(٢) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٣ .

(٣) النساء : ٥٩ .

(٤) بحار الأنوار ج٤٧ ص٢٩ ح٢٩ .

ما تقول الصوفية ـ بعداً عن دلالات المعنى والأغراض القرآنية كقوله عليه السلام في تفسير قول الله عزّ وجلّ : ﴿ فلله الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ : «إن الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة : عبدي أكنت عالماً ؟ فإن قال نعم ، قال له سبحانه : أفلا عملت بما علمت ؟ وإن قال : كنت جاهلاً ، قال له سبحانه : أفلا تعلّمت حتى تعمل» [1] ؟

وأيضاً ما في الكافي : قال عليه السلام : «إذا أراد الله بعبدٍ شرّاً ، فأذنب ذنباً اتبعه بنعمة ، لينسيه الاستغفار . ويتمادى بها وهو قوله : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ بالنعم عند المعاصي» ثم قال عليه السلام في الاستدراج : «هو العبد يذنب الذنب ، فيملي له ، ويجدّد له النعم ، فيلهيه عن الاستغفار عن الذنوب ، فهو مستدرج من حيث لا يعلم» [2] .

وخلاصة القول: إنّ منحى التفسير الصوفي يوافق رغبات أصحابه في ظروفها كما يوافق اليوم أصحاب النظريات التي تبحث عن أُصول العقائد الحلولية ومصادرها اليهودية والمسيحية . فتأتي نسبة التفسير الصوفي زوراً ليتلقّفها الذين في قلوبهم زيغ وأمراض ، ويستمدّوا منها أقوالهم في الطعن بعقائدنا وأئمتنا . ولو تحلّى البعض بيسير من قيم الأمانة؛ لما نازعوا الأمر أهله ، ولأخذوا ببينة دامغة وشواهد ناصعة . إن لم يناد بها الشيعة فإن كتبهم تصرخ في نفيها ودحضها ، وإذا قبلنا من المتصوفة حب آل البيت؛ فلا يقبل أحد ـ يحرص على الإسلام وملته ـ أن يمدّ الأعداء بما يشفي غليلهم وضغينتهم ، ويجعلوا من آل بيت النبي وعترته ـ وهم عدل الكتاب ـ غرضاً لأعداء الدين والمستشرقين .

ويجمع هؤلاء ما انتحله المتصوفة إلى أفانين الغلاة وأقوالهم ، ليقيموا

---

(١) تفسير نور الثقلين ج١ ص٧٧٥ ـ ٧٧٦ ح٣٣٠.

(٢) الكافي ج٢ ص٤٥٢ ح٢.

وهمهم وآراءهم على أحاسيس وتخيلات تبعد عن واقع الأئمة ، فإنّ النظرة المتزنة والاطلاع على تاريخ الشيعة وعقائدهم ، يكشفان عن الفروق والاختلافات ، وأن التعميم بتأثير عدم التمييز ما هو إلّا افتراء محض وخيانة للأمانة التاريخية التي يجب أن يتحلّى بها المختص إن كان من غير أهل الإسلام ، وخيانة للأُخوّة الدينية إن كان من أهل الشهادة .

فيجمعون نصوص المتصوّفة في الحلول والاتحاد إلى نصوص الفرق الأُخرى التي يتجاهلون اختلافها في العقائد عن الشيعة ، وينمّقون التهم ، وهي على هذا النمط الذي قدّمناه كثيرة . وغيرها من الكتب لغير المتصوفة من الفرق الأُخرى ، كالنصوص التي تجدها موضوعة على لسان الإمام الصادق عليه السلام برواية المفضل الجعفي ، نذكر منها هذه النبذة القصيرة :

قال المفضل :

أخبرني يا مولاي عن قصة الحسين كيف اشتبه على الناس قتله وذبحه كما اشتبه على من كان قبلهم في قتل المسيح ؟ قال الصادق : يا مفضل ، هذا سرّ من أسرار الله ، أشكله الله على الناس ، فعرفه خاصة أوليائه وعباده المؤمنون والمختصّون من خلقه . . . إن الإمام يدخل في الأبدان طوعاً وكرهاً ، ويخرج منها إذا شاء طوعاً وكرهاً ، كما ينزع أحدكم جبته وقميصه بلا تكلف ولا ريب...(١) .

إلى آخر ما في الكتاب من أقوال باطنية نسجتها الخيالات ، وأدّت إليها ظروف وأوضاع الحركة الباطنية التي سمحت لنفسها بالتغذي من الأوهام ، والابتعاد عن جوهر أفكار الإمام الصادق عليه السلام وتعاليم أهل البيت ، فاستقبلها

---

(١) انظر : الهفت الشريف ص٩٦ الباب الأربعون ، تقديم وتحقيق مصطفى غالب ط٢ بيروت ١٩٧٧م .

أعداء الإسلام ليحكموا على حركة التشيع وما قدّمه الشيعة عبر التاريخ من خلال نصوص الآخرين المختلفة، ولم يحكّموا العقل، بل غلبهم الحقد والهوى. غير أن من نواميس الحياة وسنن الكون بأن يعمل العقل ويطلق، فإن عطل في فترات، وفرضت مصالح الحكام أن يقمع الشيعة وتكبّل اتجاهات النظر والتدبر، فليس للشذوذ عن النواميس والسنن بقاء. ولذلك فمن حق كل نص ناقض العقل أن يردّ أو يهمل. أما التي تخالف الأُصول فشأنها أخطر وأعظم.

ومما قدمناه من تفاسير مأثورة، وبطرقها المعتبرة توضح لنا نهج أهل البيت عليهم السلام وطريقة الإمام الصادق عليه السلام في بيان وجوه النص وتفسير القرآن، وإذا ما ورد استشهاد بآي من القرآن في موارد تعين أحوال الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فإن المعروف منها بأنّها نزلت في حقّ أهل البيت، ولم يشك فيها إلّا من أفسد قلبه المرض، وشوّه عقله الزيغ، فراح لا يأبه بأقوال الحق وبالإذعان للصدق، حتى وإن كانت من غير الشيعة، بل غلبه التعصّب وصرعه النّصب، فأدّى به جهله إلى الانكار، وعناده إلى الافتعال، وما نراه إلّا من سلالة الذين ارتوى سيف الإمام علي من دمائهم، واختص بقطع أعناقهم، أو من الذين أعمى الله بصيرتهم؛ فضلّوا وحبطت أعمالهم.

أما تلك الجوانب من أحوال أهل البيت عليهم السلام التي تروى عن الإمام الصادق، فإنها تقوم على التشبيه والتمثيل الذي لا يمنع منه مانع، سيما وأن وجوه الشبه ظاهرة، وإمارات التقارب واضحة، فإن من لم يقرّ بولاية علي بن أبي طالب أو ينصب له العداء، ليس أصدق من وصف حاله بأنه: بطل عمله مثل الرماد الذي تجيء الريح به فتحمله. وهو أخذ من الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾[1] لتصوير الإحباط .

وصفوة القول: أنّ دعاوي الاتجاه الصوفي أو صدور التفسير الذي يتعلق بهذا الاتجاه ما هي إلّا تأولات بعيدة، بنيت على ظاهر اختص به أهل بيت النبي الأطهار وهو في حدود واقعهم وحياتهم اليومية يقوم على أساس من القرآن والإيمان ، ولكن أصحاب الاتجاه الصوفي أخذوا ظواهر التقشف والزهد في سير أهل البيت والتي تعني التهيؤ لأعباء المهمات الدينية ، والاستعداد لتحمّل الرسالة ، ومواجهة الحياة على أساس خصائص الوصاية وخصال الإمامة ، لا الانقطاع والاعتكاف الذي تميز به التيار الصوفي . ولا نذهب بعيداً فنورد ما جاء في بعض الروايات التي تنصّ على تبرؤ الإمام الصادق من دعاوى هذه الجماعة ، إلّا أنه عليه السلام يشير إلى أنه «سيكون منهم أقوام يدّعون حبّنا ، ويميلون إلينا ، ويتشبّهون بنا»[2] ويحذّر من ذلك .

وكذلك وردت بعض الروايات عن أبنائه الطيبين الأئمة الميامين والأوصياء من بعده ، إذ كان اتجاه التصوّف يتسع وهو يتخذ أوصاف العزلة ، ويجعل له مظاهر مفتعلة ، فيما كان الأئمة من أهل البيت في مراحل حياتهم يواجهون أوضاع الأمة ، ويضطلعون بأعباء الإمامة والحفاظ على بقاء نهج الحق والصدق بطرق من الاتجاه إلى الله والاعتماد على تسديده والانقطاع إليه ، تجعلهم موضع خطر يتهدّد عروش الطغاة .

---

(١) إبراهيم : ١٨ .

(٢) حديقة الشيعة للأردبيلي ج٢ ص٧٤٧ فارسي .

# اَئِمَّةُ المَذاهِبِ

نعود مرّةً أُخرى إلى الحديث عن أئمة المذاهب لاستكمال جوانب البحث عن حياتهم ، وقبل البدء في الحديث عن شخصيات أئمة المذاهب ، لا بد من القول أن لكل شخصية من شخصياتهم مقوّماتها وميزاتها الخاصة ، ولكل منهم سيرة يهتزّ فيها الواقع وتنغمر فيها الحقائق أمام الغلوّ أو التطرّف في العداء ، شأنهم شأن كل ما يرتبط بفترات الانقسام والاختلاف؛ لذا أصبح البحث عن حياتهم يتّصف بالصعوبة والتعقيد ، ولكنّنا حاولنا أن نستخرج شخصياتهم في إطارها العلمي وظرفها التاريخي دون التأثير بموجات الغلو أو العداء ، فهم في مواقعهم ومراكزهم الحقيقية والواقعية لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذه التيارات لو أنّ عناصر الفتنة والعداء تعاملت مع سلوكهم وسيرهم ومآثرهم تعاملاً نزيهاً ينبع من الحرص على الإسلام ، والالتزام بمبادئ الإخاء في الدين ، والمحافظة على وحدة الأُمة . ولكنا رأينا فيما مرّ كيف عملت المصالح على دفع الأُمة إلى أوضاع سيئة ، فتفرّق الشمل ، وتمزّق الجمع ، واختلطت الأغراض ، والحكّام وراء ذلك يتابعهم أقوام غلب عليهم التعصّب وتحكّمت فيهم الأهواء .

وحقّاً إنّها لأحداث مؤسفة ينزف لها القلب دماً ، وقد حكم الدين والتاريخ أن الجهل آفة ، ومن الجهل أن يتحكّم العداء في نفوس أهل الإسلام ودين الإخاء والوحدة ، وكلنا أمل أن تكون الاستجابة إلى داعي الحق ونبذ التعصّب ومظاهر الجهل الأُخرى خاتمة لعهود الانقسام ، ونهاية لأغراض الحكام .

وقبل البدء في البحث عن أئمة المذاهب ، لا بد من الإشارة إلى أمر مهم

ما زلنا نعاني من نتائجة وآثاره ، وقد رأينا في موضع البدع والضلالات كيف أطلقت وتبودلت من غير دليل واضح ، ودون وجود سبب معلوم خروجه على السنّة ، وأما ما علم من الدين بالضرورة ، ومن التفاصيل التي أوردناها علمنا أن المذاهب قد شملتها حرب الاتهامات ، وكان الشيعة دون هذه المذاهب في أتون الفرقة والانقسام ، يتألب الحكّام ضدّهم ، ويوجّهون إليهم سيوفهم ، وقد مرّت السنون وتعاقبت القرون ، فإذا الحكّام ما زالوا يرون في الشيعة خطراً ، ويؤلّبون عليهم المذاهب الأُخرى ، فيبذلون الأموال الطائلة ، ويستأجرون الأقلام الرخيصة . ولولا مصالح المتحكّمين؛ لرأينا أن الروح الإسلامية التي تجمعنا إلى إخواننا في الدين ونعيشها في حياتنا اليومية وفي المحافل واللقاءات ، وما تقود إليه نظرة الحق والإنصاف من علاقات تستهين ببعد الديار ، وتنائي الأقطار هي الغالبة . وقد عشت علاقات من الودّ والإخاء تجمعني مع إخوان علماء ومختصين في الأقطار الإسلامية ،كان سبب تعارفنا هو تبادل الرأي والمناظرة الحرّة ، وكم واجهت حروباً من الجهلة المتعصبين الذين تحجّروا وأغلقوا على أنفسهم منافذ الرأي وطريق التدبّر .

ولا نريد هنا أن نهمل ذكر الدوافع الأساسية على نهجنا في العرض لأئمة المذاهب ، فنحن نعترف بالمكانة العلمية والمنزلة التاريخية لكل منهم ، ونجهد في إبراز جوانب حياتهم ، والتي تكشف لنا أنّ أئمة المذاهب بعلمهم ودينهم لم يباشروا بأنفسهم العداء للشيعة ، ولم يسهموا في إقامة العداء بين المذاهب ، فإن حدث اختلاف في الرأي فهو في مجالس العلماء وأصحاب الشأن ، يتمّ بتقاليد المناظرة وطرق الاحتجاج ويبقى الحكم للحق . كما أنّ أئمة المذاهب لم يعرف عنهم بعدٌ يؤدي إلى العداء ، بل كانوا ما بين متلقٍ مباشرة عن الإمام الصادق عليه السلام ، أو متعلّم من مدرسة أهل البيت وفقههم ،

وممن لا يتجاهلون مكانة الإمام الصادق وأهل بيته . وقد كان للحكام أثرهم في اتجاهات الناس ومشاعرهم ، فيما كان الصادق يتمتع بذلك السلطان الروحي ، ويقوم بأعباء الرئاسة الدينية في إمامته .

ورأينا بعد هذه الفترة من الانقطاع بين صدور آخر جزء من الكتاب وصدور الجزء السابع والثامن ، أن نجعل كل جزء يتضمن بحثاً عن حياة إمامين من أئمة المذاهب .

ونبدأ بالبحث عن حياة الإمام أبي حنيفة .

**أبو حنيفة**

ذكرنا في الجزء الأول من كتابنا بعضاً من جوانب شخصية الإمام أبي حنيفة وعوامل شهرته ، ويواجه الباحث في ذلك أكثر أنواع الإعجاب وأشدّ أشكال العداء . فقد أطلق عليه أنصاره كل ما يخطر ببال من مفردات الإطراء والإعجاب ، فرفعوه إلى مستوى الأنبياء ، وفوق درجة الأولياء . بينما هبط خصومه بشخصيته إلى مستوى الدون ، فجرّدوه من كل فضيلة ، وسلبوه كل ما يؤهله لمنزلة علمية أو مكانة دينية .

ونحن في خضمّ هذه التناقضات ، نستخلص شخصية النعمان كرئيس مذهب وصاحب مدرسة ، لنكشف بعض العوامل التاريخية التي بقيت مهملة عن قصد ، أو لم تتضح للكثيرين ممن تصدّوا للبحث ، ولم يتمثّلوا عناصر التاريخ أو يستوعبوا طبيعة الظرف .

والإمام أبو حنيفة من أقرب الناس إلى أهل البيت ﷺ ، وأكثر أئمة المذاهب اتصالاً بالإمام الصادق ﷺ ولقد انعكس ذلك بآثاره الواضحة في أفكاره ومواقفه .

وما كان الإمام أبو حنيفة ليظهر في نظر البعض بعيداً عن أهل البيت لولا نظرة المنصور السياسية . ومحاولته التأثير في مواقف أبي حنيفة وتصرفاته ، والاستفادة من علمه في التأثير على مكانة الإمام الصادق ﷺ ودفعه إلى خط العداء لآل البيت ﷺ .

ولقد مرّ أبو حنيفة بظرف يقرب من المحنة ، استطاع أن يجتازها ، وأن يحمي نفسه من عذاب الحكام ولذعات عنفهم .

تمتّع أبو حنيفة بشهرة تظافرت على قيامها عوامل كثيرة . أهمها قدرته في القياس ، واستطاع أن تكون له مدرسة متميزة هي التي خدمت شخصيته ، وعملت على شهرته ورفع مكانته . فقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات بين أهل الرأي وأهل الحديث ، إذ عرف بالرأي وكثرة القياس ، مع قلّة العمل بالحديث ، وقد اشتهرت مدرسته بذلك ، ولقيت معارضة شديدة من حملة العلم وأهل الحديث لاقترانها بالرأي والقياس .

وسار أصحاب أبي حنيفة على رأيه ، وطبقوه فيما عرض لهم من مسائل . وقام تلامذته بنصرة مذهبه ، وفي طليعتهم القاضي أبو يوسف ، وبواسطته نالت المدرسة شهرة واسعة . إذ كانت بيده تولية القضاة ، وهو بمنزلة وزير العدل في العصر الحاضر فهو لا يولّي إلّا من كان على مذهبه . كما قام جماعة بنصرة المذهب ونشره ، منهم : زفر بن الهذيل ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وغيره. هؤلاء من أهل العراق الذين عرفوا بأهل الرأي كابن سماعة ، وعافية القاضي ، ومطيع البلخي وبشر المريسي . . . ومنشأ تسميتهم بأصحاب الرأي ، هو أن عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدّمون القياس الجلي على أخبار الآحاد كما اشتهر عن أبي حنيفة أنه قال :

علمنا هذا الرأي ، وهو أحسن ما رأينا ، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى ولنا ما رأينا[١] .

وجاء عن أبي يوسف أنه قال قبيل وفاته : كلما أفتيت به ؛ فقد رجعت عنه[٢] .

وجاء عن أبي حنيفة أنّه قال لأبي يوسف : ويحك يا يعقوب! لا تكتب كلما تسمع مني ، فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً ، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد[٣] .

وقد اشتهر عن أبي حنيفة قوله : لا يحلّ لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت[٤] .

وفي رواية: حرام على من لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي. وقد زُيد في رواية قوله: فإننا نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً[٥].

ولقد تشدد أبو حنيفة في الحديث ، وكان لذلك أسبابه؛ إذ أن تلك الفترة قد شهدت موجات الوضع في الحديث ، ولكي يضمن أصحاب المسائل القبول ، كانت فتاواهم تساق إلى الناس بصيغ الحديث بالنص أو بالمعنى أو بغيرها من الطرق التي شاعت ، فأصبح الكذب على الرسول الأعظم سهلاً وَتَكَسُّب به لإرضاء الحكّام ، ووضع الأحاديث وفق أهوائهم حتى بلغ الأمر حدّاً يثير سخرية الحكّام ، كما يثير الأذى في نفوس المؤمنين[٦] . وكان أبو حنيفة لا

---

(١) دائرة المعارف، فريد وجدي ج ٤ ص١٥٦ .

(٢) شيخ الأمة لسيد الأهل ص١٣٨.

(٣) الاجتهاد والمجتهدون ص١٠٢.

(٤) الانتقاء لابن عبدالبر ص١٤٥.

(٥) الإنصاف ص١٠٤.

(٦) نضرب مثلاً بأبي البختري وغيره ممن جاء بعده في مسألة إقبال خلفاء بني العباس على تطيير الحمام.

يرى أن يروي الحديث إلّا ما حفظه عن الذي سمعه منه ، وهي رواية أبو يوسف . أما رواية أبي حمزة فبعضها : سمعت أبا حنيفة يقول : إذا جاء الحديث الصحيح الإسناد عن النبيﷺ أخذنا به ، وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا ، وإن جاء عن التابعين زاحمناهم ولم نخرج عن قولهم . وفي أُخرى : وما جاءنا من أصحابه رحمهم الله اخترنا منه ولم نخرج عن قولهم ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال[١] . والأخير أقرب إلى حقيقة موقف أبي حنيفة وأخذه بالرأي .

وقد توافر لمدرسة أبي حنيفة أنصار عملوا بالرأي وأخذوا بالقياس ، وأعلنوا اختلافهم عن أهل الحديث . فاشتهرت مدرسة الرأي ، وارتبطت باسمه وتزعّم تيارها . ولأن تلامذة أبي حنيفة وأنصاره كانوا من النشاط والفعالية بالدرجة الملحوظة ؛ فقد استقرت مدرسة الرأي وانتشرت في العراق .

وهناك خلاف حول الشخص الذي أرسى دعائم مدرسة الرأي وأعلن بنيانها، هل هو إبراهيم ، أمْ حمّاد ؟ ويذهب بعضهم إلى القول بأنّ مؤسسها هو الخليفة عمر بن الخطاب . فيقول أحمد أمين : وكان حامل لواء هذه المدرسة عمر بن الخطاب ، وأشهر من سار على طريقته عبدالله بن مسعود في العراق ، فكان يتعشق عمر ويتعجب بآرائه . وجاء في أعلام الموقعين : أن ابن مسعود

---

← ودخل أبو البختري على هارون وهو يطير الحمام ، فقال له : تحفظ في هذا شيئاً ؟ فقال : حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : أن النبي ﷺ كان يطير الحمام ، ويأتي غيره فيضع بلا حياء حديثاً على لسان النبي الأعظم بإضافة «جناح» إلى حديثه ﷺ : لا سبق إلا في خف أو حافر ، ليرضي خليفة آخر من بني العباس ، تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٨٤ ، وفيات الأعيان ج٢ ص١٨٢ .

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص١٤٤ .

كان لا يكاد يخالف عمر في شيء من مذاهبه .

وقد انطوى عهد عمر إلى أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري على إشارات تحض على القياس عندما قال : الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أشبهها بالحق[1] .

ومع أنّ صحة هذا العهد موضع نظر ، إلا أنه من أكبر دعائم القول بقدم الرأي عند القائلين به ، رغم أنّ الطرف الآخر ينسب إلى عمر قولاً يعارضه .

وقال الشعبي : كان عبدالله لا يقنت ، ولو قنت عمر لقنت عبدالله[2] ويظهر من هذا أن عمر كان يعمل بالرأي ، وهو مؤسس هذه المدرسة ، وسار عبدالله ابن مسعود على منهجه ، فكانت فتواه هي فتوى عمر بن الخطاب ، فالرأي متحد .

وأخذ أبو حنيفة العلم عن حمّاد بن سليمان ، وأخذ حمّاد عن إبراهيم النخعي وأخذ إبراهيم عن علقمة بن قيس ، وعلقمة هو تلميذ ابن مسعود ، فكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر وابن مسعود ، وإذا اجتمعا كان قول عبدالله أعجب لأنه كان ألطف؛ ومن هذا اشتهرت مدرسة الرأي في العراق لأنّ عبدالله بن مسعود كان قد أقام في الكوفة مدة من الزمن ، وكان يفتي الناس ويحدّثهم .

قال أبو عمر الشيباني : كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول : قال رسول الله ﷺ فإذا قالها استقلّته الرعدة[3] .

---

(١) أعلام الموقعين ج١ ص٤٩ و ٥٠ .

(٢) فجر الإسلام ص ٢٤٠ ط٧ .

(٣) فجر الإسلام ص ٢٤٠ ط٧ .

فإذا كان إبراهيم ألزم لأقوال ابن مسعود ، فأبو حنيفة كان يلازم أقوال إبراهيم وأقرانه ، ولا يجاوز إلّا ما شاء الله ، وكان عظيم الشأن في التخريج على مذهبه ، دقيق النظر في وجوه التخريجات . وإذا أردت أن تعلم حقيقة ذلك؛ فلخص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد ، وجامع عبدالرزاق ، ومصنّف أبي بكر بن أبي شيبة ، ثم قايسه بمذهبه ؛ تجده لا يفارق تلك المحجة إلّا في مواضع يسيرة ، وهو في تلك الموارد اليسيرة لا يخرج عمّا ذهب إليه فقهاء الكوفة[1] .

* * *

ولقد أعلنت غضبها على أهل الرأي وبالأخص الكوفة والعراق بصورة عامة ، ومن شدّة الصراع وتفاقم الخلافات ، تحامل حملة الآثار على أهل العراق . فقالوا بعدم علمهم بالحديث ، الأمر الذي ألجأهم إلى التمسك بالرأي والعمل بالقياس .

وقد صدرت عن مالك بن أنس ألفاظ تعبّر عن عمق التأثر ؛ فقد قيل عنه أنه قال : أنزلوهم ـ أي العراقيين ـ منزلة أهل الكتاب ، لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد[2] .

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة ، ثم رفع رأسه فقال للشيباني : يا أبا عبدالله ، أكره أن تكون غيبة ،كذلك أدركت أصحابنا يقولون . وكان مالك إذا نظر إلى أصحاب الرأي من العراقيين يقرأ ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾[3] .

---

(١) ولي الله دهلوي ، رسالة الإنصاف ، ودائرة المعارف ، فريد وجدي ج٣ ص٢٠٦ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر ج٢ ص١٥٧ .

(٣) ضحى الإسلام ج٢ ص١٥٢ .

وكان يسمي الكوفة : دار الضرب . يعني أنها تضع الأحاديث وتخرجها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير .

وقال عطاء لأبي حنيفة : من أين أنت ؟

قال : من أهل الكوفة .

قال : أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً؟[١] وإن صدور أمثال هذه الأقوال من رجل كمالك بن أنس ـ الشخصية الدينية والسياسية في آن واحد ـ لها أثرها ، وإن شيوع أشياء كهذه لها نتائجها الخطيرة التي تستلزم حشد الجهود وتعبئة القوى لرد خطر ما ينجم من ورائها من تفاعلات . فكانت مقابلات حادة ومواجهات تتصف بالعنف والخروج عن قواعد المساجلات العلمية .

وقد كانت شهرة أصحاب الرأي سريعة ، استطاعت أن تكون بإزاء مدرسة الحديث بتاريخها ومواقعها ، ولما كان أبو حنيفة ينتقي أصحابه ويختارهم فيتعاهدهم بالرعاية والعناية كاختياره لأبي يوسف ورعايته للآخرين؛ لذا فقد تأثروا به غاية التأثر ، وأصبحوا متفرغين لتطبيق منحى الرأي والدفاع عنه .

كما كان أبو حنيفة يشجع الجدل بين تلامذته ، ويتركهم يتبادلون الأقوال والحجج ، وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً في جلسة واحدة وبإشراف أبي حنيفة . حتى نبغ تلامذته ، وكانوا من أعمدة القياس ، وأصبحت صورة حلقة أبي حنيفة في أذهان الناس تتكون من أجزاء بعضها يكمل بعضاً ، حتى قال وكيع لرجل ـ قال أخطأ أبو حنيفة ـ : كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ ومعه مثل

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٣١ .

أبي يوسف وزفر في قياسهما؟[١] .

ولكن الأمر في المدينة غيره في العراق ، فقد كانت الصورة تظهر أبا حنيفة وهو يقود حركة القياس . فيروى عن الشافعي ﷺ أنه قال : قيل لمالك بن أنس : هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيت رجلاً لو كلّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته .

لقد بلغ أبو حنيفة من حضور الذهن وتوقّد الذّكاء مستوى جعله يتغلب على منافسيه بطرقه وقياسه ، كابن أبي ليلى ، الذي كان اختلافه معه في المسائل مادة كاملة ضمها مصنف كامل . ومنها عندما اجتمع أبو حنيفة وابن أبي ليلى عند أبي جعفر المنصور فسأل ابن أبي ليلى أبا حنيفة عمن باع ثوباً وتبرأ من العيب؟ فقال : إذا برأه فقد بريء . وقال ابن أبي ليلى : لا يبرأ حتى يضع يده على العيب . فلم يزل يدخل عليه أبو حنيفة حتى قال : لو أن امرأة [وذكر ما يعني أنها من العباسيين] باعت عبداً وعلى رأس ذكره برص ، أيجب عليها أن تضع يدها على رأس ذكره ؟ فقال ابن أبي ليلى : يجب عليها ذلك . فغضب المنصور عند ذلك وأهانه ، فظفر به أبو حنيفة[٢] .

لقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات ، والهدف الذي يوجه إليه الطعن . وقد حمل العلماء على أهل الرأي حملة شعواء ، وأورد أهل الحديث روايات عن رسول الله ﷺ في ذم الرأي ، منها :

**«إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى أناس جهّال يستفتون برأيهم فيضلّون ويُضِلّون»**[٣] .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٤٧ .

(٢) انظر الانتقاء ص ١٥٢ ـ ١٦٢ .

(٣) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٣، باب ما جاء في ذم القول في الدين ح١١١٣، تحقيق مسعد عبدالحميد السعدني، دار العلم للملايين ـ بيروت.

وحدّثوا عنه ﷺ : «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم ، يحرّمون به ما أحلّ الله ، ويحلّون به ما حرّم الله»[1] .

وأوردوا عن عمر بن الخطاب قوله : إيّاكم وأصحاب الرأي ، فإنّهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ؛ فقالوا بالرأي ، فأخلّوا وأضلّوا[2] .

* * *

إلى كثير من الأحاديث التي أوردوها ، والأقوال التي نقلوها عن الصحابة والتابعين وأتباعهم . واشتدّ النزاع وتحوّل إلى تعصّب قبلي وتحزّب إقليمي ، وأصبح من المحتّم على أصحاب الرأي وعلى العراقيين والكوفة بالأخص أن تردّ على تلك الهجمات ، وأن تنتصر لوطنها وآرائها .

وعلى هذا النحو استمرّ الوضع من تربص كل فريق بالآخر ، فتنابزوا وتقابلوا بانتقاص البعض للبعض ، وعيّروا أهل الكوفة بالنبيذ ، وأهل المدينة بسماع الغناء . واشتدّت عصبية كل قوم لبلدهم ، وكان للأدب قسط وافر في هذا الصراع في عصر أبي حنيفة وبعده .

قال عمّار الكلبي يذمّ أهل الحديث :

إن الرواة على جهلٍ بما حملوا ... مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ... ولا الجمال بحمل الودع تنتفع[3]

ويقول بعضهم :

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عبدالبر بطريق عن ابن مالك الأشجعي . جامع بيان العلم وفضله ص ٤٧٤ باب في ذم القول في الدين ح ١١٦٤.

(٢) ملخص إبطال القياس ص ٥٨ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١١، باب ذكر ذم الإكثار من الحديث ح ١١٠٤.

يحمل أسفاراً له وما درى إن كان ما فيها صواباً أو خطأ
إن سئلوا قالوا كذا روينا ما ان كذبناه ولا اعتدينا[١].

وقال بكر بن حماد قصيدة منها:

وكل شياطين العباد ضعيفة وشيطان أصحاب الحديث مريد[٢]

وأثارت هذه القصيدة حمية كثير من الشعراء المنتصرين لأهل الحديث.

فعارضوها بعدة قصائد كابن غياث عبدالسلام بن يزيد إذ يقول:

تعرّضت يا بكر بن حمّاد خطة بأمثالها في الناس شاب وليد
فذمّك هذا في المقال مذمّم وذمّك هذا في الفعال حميد[٣]

وهي قصيدة طويلة[٤].

ومنها قول أحمد بن عصفور يعارض ابن حمّاد:

أيا قادحاً في العلم زند عمائه رويداً بما تبدي به وتعيد
جعلت شياطين الحديث مريدة ألا إن شيطان الخلال مريد
وجرّحت بالتكذيب من كان صادقاً فقولك مردود وأنت عنيد[٥]

ومهما كان الشعر في معركة الرأي والحديث فإنه لا يبلغ في تأثيره وفعله ما يصدره أصحاب الحديث أنفسهم والذين يتصدّون للردّ على أهل العراق وإعلان سخطهم على أبي حنيفة لأنّه يتزعم حركة القياس بإزائهم.

وقد أجحف خصومه في نقده والتحامل عليه والطعن في معتقده حتى قالوا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٤١٦، ٤١٢، باب ذكر ذم الإكثار من الحديث، ح١١٠٤.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٤٠٣، باب ذكر ذم الإكثار من الحديث، ح١٠٧٨.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ص٤٠٣ و٤٠٤، باب ذكر ذم الإكثار من الحديث، ح١٠٧٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) جامع بيان العلم وفضله ص٤٠٥، باب ذكر ذم الإكثار من الحديث، ح١٠٧٨.

عنه : إنه استتيب من الكفر مرتين[١] . وإنه إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره[٢] وقد خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ[٣] .

وقد حدّدوا كفره بالقرآن بآيتين ، كما ورد عن شريك أنه قال : كفر أبو حنيفة بآيتين من كتاب الله...[٤] .

وقد جعلوا وجوده ضرراً على الإسلام . وبقاءه هدماً للدين وفتكاً بالمسلمين؛ لأنه يهدم الإسلام عروة عروة ، وأنه شر مولود ولد في الإسلام[٥] .

وقد أورد الخطيب في تاريخه ، وابن عبدالبر في انتقائه أقوالاً كثيرة أطلقها خصومه ، وشاعت في أندية المجتمع؛ حتى بلغت إلى المنامات والأطياف ، إذ كان لها سوق رائج في عصور التطاحن المذهبي ، ولا أرى داعياً لاستعراض تلك الأقوال مناقشاً لها أو مؤيداً . وسنعاود بحث أمرها في الجزء الثامن .

وعلى أيّ حال ، فقد دلنا التتبع على أنّ شخصية أبي حنيفة لمعت بعد أن رسخت قدم تلامذته في الدولة ، وأصبح لهم النفوذ التام عندما ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بسياستها ، وكان فيهم القضاة وذوو النفوذ ، فانتشر المذهب المنسوب إليه ، واتسعت مدرسته بقوة تلامذته ، وقد أدّت عوامل التضارب وشدة الخلافات إلى إيجاد جو مضطرب حمل بعض الأتباع على أن يضعوا الأخبار . ويختلفوا الحكايات . بل وضعوا كتباً مطولة لإعلاء شأنه؛ ممّا أدّى بالباحث

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥٠.

(٢) مختلف تأويل الحديث ص ٦٣.

(٣) ابن عبد البر الانتقاء ص ١٥٠.

(٤) تاريخ بغداد، الخطيب ج١٣ ص ٣٧٢.

(٥) الانتقاء ص ١٥٠.

فكان ﷺ يوجه إليه المسائل التي تتفق مع ما عرف عن أبي حنيفة من الذكاء . قال له الإمام ﷺ : «يا أبا حنيفة ما تقول في مُحرم كسر رباعية ظبي ؟ قال : يا ابن رسول الله ما أعلم فيه . فقال : أنت تتداهى ولا تعلم أنّ الظبي لا يكون له رباعية ، وهو ثني أبداً»[1] .

* * *

ويظهر لنا تاريخ حياة أبي حنيفة ، أنّه كان من الشخصيات المرموقة في عصره ، وكانت له حلقة درس يرتادها جماعة وفي طليعتهم تلميذه الأول أبو يوسف . وأصبحوا من بعده علماء ولهم آراؤهم الخاصة وأقوالهم المنفردة عن قوله ، ولأن أبا حنيفة قد عُرف بالقياس ؛ فقد نقم عليه علماء عصره ، وشدّدوا عليه النكير . فلم يخضع لواحد منهم إلّا للإمام الصادق ﷺ كما يستدل من قوله المشهور : لولا السنتان لهلك النعمان[2] . والمراد بالسنتين هما اللتان قضاهما في المدينة مع الإمام الصادق ﷺ في آخر أيامه ، وأخذ عنه العلم ، وقد نهاه عن استعمال القياس وقال له : «إنه أول من قاس إبليس» في قصة طويلة[3] . ومما يدلّ من بعض آثاره أنه ترك القياس ، إلّا أن مدرسته ظلّت تأخذ به ، وكما اشتهرت مدرسة أبي حنيفة بالقياس ، فقد اشتهرت باستعمال الحيل الشرعية ، وقد نسبوا له كتاب الحيل الشرعية . ومن المستحسن الإشارة لذلك بموجز من البيان لتظهر لنا حقيقة لها أهميتها في تاريخ حياة الإمام أبي حنيفة . فهل كان أبو حنيفة يستعمل الحيل ، وأنه وضع في ذلك كتاباً تداوله الناس ، أم أنها نسبة لا أصل لها ؟ .

---

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص٢٠٢، ووفيات الأعيان ج١ ص٢١٢ ، ومرآة الجنان ج١ ص٣٠٥.

(٢) مختصر التحفة الاثني عشرية ص٨.

(٣) علل الشرائع ص٨٦ ج١.

## الحيلة الشرعية

الحيلة مأخوذة من الاحتيال ، وهي الحذق وجودة النظر ، والقدرة على التصرف . وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خُبْثٌ ، وقد تستعمل بما فيه حكمة ، ولقد غلب في العرف اللغوي إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى حصول الغرض ، بحيث لا يتفطّن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة ، وتنصرف أيضاً إلى الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى الغرض الممنوع منه شرعاً أو عقلاً ، أو عادة . ويقصد بها الحيل التي تُسْتَحَلُّ بها المحارم ، وأطلقها الفقهاء على المخارج من المضايق بوجه شرعي لمن ابتلي بحادثة دينية . والحيلة ترتبط بالرأي ، وحيث كانت مدرسة أبي حنيفة معروفة بالرأي؛ فقد عرفت هذه المدرسة بالحيل الشرعية . وقد اشتهر عن أحمد بن حنبل أنه قال : هذه الحيل التي وضعها ابو حنيفة وأصحابه ، عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها ، أتوا إلى الذي قيل حرام احتالوا فيه حتى أحلّوه[1] .

ويظهر من كلمة الإمام أحمد هذه أنهم ـ أي أصحاب أبي حنيفة ـ استعملوا الحيل غير الجائزة والممنوعة شرعاً ، وقد اهتم المذهب الحنفي من بين المذاهب بالحيل . فقد ألّفوا كتباً في الحيلة ، وقد نُسب لأبي يوسف كتاب في الحيل[2] ولكنه مفقود الآن ، وكذلك لمحمد بن الحسن الشيباني كتاباً في الحيل رواه عنه معاصره أحمد بن حفص البخاري . ورواه أيضاً موسى بن

---

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص١٤١ .

(٢) الحيوان للجاحظ ج٣ ص١١ .

سليمان الجوزجاني المتوفى سنة (٢٤٤ هـ) كما ألف أحمد بن عمر الشيباني الخصّاف ـ أحد قضاة الدولة المتوفى سنة (٢٦١ هـ) ـ كتاباً في الحيل ، وكثير من الكتب في هذا الموضوع نُسبت إلى الحنفية[1] .

* * *

أما أبو حنيفة ، فلا يُعلم بالضبط أنّ له كتاباً في الحيل كان أبو حنيفة يستعمله ، وقد نسب لابن المبارك أنه قال : من استعمل كتاب الحيل لأبي حنيفة أو أفتى بما فيه ؛ فقد بطل حجّه ، وبانت منه امرأته[2] .

ولا نعلم مقدار صحة هذا القول من ابن المبارك ، فهو من أصحاب أبي حنيفة ومناصريه ، ولا ندري هل أنّ أبا حنيفة استعمل الحيل الجائزة أم المحرمة؟ فإن كان الأول ، فليس لنا أن نحصر الأمر به ، فإنّ حدّة الذهن والتخلّص من المشاكل لم يكن من امتياز أبي حنيفة وحده . إذ الأمور المشروعة في الحيل قد سبق العمل بها في العصر الذي سبق عصر أبي حنيفة. أما إذا كان استعماله للحيل غير الجائزة وهي الاحتيال على حلّية ما هو حرام ، أو على إسقاط ما هو واجب أو غير ذلك ، فهل يمكننا أن نحمّل أبا حنيفة مسؤولية فتح هذا الباب ، ولم يصل إلينا كتاب يدل على استعماله للحيل غير الجائزة؟ فهو لم يؤلف في ذلك كتاباً لا في الحيل ولا غيرها ، أما كتاب العالم والمتعلم فهو كتاب صغير لا يدل على مكانته العلمية ومنزلته التي وصفوه بها ، ولم يتفق على صحة نسبته إلى أبي حنيفة .

وليس ببعيد أن يكون أصحابه قد استعملوا الحيل غير الجائزة ونسبوها

---

(١) انظر أعلام الموقعين ج ٤ ص ١٣ و ١٤ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٢٧ .

لرأيه ،كما هو شأنهم في كل مسائل المذهب؛ فإنهم يستخرجون المسألة الشرعية حسب نظرهم ورأيهم ، ويقولون هذا رأي أبي حنيفة ، مستندين إلى قاعدة : أنّه يعمل بما صحّ عنده من الحديث . فهم يصححون الأحاديث لتقويم فتاواهم ، ويسندون الكل لأبي حنيفة . وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلاً طويلاً في كتابه «أعلام الموقعين» ذكر فيه الحيل المحلّلة والحيل المحرّمة ، وذكر الأخبار في ذلك ، وأفاض في البيان فأكثر وقال فيما قال :

والمقصود أنّ هذه الحيل لا تجوز أن تنسب إلى إمام؛ فإنّ ذلك قدح في إمامته ، وذلك القدح يتضمّن القدح في الأمة؛ حيث إئتمّت بمن لا يصلح للإمامة ، وهذا غير جائز . ولو فرض أنه حكي عن واحد من الأئمة بعض هذه الحيل المجمع على تحريمها ، فإما أن تكون الحكاية باطلة ، أو يكون الحاكم لم يضبط لفظه ، فاشتبه مع بُعْد ما بينهما . ولو فرض وقوعها منه في وقت ما فلابد أن يكون قد رجع عن ذلك .

وليس الأمر هنا للافتراض واللّابدية ، وإنما المدار على الواقع . فإنّ الأكثر ينسبون لأبي حنيفة فتاوى بالحيل الممنوعة ،كما نسبوا إليه كتاباً في ذلك ، والأمر يحتاج إلى تدقيق وتمحيص ، لا للافتراض واللّا بدية .

وقال ابن قيم : فهذه الحيلة وأمثالها لا يحلّ لمسلم أن يأتي بها في دين الله ، ومن استحل الفتوى بهذه ، فهو الذي كفّره الإمام أحمد وغيره من الأئمة حتى قالوا : إنّ من أفتى بهذه الحيل ؛ فقد قلب الإسلام ظهراً لبطن ، ونقض عرى الإسلام عروة عروة[١] .

وإلى هذا الحد لم تتعين الفرقة التي اتسعت دائرة الحيل باستعمالها ، هل هم

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص١٣٩ .

الحنفية فقط ؟ أم يشاركهم غيرهم في ذلك ؟ وقد نقل عن بعضهم أنهم قالوا: ما نقموا علينا من أنا عمدنا إلى أشياء كانت حراماً عليهم ، فاحتلنا فيها حتى صارت حلالاً ؟ وقال آخرون منهم : إنّا نحتال للناس منذ كذا وكذا سنة في تحليل ما حرّم الله عليهم . ولا ندري من هو القائل ، وإلى أي فرقة ينتسب ، وإلى أي مذهب يرجع؟ .

قال أحمد بن زهير :كانت امرأة ها هنا بمرو ، أرادت أن تختلع من زوجها ، فأبى زوجها عليها . فقيل لها : لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه . ففعلت ، فذكر ذلك لعبد الله بن المبارك فقال : من وضع هذا الكتاب فهو كافر ، ومن سمع به فهو كافر ، ومن حمله من كورة إلى كورة فهو كافر ، ومن كان عنده فرضي به فهو كافر . قيل له : يا أبا عبدالرحمن : إن هذا الكتاب وضعه إبليس؟ قال : إبليس من الأبالسة . وقال النضر بن شميل في كتاب الحيل ثلاثمائة وعشرون أو ثلاثون مسألة كلها كفر . وذكر كتاب الحيل: لشريك بن عبدالله القاضي فقال : من يخادع الله يخدعه . وقال إسماعيل بن حمّاد : قال القاسم بن معن قاضي الكوفة :كتابكم هذا الذي كتبتموه في الحيل كتاب الفجور . وإسماعيل بن حمّاد هو حفيد النعمان بن ثابت أبي حنيفة[1] .

ومن هنا يظهر أنّ الكتاب الذي يتضمن الحيل المحرّمة هو من وضع الحنفية ، لا من وضع أبي حنيفة نفسه .

قال يزيد بن هارون : لقد أفتى أصحاب الحيل بما لو أفتى به النصراني أو اليهودي كان قبيحاً[2] . ونقل عن أحمد بن حنبل عن محمّد بن مقاتل قال :

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ج١٠ ص٢٤٨ ح١١٩٥.

(٢) أعلام الموقعين ج٣ ص١٤٨.

شهدت هشاماً وهو يقرأ كتاباً ، فانتهى بيده إلى مسألة فجازها ، فقيل له في ذلك فقال : دعوه . وكره مكاني ، فتطلعت في الكتاب فإذا فيه : لو أن رجلاً لف على ذكره حريرة في شهر رمضان ، ثم جامع امرأته نهاراً فلا قضاء عليه ولا كفارة[1] .

فالحيلة في فسخ المرأة النكاح : أن ترتدّ ، ثم تسلم .

والحيلة في سقوط القصاص عمن قتل أم امرأته : أن يقتل امرأته إذا كان لها ولد منه .

والحيلة في سقوط الكفارة عمن أراد الوطء في رمضان : أن يتغذى ، ثم يطأ بعد الغداء .

والحيلة لمن أراد أن يفسخ نكاح امرأته ويحرمها على نفسه على التأبيد أن يطأ حماته أو يقبلها .

والحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا : أن يسكر ، ثم يزني .

والحيلة لمن اراد سقوط الحجّ عنه مع قدرته : أن يملّك ماله لابنه عند خروج الركب ، فإذا أُبعد استردّ ماله .

والحيلة لمن أراد أن يملك مال غيره بغير رضاه : أن يفسد عليه ، أو يغيّر صورته فيملكه ، فيذبح شاته ، ويشقّ قميصه ، ويطحن حبه .

والحيلة لمن أراد قتل غيره ولا يُقتل به : أن يضربه بدبوس أو مرزبة حديد ، ينثر دماغه فلا يجب عليه القصاص .

والحيلة لمن أراد أن يسقط عنه حدّ السرقة : أن يدّعي أن المال له ، وأن له فيه شركة ، فيسقط عنه الحد بمجرّد دعواه .

---

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص ١٥١ .

والحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا عنه بعد أن يشهد عليه أربعة عدول غير متهمين، أو أن يصدّقهم فيسقط عنه الحدّ بمجرد تصديقهم.

والحيلة لمن أراد الصيد في الإحرام: أن ينصب الشباك قبل أن يُحرم، ثم يأخذ ما وقع فيه حال إحرامه بعد أن يُحلّ (١).

هذا بعض ما ذكروه من استعمال الحيل. وقد نقل عن أبي حنيفة أنه يفتي ببعضها كاستئجار الجارية لكنس البيت. وحوادث أُخرى مشهورة ذكرتها المصادر.

منها: ما ذكره ابن عبدالبر في الانتقاء عن شريك أنّه قال: كنّا في جنازة غلام من بني هاشم، وقد تبعها وجوه الناس وأشرافهم فأنا إلى جنب ابن شبرمة أُماشيه إذ قامت الجنازة، فقيل: ما للجنازة لا يمشى بها؟ قيل: خرجت أُمه والهة عليه سافرة وجهها في قميص. فحلف أبوه بالطلاق لترجعنّ، وحلفت هي بصدقة ما تملك لا رجعت حتى تصلّي عليه، وكان يومئذٍ مع الجنازة ابن شبرمة ونظراؤه، فاجتمعوا لذلك، وسئلوا عن المسألة، فلم يكن عندهم جواب حاضر. قال: فذهبوا، فدعوا بأبي حنيفة ـ وهو في عرض الناس ـ فجاء مغطّياً رأسه والمرأة والزوج والناس وقوف، فقال للمرأة: علام حلفت؟ قالت: عليّ كذا وكذا. وقال للزوج بم حلفت؟ قال: بكذا. قال ضعوا السرير فوضع، وقال للرجل تقدّم فصلّ على ابنك. فلما صلّى قال: ارجعي، فقد خرجتما عن يمينكما، احملوا ميتكم. فاستحسنها الناس (٢).

وكان المنصور يعرف عنه هذه القدرة في إيجاد المخارج. يروي حمزة

---

(١) انظر أعلام الموقعين ج٣ ص١٤٦.

(٢) الانتقاء ص ١٦١.

ابن عبدالله الخزاعي أن أبا حنيفة هرب من بيعة المنصور جماعة من الفقهاء ، ثم قال أبو حنيفة لي: فهم أُسوة . فخرج مع أُولئك الفقهاء ، فلما دخلوا على المنصور أقبل على أبي حنيفة وحده من بينهم فقال له : أنت صاحب حيل ، فالله شاهد عليك أنك بايعتني صادقاً من قلبك ؟ قال : الله يشهد عليّ حتى تقوم الساعة . فقال : حسبك . فلما خرج أبو حنيفة قال له أصحابه : حكمت على نفسك ببيعته حتى تقوم الساعة ؟ قال : إنما عنيت حتى تقوم الساعة من مجلسك إلى بول أو غائط أو حاجة ، حتى يقوم من مجلسه ذلك[1] . وعلى كل حال فقد اشتهر المذهب الحنفي بالعمل بالحيل الشرعية .

* * *

يقول الدكتور علي عبدالقادر : بقي أبو حنيفة في نظر أتباعه صاحب الفضل في الحيل المتعلّقة بالحلف ، ومن هنا أخذ الأحناف يذكرون عن إمامهم ماله من حدة ذكاء في مسائل الحلف . وقد كانت كتب الحنفية في الحيل قد انتشرت بين الناس ، فكان من أثر هذا أن أخذ الشافعية كذلك ينافسونهم في هذا الميدان ، ويؤلّفون في الحيل .

هذا في رأينا هو الباعث على وجود كتب الحيل في مذهب الشافعي بعد أن كان إمامهم يحكم عليها بالحرمة أو الكراهة بالرغم من الاعتراف بصحتها من حيث الظاهر ، وقد استمر على مخاصمة الحيل في المذهب كل من : الغزالي وعبد الرحمن بن زياد . ولكن ابن حجر نازعهم في هذا في فتاويه ، وبقي رأيه هو الذي عليه العمل في المذاهب[2] .

---

(١) الانتقاء ص١٥٩ و١٦١ .

(٢) نظرة عامة ص ٢٤١ .

ومن مسائل الحيل التي كثر الاختلاف بها هي الحيلة على إسقاط حق الشفعة ، وقد أقرّت الشريعة الإسلامية حق الشفعة للشريك . وقام الدكتور عبدالسلام ذهني بتناولها في كتابه «الحيل المحضور منها والمشروع» .

وذهب بعض العلماء الأول إلى أنّ القياس يأبى ثبوت حق الشفعة؛ لأنّه يتملك على المشتري ملكاً صحيحاً له بغير رضاه ، وذلك لا يجوز ، فإنه من نوع الأكل بالباطل ، وتأييد هذا بقول النبي ﷺ : «**لا يحلّ مال أمرئ مسلم إلّا بطيب نفس منه**»(١) ولأنّه بالأخذ يدفع الضرر على نفسه على وجه يلحق الضرر بالمشتري في إبطال ملكه عليه ، ونقل هذا الوجه عن أبي بكر الأصمّ(٢) وقيل في الشفعة بأن فيها رفعاً لضرر موهوم عند الشفيع ، في مقابل ضرر محقّق لدى المشتري(٣) . ولذا تجب العناية بالضرر الواقع ، وصرف النظر عن الضرر الموهوم . وقيل فيها بأن حكمة الشارع منها اقتضت رفع الضرر عن المكلّفين ما أمكن(٤) .

وقد اختلفوا بجواز التحايل فيها ، وصوّروا لذلك صوراً منها : إذا ترك البائع قطعة أرض على ملكه بين العقار المبيع والشفيع حتى لا يستطيع هذا الأخير الادّعاء بالجوار . أو أن يهبه تلك القطعة الفاصلة لتحول دون الشفعة بسبب الهبة .

وقال أبو حنيفة والشافعي بجواز الاحتيال في الشفعة لإسقاطها؛ لأنها من

---

(١) مسند أحمد ج٦ ص٦٩ ح٢٠١٧٢ .

(٢) انظر نيل الأوطار ج٦ ص٣٥٥ .

(٣) ابن عابدين ج٥ ص١٤٣ .

(٤) أعلام الموقعين ج٣ ص٢٤٧ .

الحقوق غير المستحبّة . وقال بذلك مالك ، وأحمد ، وحجتهم أن الحيلة أمر مستنبط من الكتاب والسُنّة .

ويقول فريق آخر : بعدم جواز الحيلة في سبيل إسقاط الشفعة ، لأنّ الحيلة إنما هي رخصة لِضعفاء المؤمنين ، ولأنّ التحيّل لإبطال الشفعة شرعت لدفع الضرر . فلو شرّع التحيّل لإبطالها ، لكان عوداً على مقصود الشريعة بالإبطال ، ويلحق الضرر الذي قصد إبطاله[1] .

واتّفق علماء المسلمين على ثبوت الشفعة للشريك ، أما الشفعة بالجوار فقد اختلفوا على ثلاثة أقوال : فأهل الكوفة يثبتون شفعة الجوار ولو مع تمييز الطريق والحقوق . وأهل المدينة يسقطونها ولو مع الاشتراك . وأهل البصرة يثبتونها إذا وقع الاشتراك في حق من حقوق الأملاك .

* * *

وعلى أي حال ، فإن هذه المسألة هي من المسائل الهامة التي اشتهرت بها مدرسة أبي حنيفة ، وقد ضاعف ذلك تفاقم النقمة عليها وتوجيه الانتقاد إليها ، وقد نسبوا إلى أبي حنيفة أنه وضع كتاباً في الحيل فهم يستمدّون منه ويأخذون عنه ، ولا بد من التحقق من ذلك وثبوته ، وربما أنهم أخذوا من فتاوى أبي حنيفة وقواعده وزادوا ، فسوّغوا استعمال الحيل بشتى أنواعها ، كما هو الشأن في جميع أبواب الفقه المنسوب لأبي حنيفة ، فإسناد الفتوى له إنما هو استنتاج يكشف عن رأيه ، بمعنى أنه لو عاش أبو حنيفة: لكان هو رأيه ، أو على قاعدة الترخص منه بقوله : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

(١) أعلام الموقعين ج٣ ص٢٢٩ ، والميزان للشعراني ج٢ ص٨٧.

## صلته مع العلويين

نشأ أبو حنيفة في الكوفة . وكانت منبعاً للحركات الثورية ، فكم من ثورة عارمة قامت ضد سلطة فأخمدتها القوة ، وأُخرى استطاعت أن تخمد قوة السلطة وتقيم دولة مستقلة زمناً طويلاً ، والحركة التي أطاحت بالدولة الأُموية كان منشؤها الكوفة ، البلدة التي ولد فيها أبو حنيفة ونشأ فيها ، وكان يشارك الثوار في حركاتهم سرّاً أو علانية ، وقد نكل به ابن أبي هبيرة عامل بني أُمية ، وضربه بالسياط .

وعاش أبو حنيفة وسط أحداث سياسية ، كان لها الأثر في نبوغه ومعرفة اتجاهه ومنحاه السياسي الذي ينتهجه .

وقد تجلّت موهبته ، وظهر نشاطه وميله للعلويين عندما ظهر زيد بن علي بالكوفة سنة (١٢٤ هـ) فكان يرى إمامة زيد ، وأنه على الحق . فأرسل إليه زيد رسالة مع الفضل بن الزبير يدعوه إلى بيعته ، فلما بلّغه الفضل رسالة زيد ، ذَكَرهُ أبو حنيفة بكل جميل ، وألزم الخروج معه ، وقال : لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام الحق ، ولكن أُعينه بمالي . ثم بعث إليه بالمال وهو ثلاثون ألف درهم ، وقيل ثلاثون ألف دينار ، وقال للرسول : أبسط عذري عنده...[1]

وسُئِلَ أبو حنيفة عن خروج زيد فقال : ضاهى خروج رسول الله ﷺ يوم بدر ، فقيل له : لم تخلّفتَ عنه ؟ قال : حبستني عنه ودائع الناس ، عرضتها

---

(١) زيد الشهيد للسيد محسن الأمين ص٦٣.

على ابن أبي ليلى فلم يقبل ، فخفت أن أموت محمّلاً . وكان كلما ذكر خروج زيد بكى[(١)] .

كما أنه انتصر لمحمد بن عبدالله بن الحسن وأخيه إبراهيم . وكان يحث الناس على الخروج للحرب مع إبراهيم وكان يقول : غزوة مع إبراهيم أفضل من خمسين حجة بعد حجة الإسلام[(٢)] . وكان الإمام أبو حنيفة عند ذكر مصاب محمد النفس الزكية ، يفعل كما يفعل عند ذكر استشهاد زيد ، فتدمع عيناه . .

وجاءت إليه امرأة فقالت : إنّ ابني يريد هذا الرجل ـ أي إبراهيم ـ وأنا أمنعه ؟ فقال : لا تمنعيه[(٣)] .

وقال أبو إسحاق الفزاري : جئت إلى أبي حنيفة فقلت له : أما اتقيت الله؟ أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن حتى قتل. فقال : قُتِلَ أخوك حيث قتل ، يعدل قتله لو قتل يوم بدر ، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة[(٤)] . فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة .

ومن هذا نستظهر أن أبا حنيفة معروف بميله للعلويين؛ ولذا وجه إليه زيد الدعوة للخروج معه ، وجاء في اعتذار أبي حنيفة في بعض الروايات أنه كان مريضاً . أو أن لديه ودائع للناس ملزم بحفظها أو ردّها . كما أنّ استفتاء الناس له بالخروج مع إبراهيم ، يدلّ على مكانته الاجتماعية في ذلك المجتمع . وبجانب ذلك ، فقد كانت له مكانة سياسية ويد في الثورة ، وقد أرسل رسالة

---

(١) انظر أعيان الشيعة ج٧ ص١٠٨، وانظر المناقب للمكي ج٢ ص٨٤.
(٢) المناقب للمكي ج٢ ص٨٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المقاتل ص٢٤٦.

إلى إبراهيم ، يشير عليه أن يقصد الكوفة ليعينه الزيدية ، وقال : ائتها سرّاً ، فإنّ من فيها من شيعتكم يبيّتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به .

ولمّا توجه إبراهيم لمقابلة عيسى بن موسى ـ القائد العباسي ـ وقامت الحرب بينهما ، كان أبو حنيفة يدعو الناس للخروج معه . قال أبو نعيم : سمعت زفر بن الهذيل يقول : كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهراً شديداً ، ويفتي الناس بالخروج معه . فقلت له : والله ما أنت بمنتهٍ عن هذا ، حتى توافي فتوضع في أعناقنا الحبال[1] .

وحدّث محمد بن الحسن وغيره من أصحابه : أنّ أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم بن عبدالله لمّا توجّه إلى عيسى بن موسى : إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيك في أهل الجمل؛ فإنه لم يقتل المنهزم ولم يأخذ الأموال ، ولم يتبع مدبراً ، ولم يذفّف على جريح ، لأنّ القوم لم يكن لهم فئة . ولكن سر فيهم بسيرته يوم صفين ، فإنه سبى الذرية ، وذفّف على الجريح لأن أهل الشام كانت لهم فئة ، وكانوا في بلادهم[2] .

فظفر أبو جعفر بكتابه ، فكان الهدف الرئيسي من عرض القضاء على أبي حنيفة ـ بعد مدة ـ هو اتخاذ وسيلة للقضاء عليه بحجة امتناعه عن معاونة الدولة ، وكان أبو حنيفة يرى حرمة التعاون معهم لأنهم أئمة جور . وقد كان لأبي حنيفة اتصال بالإمام الباقر عليه السلام وولده الإمام الصادق عليه السلام ويُعدّ من تلامذتهما ، كما أنه اتصل بعبدالله بن الحسن وكان يُعدّ من شيوخ أبي حنيفة .

---

(١) المقاتل ص٢٤٦، وتاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٩ و٣٣٠.

(٢) المقاتل ص٢٤٧.

**ويقول الأستاذ محمّد أبو زهرة:**

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أولاد علي ، ويرى أنّهم أحقّ بالخلافة من بني العباس ، وكانت لرابطة العلم تأثير في ولائه واتجاهه السياسي ، إذ كان تلميذاً لعبد الله بن الحسن ، كما أنّه على علاقة وثيقة بزيد وجعفر الصادق ، ولذلك لمّا خرج إبراهيم بن عبدالله بن الحسن على المنصور ، كان هوى أبي حنيفة معه ، ولم يكتفِ بذلك ، بل ثبّط أحد قوّاد المنصور ـ وهو الحسن بن قحطبة ـ عن الخروج لحرب إبراهيم .

ويبدو تأثير الإمام الصادق عليه السلام على أبي حنيفة من خلال مقاطعته الدولة العباسية ، فقد صرّح الإمام الصادق ـ كما رأينا ـ بعدم معاونة الظالمين ، وقطع الصلة بين الرعية وبين السلطة الحاكمة ، وهو ما يسمّى بـ «العصيان المدني»[1] . فعندما أراد المنصور أن يختبر طاعته وولاءه عرض عليه القضاء ، فامتنع أبو حنيفة . ثم أراد إخراجه ، فطلب منه الاشتراك بالعمل في بناء مدينة بغداد ـ وهي ما زالت تبنى ـ فأبى أبو حنيفة . وأقسم المنصور أن يفعل ، وأبو حنيفة يأبى . ثم قبل منه أن يعدّ اللبن في بناء بغداد ، وأبرّ بذلك قَسَمَ المنصور[2] ولكنه لم يثبت هذا القول ، ولم يرد فيما ورد عن أبي حنيفة في أقواله وآرائه .

* * *

وعلى أي حال ، فإن أبا حنيفة كان ذا صلة بآل البيت ، إذ أخذ عن الإمام

---

(١) انظر الجزء الثاني من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص٦٤ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤١٨ .

محمّد الباقر وولده الإمام الصادق ، وعن زيد بن علي ، وعبدالله بن الحسن . وكان يحتج بقول الإمام علي ، وربماكان يروي عنه بقوله : عن أبي زينب . خشية من الأُمويين .كما أنه لم يسالم الأُمويين ، واشترك في حركة الشيعة للإطاحة بحكمهم ، فقدّم لثورة زيد دعماً مالياً .كما أنّ المعروف عنه أنه لم يسالم العباسيين؛ ولذا فإن فتواه التي كان يفتي بها ، ونقده الشديد للأحكام التي كان يصدرها الحكّام كانت تثير السخط عليه . فمن ذلك أنّ المنصور استفتاه في الذين انتفضوا عليه من أهل الموصل ، هل تحلّ له دماؤهم ؟ فأجابه أبو حنيفة :

إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المؤمن لا يحلّ إلا بثلاث . فقال له المنصور : يا شيخ ، القول ما قلت ، ولكن لا تفتِ الناس بما هو شَيْنٌ على إمامك[1] .

والحقيقة أن المنصور من خلال إصراره على تولي أبي حنيفة القضاء يكشف عن نيته في الإيقاع به ، وليس الأمر إلّا العامل السياسي الذي كان يستفزّ المنصور ويجعله يقدم على قتل الناس وسفك الدماء . لذا فإن امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء لا يجعل المنصور يقتله هذه القتلة الشنيعة ، وإنما أرسل المنصور ليحضر أبا حنيفة من الكوفة ليقتله ويرتاح منه لأنّ أبا حنيفة كان يتعاون مع العلويين ، ويساعد الثوار منهم ، ويقوّي إبراهيم أحمر العينين . وكان مقام أبي حنيفة في الكوفة يؤدي إلى إثارة الرأي العام؛ لأنه مقبول القول عند الناس ، ذو حال واسعة من التجارة . فكان المنصور يخشى من اتساع دعوة أبي حنيفة لإبراهيم وأخيه محمد ، وطلبه من الكوفة إلى

(١) المناقب للموفق ج٢ ص٢٧ .

بغداد ، ولم يجسر على قتله علناً[١] .

وعلى الجملة فإنّ ميل أبي حنيفة لأهل البيت كان أمراً يبعث السلطة على العداء له وترصّد الدوائر به . وسنأتي على مزيد من القول فيه .

يقول الأُستاذ محمد أبو زهرة :

(وننتهي من الكلام أنّ أبا حنيفة شيعي في ميوله وآرائه في حكّام عصره ، أي أنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة ، وأنّ الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر وكانوا لهم ظالمين)[٢] .

وأن الشيء المهم الذي يلزم أن نقف أمامه وقفة تأمل هو : شهرة أبي حنيفة العلمية التي اكتسبت طابع الانتشار بعد موته ، حتى أصبح مرجعاً لملايين المسلمين ، فما هي العوامل التي ساعدته ، وأدّت إلى هذا الاشتهار ؟ فإنّا إذا لحظنا أبا حنيفة ذاته وجدنا أنه لم يكن له امتياز على كثير من العلماء المبرزين من أقرانه في عصره ، نعم كان مشهوراً بالقياس ، وهذا ما أوجب نقمة كثير من العلماء عليه .

أما تفوّقه العلمي وشهرته ، وبقاء مذهبه وانتشاره في الأقطار الإسلامية ، فيرجع إلى شهرة أبي يوسف ، فهو تلميذ أبي حنيفة وقد نال أبو يوسف مودّة الرشيد ، فكان يحبه حبّاً شديداً ويقول : لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت . فكان لأبي يوسف المنزلة والكلمة النافذة في الدولة .

ولولا أبو يوسف لما ذكر أبو حنيفة ، ولكن منزلة أبي يوسف في الدولة ، وتوليته رئاسة القضاء جعلت ذكر أبي حنيفة ينتشر ، وقد التفّ حوله جميع

---

(١) انظر : السيد عفيفي المحامي ، حياة الإمام أبي حنيفة ص .

(٢) أبو حنيفة ص١٦٥.

المنتمين لمدرسة أبي حنيفة وتلامذتهم، فكان نشاطهم محسوساً. ونالت أقوالهم الصبغة الرسمية. ثم عمدوا لنشر مذهب أبي حنيفة، فكانوا لا يقربون إلّا من كان على طريقتهم في الاجتهاد والفتيا. وهم على طريقة أبي حنيفة في الاستنباط.

ويمكننا أن نعتبر تمكّن أبي يوسف وسلطته التشريعية نقطة بداية وضع أُسس المذهب، فتطورت في المستقبل، إذ وجدت الظروف والإمكانيات اللازمة.

وعلى هذا فقط نشط أصحاب أبي حنيفة بتوليتهم القضاء، ونشر أقوال أبي حنيفة وآرائه، وكانوا يسيرون على قواعد مذهبية في الحديث، ومنهم المجتهدون، وأكثرهم ينفرد بقول، ويذهب إلى رأي غير رأي أبي حنيفة.

وقد اعتبروا استنباطهم للمسائل التي لم يكن لأبي حنيفة قول فيها هو رأيه وقوله، كما هو واضح لمن تتبع موارد الاستنباط عندهم، فيروون عن أبي حنيفة أنه قال لأبي يوسف: ويحكم! كم تكذبون عليّ في هذه الكتب ما لم أقل؟ وكيفما كان فقد تكوّن المذهب بجهود أصحابه الذين ينتمون لمدرسته، ويعرفون بالانتساب إليه، وكان عددهم ستة وثلاثين رجلاً، وفي طليعتهم أبو يوسف، فهو الذي تزعّم هذه المجموعة، وساعدته الظروف بأن يتولّى منصب رئاسة قضاة الدولة في إبان قوتها، فتقرب أصحابه وتقرب الناس إليهم حبّاً لما في أيديهم من الدنيا، فوسّعوا دائرة المذهب، ونشروا الأحكام باسم أبي حنيفة، وتوارث تلامذتهم نصرة المبدأ ونشر المذهب حتى جاء عصر التطاحن والتكالب على الدنيا، فكان هناك تعصب أعمى، وطائفية حمقى، وتحامل بدون مبرر، ومدح بدون لياقة، وشتم بدون ذنب. فاتسعت دائرة الدعوة إلى المذاهب، حتى جاء دور التحجير والإلزام بالأخذ

عن هذه المذاهب دون غيرها ، وكان للمذهب الحنفي شأن واسع وذكر منتشر .

## أبو يوسف

وليس من المبالغة أن يقول عمار بن أبي مالك : لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة؛ لأن ارتباطه بالحكم هيأ له نفوذاً شخصياً وسياسياً كبيراً، ساعد على أن يكون رأيه في الفقه ومذهبه هو المذهب الرسمي . فأبو يوسف هو أول من وضع الكتب في أُصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها ، وبثّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض[١] .

لقد كان أبو يوسف أوّل من دعي بقاضي القضاة ، ولاّه موسى الهادي وهارون الرشيد . وكان يفهم من ذكر «قاضي القضاة» أنّ المراد به أبو يوسف . ولم يكتف أبو يوسف بنفسه ، بل استخلف ابنه يوسف على الجانب الغربي ، فأقرّه الرشيد على عمله ، وقد غلب عليه الاهتمام بشؤون الحكّام ، ولم يكن من الفقه بتلك المنزلة التي تشير الناس إليه ، وتضمن له موقعاً علمياً . فيروي الخطيب البغدادي بسنده قول هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيّام العرب ، وكان أقلّ علومه الفقه[٢] .

ولهذا كان ما اشتهر من كتبه هو من شؤون الحكم أكثر منه أن يكون من قضايا الفقه ، فالخراج كان من تنظيمات السلطة ، وتخطيط اقتصاد الحكّام ، وكذلك الردّ على سِيَر الأوزاعي ، فليس هو من فقهه ، وإنّما صنّفه أبو يوسف

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٢٤٦ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، وشذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٩، ووفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٥ .

للرد على الأوزاعي الذي صنّف كتاباً ردّ فيه على سِيَر أبي حنيفة، وليس فيه إلّا المسائل التي كان أبو يوسف قد تلقّاها على أبي حنيفة. وكذلك الأمالي وهي الطريقة نفسها التي اتبعها في نشر أصول الفقه من خلال موقعه واتصاله بالحكّام؛ فكان نفوذ المذهب يستمدّ من نفوذ السلطة.

ولأبي يوسف كتب كثيرة دوّن فيها آراءه وآراء شيخه، ذكرها ابن النديم منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالك وغيرها. وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً.

قال رجل لأبي يوسف: رجل صلّى مع الإمام في مسجد عرفة، ثم وقف حتى دفع بدفع الإمام؟ قال: ماله؟ قال: لا بأس به. فقال: سبحان الله، قد قال ابن عباس: من أفاض من عرفة فلا حجّ له، مسجد عرفة في بطن عرفة؟ فقال: أنتم أعلم بالأحكام، ونحن أعلم بالفقه. قال: إذا لم تعرف الأصل فكيف تكون فقيهاً؟[1].

إنّ أبا حنيفة قد رعى أبا يوسف رعاية خاصة. وكان يتفقّده ويتعاهده ويمدّه بالمال حتى استغنى وتموّل بعد أن كان في ضيق وفقر، وكان أبوه ينهاه عن طلب العلم على أبي حنيفة لئلّا يؤثر ذلك على رزقهم وتحصيل قوتهم. ويروي أبو يوسف ذلك: توفي إبراهيم بن حبيب، وخلّفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصّار أخدمه، فكنت أدع القصّار وأمرّ إلى حلقة أبي حنيفة، فأجلس أستمع. فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٢٥٦.

بيدي وتذهب بي إلى القصّار. وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلّم. فلما كثر ذلك على أمي، وطال عليها هربي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مرّي يا رعناء هذا هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق ثم يقول: إنه ضحك عندما كان يجالس الرشيد ويأكل معه فالوذجة بدهن الفستق[1].

وقد أشرنا إلى طريقة أبي حنيفة في الدرس، وكان يقرّب كلاً من أبي يوسف وزفر أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، ويدعهما يتجادلان. وتختتم الروايات عن أُستاذية أبي حنيفة بعبارة واحدة لها معناها، إنه كان يضرب بيده على فخذ زفر قائلاً: لا يُطمع في رياسة فيها أبو يوسف. وهي برواية عمر بن حمّاد بن أبي حنيفة[2].

ويروي ابن إبراهيم بن عمر عن فراسة أبي حنيفة التي ينظر بها فيرى ما سيصير إليه أبو يوسف: كان أبو حنيفة حسن الفراسة، فقال لداود الطائي: أنت رجل تتخلى للعبادة. وقال لأبي يوسف: تميل إلى الدنيا[3].

ومحمد بن صبيح بن السماك ـ الذي كان يعظ الرشيد ـ ينظر إلى موقع أبي يوسف في السلطان ومكانته فيقول: لا أقول إن أبا يوسف مجنون، ولو قلت ذاك لم يُقبل مني، ولكنه رجل صارع الدنيا فصرعته[4].

ولكنّ شخصية أبي يوسف أثّرت في النظر إلى المذهب الحنفي أو إلى فقه

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٤ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) تاريخ بغداد ج١٤ ص ٢٥٠، الخطيب وابن العماد في الشذرات ج١ ص ٢٩٩، وابن خلكان.

(٣) تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٤٨.

(٤) تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٤٨.

أبي حنيفة نفسه من ناحية ،كما أنّ روح اتباع الحكّام وسيرة الخضوع للسلطة وخلفائها المتجبرين ، عزلت أبا يوسف عن أبي حنيفة وأصحابه الآخرين ، لكي يكون متميزاً عن مواقف إمامه التي ذكرناها في الابتعاد عن الحكّام والتعامل معهم بحذر . أو أنها ظلت شيئاً من سيرة أبي حنيفة لا تلزم أصحابه ، فيما ظل المذهب في أُصوله من اختصاصه وهو في السلطان ، وأصبح جزءاً من الحكم حتى قيل : وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعدّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً . فما هو إلّا أن ينظر في كتب أبي حنيفة واشباه أبي حنيفة . ويحفظ الشروط في مقدار سنة أو سنتين ، حتى تمر ببابه فتظنّ أنه من بعض العمال ، وبالحري ألّا يمر عليه من الأيام إلّا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان(١) .

والاتّجاه الأول يمثله عبدالله بن المبارك الذي كان من علمه ما أثّر كثيراً على منزلة أبي حنيفة ، وراح يطعن فيه . غير أن أصحاب المذهب عمدوا إلى وضع أقوال مخالفة تماماً لما اشتهر عن ابن المبارك ، حتى تجدها في ترجمة أبي حنيفة في تاريخ بغداد ، أو الانتقاء متناقضة متباينة .

فعن عبدالرزاق بن عمر قال : كنت عند عبدالله بن المبارك ، فجاءه رجل فسأله عن مسألة ، فأفتاه فيها . فقال له : قد سألت أبا يوسف فخالفك . فقال له : إن كنت صليت خلف أبي يوسف صلوات تحفظها فأعدها .

كما يروى عن ابن المبارك أنه سُئل : إنما أصدق أبو يوسف أو محمد ؟ قال : لا تقل أيهما أصدق ، قل أيهما أكذب؟!(٢) .

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٨٧ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٥٧ .

وسئل يزيد بن هارون : ما تقول في أبي يوسف ؟ قال : لا تحلّ الرواية عنه ، إنه كان يعطي أموال اليتامى مضاربة ، ويجعل الربح لنفسه(١) .

أما الذين أسلموا دينهم ودنياهم إلى أهواء الحكّام ، فيهبّون للدفاع عن أبي يوسف ، وإبعاد صلته عن أبي حنيفة ، ويختارون لذلك تهمة الجهمية ، أتباع الجهم بن صفوان الذي قال من جملة ما قال : بأن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين مجازاً ، وأنه لا يصف الله بوصف يجوز إطلاقه على غيره .

قالوا : كان أبو حنيفة جهمياً ، وكان محمد بن الحسن جهمياً ، وكان أبو يوسف سليماً من الجهم . وهو لأبي الزرعة الرازي .

وعمر الناقد قال : ما أحب أن أروي عن أحد من أصحاب الرأي إلّا عن أبي يوسف ، فإنه كان صاحب سنّة .

والدارقطني كان يقول : هو ـ أبو يوسف ـ أقوى من محمد بن الحسن . كما يروي عنه أنه قال : أعور بين عميان(٢) .

ولسنا هنا في معرض ذكر أصحاب أبي حنيفة ، وإنما ذكرنا أبا يوسف لغرض بيان علاقته بالسلطان ، وانضمامه إلى الحكم على نحو يخالف فيه رأي أبي حنيفة وسيرته . ولذلك نسوق بعضاً من أوجه خضوعه لخلفاء بني العباس ، والعمل على إرضائهم ، فيما كان يمدّ في رقعة اتّساع مذهبه ، ويوسّع من نطاق انتشاره من خلال سلطته ونفوذه ، وعلى طريقة استنباطه وصوغ أفكاره التي وضعت أُصول المذهب الحنفي ورسّخت كيانه . وقد ذكر

---

(١) تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٥٨.

(٢) تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٦٠.

الخطيب البغدادي أنّ البخاري قال : حكي لنا عن النعمان أنه قال : ألا تعجبون من يعقوب ؟ يقول عليّ ما لم أقل[١] . مما يظهر أن أبا يوسف كان يسمح لنفسه في حياة شيخه أن يستنبط ما يشاء ، ويدخل في المذهب ما يراه . ففي كتاب الخراج يذكر رأي أبي حنيفة ، ثم يصرّح برأيه على خلافه ،كما أنه لم يكن لأبي حنيفة كتاب مستقل في الفقه ، نعم نسب إليه كتاب «العالم والمتعلّم» وقد بيّنا الاختلاف حوله ، وأنه ليس له .

يقول الشيخ محمّد الخضري : وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالاً للإمام رجع عنها .

والحاصل ، أنّ مذهب أبي حنيفة لم يكن هو مجموع أقواله وآرائه ، قد رأينا أصحابه ينفردون بأقوالهم . ولكن حاول الحنفية جعل جميع الأقوال منسوبة إليه؛ لأنها على قواعده وأُصوله .

يقول ابن عابدين : إن ما خالف فيه الأصحاب إمامهم الأعظم لا يخرج عن مذهبه ، إذا رجّحه المشايخ المعتبرون . وكذا ما بناه المشايخ على العرف الحادث لتغيير الزمان ، أو للضرورة ، أو نحو ذلك ، لا يخرج عن مذهبه أيضاً ، لأنّ ما رجّحوه لترجيح دليله عندهم مأذون فيه من جهة الإمام . وكذا ما بنوه عليه من تغيير الزمان والضرورة ، باعتبار أنّه لو كان حياً لقال بما قالوه ، لانّ ما قالوه إنما هو مبني على قواعده أيضاً ، فهو مقتضى مذهبه . . . الخ[٢] .

لقد ابتليت الأُمة بحكّام أسرفوا في البذخ والتمتع من البناء ،كما أسرفوا في الظلم والتعدّي على الرعية . وقد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه في

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص٢٥٨ .

(٢) ابن عابدين ، رسم المفتي ص٢٥ .

نصرة العدل ومحاربة الظلم ، وبذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة؛ لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين ، لأنهم كانوا حرباً على الطغاة والجبارين ، ولم يكونوا إلى الظلمة ، ولم يتعاونوا معهم امتثالاً لأمره تعالى : ﴿وَلاَ تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] وإذا رأينا اتّصال أبي حنيفة بأهل البيت وميله السياسي إلى حركة زيد الشهيد ، واعترافه بأنّ الإمام الصادق عليه السلام أفقه الناس ، وإقباله على الأخذ عنه ، فإن رفض أبي حنيفة العمل للحكام قد يكون من نتائج تمسكه بنهج أهل البيت في التباين مع الظالمين وعدم الدخول فيما هم فيه .

ولئن نشأ أبو حنيفة في أجواء مغرية وظروف مواتية؛ فإن ما عاناه كان شاقاً وعسيراً ، إذ كان عليه أن يوفّق بين وجوده وسط تلك الأجواء ، وبين اعتقاداته وقناعاته . واكتشف أنّ السياسة لها نهجها الثابت في معاداة أهل البيت بالرغم من تغيّر الرجال وما تبعثه القربى من احتمالات بعد أن جاء بنو العباس إلى الحكم تحت ستار الرضى من آل محمّد ، وهم أقرب نسباً وأولى بالبر ، فرأى كيف تزهق الأرواح وتداس الكرامات وترتكب المجازر بحق آل البيت . ثم وقع عليه اختيار السلطة في أن يكون أداتها في الإساءة إلى علم الإمام جعفر بن محمّد الصادق عندما كلّفه المنصور بأن يحضر من المسائل ما يتوهمه صعباً على الإمام الصادق . وكان حقد المنصور على الإمام قد سوّغ له أن يتوسل بأمر ليس للإمام الصادق منازع فيه أو ضنو . ونعلم أنّ لقاء أبي حنيفة هذا الذي تم بإشراف المنصور ، قد فتح لأبي حنيفة مرحلة جديدة في علمه وسير حياته . فكان لا يدع فرصة تقربه من الإمام إلّا استغلها خاصة في

---

(١) هود : ١١٣.

الموسم ، وليس بخافٍ أن الإمام الصادق كان لا يقرّب أحداً إلّا أن يكون ذا نفع ، حتى أنه أبعد عنه المتقربين إلى الحكّام وحرّم الولاية لهم؛ لأنه ﷺ كان يرى : «**أن ولاية الجائر دروس الحق كله ، وإحياء الباطل كله ، وإظهار الظلم والجور**»[١] ومما ورد عنه أيضاً : «**العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء**»[٢] .ودخل عليه عذافر فقال ﷺ : «**بلغني أنك تعامل أبا أيوب والربيع ، فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟**» ونهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم ، حتى على بناء المساجد[٣] .

وإذا نظرنا إلى الفترة التي برز فيها أبو يوسف ، لم نجد من أسباب للبعد عن مواقف أبي حنيفة والتحوّل عن نهجه تحت ظروف الخوف أو الإكراه ، وهي فترة خطيرة الأثر في حياة المسلمين ، إذ على يديه أُرسيت قاعدة المذهب الرسمي للدولة ، وبفعل منصبه كقاضي للقضاة اقترنت بشكل جذري حركة المذاهب بأغراض السياسة ومشيئة الحكام .

وليس هناك فارق زمني كبير يبرّر ما حدث من تفاوت بين سيرة وسلوك رئيس المذهب الذي تعرّض للتعذيب والقتل على يد الحكام ، وبين أبرز تلامذته الذي انظمّ إلى الحكّام ، فكان واحداً منهم .

وإذا تغيّر الحاكم العباسي بعد المنصور ، فيأتي الهادي ، ثم الرشيد ، فإنّ أُسس السياسة وأغراضها واحدة ، وبإزائها نرى مسيرة الأئمة من أهل البيت ثابتة وراسخة ، فبعد وفاة الإمام الصادق ﷺ قام مقامه في الإمامة ابنه العبد الصالح[٤] الإمام موسى بن جعفر الكاظم ، الذي عانى من أهوال بني العباس

---

(١) تحف العقول ص ٣٣١ .

(٢) الكافي ج٢ ص ٢٥٠ ح١٦ .

(٣) للمزيد راجع الجزء الثاني من الكتاب ص ٦٣ .

(٤) كان الإمام موسى يعرف بالعبد الصالح لكثرة عبادته .

وظلمهم الأمرَّين حتى استشهد .

عن صفوان الجمّال قال : دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي : «يا صفوان ، كل شيء منك حسن جميل خلا شيئاً واحداً» .

قلت : جُعلت فداك ، أي شيء؟

قال : «كراك جمالك من هذا الرجل» ـ يعني هارون ـ.

قلت : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ، ولا للصيد ولا للّهو ، ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ ولا أتولّاه بنفسي ، ولكن أبعث معه غلماني .

قال : «يا صفوان ، أيقع كراك عليهم؟» .

قلت : نعم جعلت فداك .

قال : «أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟» .

قلت : نعم .

قال : «فمن أحب بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم فهو كمن ورد النار» .

قال صفوان : فذهبت وبعت جمالي[1] .

وقد حاول الرشيد أن يسيئ إلى الإمام موسى الكاظم ، وعلى طريق أسلافه ، فاستدعى رجلاً ليجمعه بالإمام موسى الكاظم لغرض الإساءة إلى الإمام في المجلس ، ولعلّه يقطعه أو يحرجه ، فكانت الغلبة الباهرة للإمام موسى الكاظم .

ولقد عانى الإمام موسى الكاظم منذ زمن خليفة بني العباس «المهدي» وتعرّض إلى صنوف من التعذيب والأذى ، لأنّه كان يمثّل لبني العباس

---

(١) رجال الكشي ج٢ ص٧٤٠ ح٨٢٨.

هاجساً وخطراً يتهدد كراسي حكمهم كل حين ، لما في منزلته التي يحتلها في قلوب الناس من منافسة ، وما يسببه سلطان الإمامة الروحي من عوائق تؤثر على سياستهم وتسلطهم على الرعية . وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه ، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي الإمام علي بن أبي طالب وهو يقول له : «يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1]» فاستيقظ مذعوراً ، وأمر به ، فأخرج من السجن ليلاً ، فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه ، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده . فقال : «والله ما هذا من شأني ، ولا حدّثت فيه نفسي» فقال : صدقت[2] .

وأسهم الرشيد بدوره في اضطهاد أولاد النبي وعترته الطاهرة ، إذ حمله خوفه على سلطان بني أبيه ، وحقده على الإمام موسى بن جعفر على أن يذيقه ألواناً من العذاب والتنكيل وأن يدسّ له السم .

وفي معاملة الرشيد للإمام موسى بن جعفر ، يتضافر عداء الحكام لمن يرونهم خطراً ، والحقد الشخصي المحض .

ذكر ابن عمار وغيره ممن كانوا على اطلاع : أنّه لما خرج الرشيد إلى الحج وقرب من المدينة ، استقبله الوجوه من أهلها ، وتقدمهم موسى بن جعفر ﷺ على بغلة ، فقال له الربيع : ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين ؟ وأنت إن طلبت عليها لم تدرك ، وإن طُلبت لم تفت ؟ فقال ﷺ : «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل ، وارتفعت عن ذلة العير ، وخير الأمور أوسطها» قال : ولما دخل هارون الرشيد المدينة ، توجه لزيارة النبي ﷺ ومعه الناس ، فتقدم إلى قبر

---

(١) محمد : ٢٢ .

(٢) البداية والنهاية ج١٠ ص١٨٣ .

رسول الله ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا ابن عم ـ مفتخراً بذلك عليه ـ فتقدم الإمام فقال : «**السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبه**» . فتغيّر الرشيد ، وتبيّن الغيظ فيه[1] .

وفي إضافة تبين لنا مبلغ ما كان يحسّه الرشيد من خيبة ، وما سببه له ذكر الحقيقة التي عجز عن طمس إشعاعها وفعلها في النفوس عشرات الحكام . يذكر ابن كثير أن الرشيد قال : هذا هو الفخر يا أبا الحسين . ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه[2] .

هذا الحاكم الذي هو على هذه الدرجة من الكراهية لأهل البيت كان أبو يوسف يعمل جهده على إرضائه ، ويبذل ما في وسعه للتقرب من عائلته وأهله ، لينعم بما يدرّه عليه ذلك . فلا عجب أن يكون من الرشيد بذلك الموقع ، ويحبه ذاك الحب الذي تمنّى معه أن يشركه في نسبه فقال : لو جاز أن أدخلك في نسبي لفعلت . ولا عجب أن ينحو أبو يوسف بأول مذهب رسمي للدولة ذلك المنحى في اتباع الحكّام من الأمويين والعباسيين في معاداة أتباع أهل البيت ، وتعاطي اتهامات الحكّام المعهودة للشيعة بأمور هُمْ منها براء . فشبّ في ظل مذهب أبي يوسف أُناس تابعوه على الارتباط بمثل هؤلاء الخلفاء وإرضائهم .

ومع كل ما هم فيه من نفوذ وجاه ، فإنّهم لم يأمنوا غدر الخلفاء ، ويبقون كبقية الرعية معرّضين لنزول الأذى بهم . فحتى أبو يوسف نفسه يصبّ الماء ويتخبط توقعاً لكل مكروه عندما دعاه الرشيد في إحدى الليالي[3] . ولننظر

---

(١) إعلام الورى ص٣٠٧.

(٢) البداية والنهاية ج١٠ ص١٨٣. والأصح يا أبا الحسن .

(٣) تاريخ الخطيب ج١٤ ص ٢٥٠ . ووفيات الأعيان ج٥ ص٢٤٧.

ماذا كان يريد الرشيد من أبي يوسف عندما جاءه هرثمة بن أعين وعلى لسان أبي يوسف : فقلت : تأذن لي أصبّ عليّ ماءً وأتحنّط ، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني ، وإن رزق الله العافية فلن يضرّ . فأذن لي ، فدخلت فلبست ثياباً جدداً ، وتطيّبت بما أمكن من الطيب ، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد ، فإذا مسرور واقف ، فقال له هرثمة : قد جئت به ؟ فقلت لمسرور : يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي ، وهذا وقت ضيق ، فتدري لم يطلبني أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قلت : فمن عنده ؟ قال : عيسى بن جعفر . قلت : ومن ؟ قال : ما عنده ثالث . قال : مرّ ، وإذا صرت إلى الصحن فإنه في الرواق وهو ذاك جالس ، فحرّك رجلك بالأرض ، فإنه سيسألك ، فقل : أنا . فجئت ففعلت ، فقال من هذا ؟ قلت : يعقوب . قال : أدخل . فدخلت ، فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر ، فسلّمت فردّ عليّ السلام ، وقال : أظننا روّعناك . قلت : إي والله وكذلك من خلفي . قال : إجلس : فجلست حتى سكن روعي ، ثم التفت إليّ فقال : يا يعقوب ، تدري لم دعوتك ؟ قلت : لا . قال دعوتك لأشهدك على هذا ، إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعها فأبى ، والله لئن لم يفعل لأقتلنه . قال : فالتفتّ إلى عيسى ، وقلت : وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين ، وتنزل نفسك هذه المنزلة ؟ قال فقال لي : عجلت عليّ في القول قبل أن تعرف ما عندي ؟ قلت : وما في هذا من الجواب ؟ قال : إن عليّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهلها . فالتفت إليّ الرشيد فقال : هل له من ذلك مخرج ؟ قلت : نعم! قال : وما هو ؟ قلت يهب لك نصفها ، ويبيعك نصفها ، فتكون لم تُبع ولم تهب . قال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ! قال فأشهد أني قد وهبت له نصفها وبعته النصف الباقي بمائة ألف دينار . فقال : الجارية . فأتى

بالجارية وبالمال فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها . فقال : يا يعقوب بقيت واحدة . قلت : وما هي ؟ قال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ ، ووالله إن لم أبق معها ليلتي إني أظن أن نفسي ستخرج . قلت : يا أميرالمؤمنين، تعتقها وتتزوجها ، فإن الحرة لا تستبرأ . قال : فإني قد أعتقتها ، فمن يزوجنيها؟ قلت : أنا . فدعا بمسرور وحسين ، فخطبت وحمدت الله ، ثم زوجته على عشرين ألف دينار . ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي : يا يعقوب، انصرف . ورفع رأسه إلى مسرور فقال : يا مسرور . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : أحمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً فحمل معي .

وكان الرشيد يقول لأبي يوسف في الأحوال التي تتطلب مخرجاً : إذهب فاحتلْ [١] .

ويقول الغزالي في وصف هذا المنحى بأنه من فتنة الدنيا ، في مساق قوله أن الفقيه في الزكاة ينظر ما يقطع به مطالبة السلطان ، حتى إذا امتنع عن أدائها ، فأخذها السلطان قهراً ؛ حكم بأنه برئت ذمته . وحكي أنّ أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ، ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة . فحكي ذلك لأبي حنيفة ﷺ فقال : ذلك من فقهه . ويعقّب الغزالي : صدق ، فإن ذلك من فقه الدنيا ، ولكن مضرّته في الآخرة أعظم من كل جناية . ومثل هذا هو العلم الضار [٢] .

ولا تظن أنّ حكم الغزالي متعلّق بهذه الحادثة فحسب ، لأنها حادثة تهون

---

(١) تاريخ الخطيب ج ١٤ ص ٢٥٤.

(٢) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٢.

أمام بقية الأحداث ، وإذا كان الغزالي على غير علم ببقية الحوادث وقال هـذا القول ، فما الظن به عندئذ؟

وبين حريم القصور العباسية كان أبو يوسف يتمتع بمكانة ما هي إلّا امتداد لموقعه عند الرشيد ، يذكر الخطيب أنّ أم جعفر كتبت إلى أبي يـوسف : مـا ترى في كذا ، وأحب الأشياء إليّ أن يكون فيه كذا ؟ فأفـتاها بـما أحبّت . فبعثت إليه بحُق فضة فيه حقاق فضة مطبقات في كل واحدة لون من الطيب ، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير . فقال له جليس له : قال رسول الله ﷺ : «من أهتديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يـوسف : ذاك حـين كانت هدايا الناس التمر واللبن (١) .

ورويت هذه الحادثة بإضافات أخرى وتفاصيل تولّد في النفس أحاسيس نكفّ عن التعليق عليها ، وندع الأمر على ما يوحيه ، ونتركه على ما تصوّره الأحداث . ولكن لا بد من الإشارة إلى أنّ عصور الانحطاط والتـردّي التـي وقعت بها الأمة على أيدي الحكّام والجبابرة ، كـانت نـتيجة مـعلومة سـلفاً لمقدّمات لا تقتصر على مبادئ حكم العباسيين ، بل تتعدّاها لتستغرق عودة الجاهلية الأولى في حكم معاوية بن أبي سفيان .

ولهذا قلنا إنّ أبا حنيفة كان يستغفر الله من تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتلك من أهـمّ أوجـه الاخـتلاف بـين أبـي حـنيفة وتـلامذته المقرّبين . ومن أظهر الصفات التي اكتسبها من هدي آل رسول الله ﷺ على أنّ ذلك يمنع من أن تشمله النظرة التي ينظر بها إلى أصحابه . فعدّ أبو حنيفة

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص ٣٤٠.

إلى جانب أصحابه ممن اتصلوا بخدمة هارون الرشيد ، وقوّوا مذهبهم ، وحصل لهم العلم والسلطنة[١] .

* * *

ولا بد هنا من التعرّض إلى موقف الأنصار والخصوم ، واستعراض الأقوال فيه وآراء الناس حوله ، لنقف على ركام من الأخبار المختلفة والآراء المتناقضة ، فهناك تعصّب وغلوّ في شخصيته ، وإعجاب مفرط في مواهبه . وهناك نقدٌ مُرٌّ لأعماله ، وتحامل شديد عليه ، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وإمام طائفة .

فطائفة محبّيه ومريديه قد رفعوه إلى منازل النبيين ، وزعموا أنّ التوراة بشرت باسمه ، فذكر اسمه إلى اسم اليهوديين : وهب بن منبه وكعب الأحبار . وأنه وجد في بعض الكتب المنزلة صفة ثلاثة رجال من أُمة محمد ﷺ يفوقون أهل زمانهم فقهاً وعلماً[٢] . وأنّ النبي ﷺ أخبر به قبل ولادته ، فروى مشايخهم بسندهم عن أبي هريرة أن رسول الله قال : يكون في أُمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أُمتي يوم القيامة[٣] . وعن أبي هريرة أيضاً : يكون في أُمتي رجل اسمه النعمان ، وكنيته أبو حنيفة هو سراج أُمتي ، هو سراج أُمتي ، هو سراج أُمتي[٤] . وبسندهم عن ابن عمر : يظهر من بعدي رجل يعرف بأبي حنيفة يحيي الله سنتي على يديه[٥] .

---

(١) مناقب الشافعي للرازي ص١٣٩ .
(٢) انظر جامع المسانيد ج١ ص١٧ ـ ١٨ .
(٣) جامع مسانيد الإمام الأعظم ج١ ص١٤١ .
(٤) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٣٦ .
(٥) جامع المسانيد ج١ ص١٦ .

ويجعل لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نصيباً في ذلك ، فبسندهم عن عبدالله بن مغفل قال : سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول : ألا أنبئكم برجل من كوفان ، من بلدتكم هذه ، أو من كوفتكم هذه ، يكنّى بأبي حنيفة قد مليء قلبه علماً وحكماً ، وسيهلك به قوم آخر الزمان ، الغالب عليهم التنابز ، يقال لهم البنانية كما هلكت الرافضة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما[١] .

وكذلك لابن عباس بنسدهم عن الضحاك عن ابن عباس قال : يطلع بعد النبي ﷺ بدر على جميع خراسان يكنّى بأبي حنيفة .

وإذا توصّل أنصاره إلى اشاعة ذلك ، غلب الهوى كل ميل للحق ، وتحكّم التعصب في القول ، وأغلقوا كلّ منفذ . قال خلف بن أيوب : صار العالم من الله تعالى إلى محمّد ﷺ ثم صار إلى أصحابه ، ثم صار إلى التابعين ، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه . فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليسخط[٢] .

ويرفعونه فوق منزلة الأنبياء؛ لأنّ عيسى إذا رجع يقلّده ويحكم بمذهبه ، وأنّ الخضر تعلّم أحكام الشريعة منه .

يقول قاضي زاده : إعلم أنّ المذهب لا يقلّده من الصحابة والتابعين إلّا أبو حنيفة ، فإنّ عيسى لمّا ينزل يحكم بمذهبه[٣] .

ولم يأبه المغالون بشيء ، فوصفوا إمامهم بصفات لا يمكن تصديقها في حدود إمكانات البشر ، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة في محل واحد ، وصلاته في كل ليلة ركعتين يختم القرآن في كل ركعة ، وصلاته الفجر بوضوء

---

(١) جامع المسانيد ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) الخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٣٣٦ .

(٣) جامع الرموز ج ١ ص ٢ .

العشاء أربعين سنة . وقد سوّى الغلوّ والتعصّب بين أبي حنيفة وبين آخرين اندفع أصحابهم في ادعاء العبادات لرجالهم على هذا النمط[١] .

ومهما بذل الباحث من جهد في تحليل الاعتماد على ما يمجّه الذوق وينبو عن العقل فلا يتجاوز الهياج العاطفي وغليان الهوى ، إذ تتصارع الانفعالات ويعمد إلى الإسفاف والابتعاد عن الحقيقة ، ومهما جهد المرء في مواجهة اضطراب المنفعل ، فلا يَلْقَ إلّا انفعالاً وزيادة في الاضطراب، تدفعه إلى الإغراق أكثر والإسفاف إلى أبعد مما في ذهنه ، وفي نهاية الأمر تصبح الإساءة عن طريق الهوى والغلو هي الحصيلة الدائمة .

قالوا : إنّ الله خَصّ أبا حنيفة بالشريعة والكرامة . ومن كرامته أنّ الخضر ﷺ كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلّم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين . فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه وقال : إلٰهي ، إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلّمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلّم شرع محمد ﷺ على الكمال . فأحياه الله ، وتعلّم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة . وبعد أن أكمل الخضر دراسته ، أمره الله أن يذهب إلى القشيري ويعلّمه ما تعلّم من أبي حنيفة . وصنّف القشيري ألف كتاب ، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون ، إلى رجوع المسيح ، فيحكم بتلك الكتب . لأنّه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد ﷺ فيتسلّم المسيح أمانة نهر جيحون ، وهي كتب القشيري[٢] .

وفي وفاة أبي حنيفة يذكرون بكاء الجنّ له ، ولهم أسانيدهم أنّ الجن بكت

---

(١) راجع في ذالك أبو حنيفة النعمان لوهبي سليمان ص٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) الإشاعة في أشراط الساعة ص ١٢٠ ، والياقوتة لابن الجوزي ص٤٥ .

أبا حنيفة ليلة مات ، وكانوا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص .

ذهب الفقه فلا فقه لكم  فاتقوا الله وكونوا خلفاً
مات نعمان فمن هذا الذي  يحيي الليل إذا ما سدفا[١]

أما الطائفة الثانية من معاصريه وغيرهم فقد رموه بالزندقة ، والخروج عن الجادّة ، ووصفوه بفساد العقيدة ، والخروج على نظام الدين ، أو مخالفة الكتاب والسنة . وطعنوا في دينه وجرّدوه من الإيمان[٢] .

وقالوا : اجتمع سفيان الثوري ، وشريك ، وحسن بن صالح ، وابن أبي ليلى فبعثوا إلى أبي حنيفة فقالوا : ما تقول في رجل قتل أباه ، ونكح أُمه ، وشرب الخمر في رأس أبيه ؟ فقال : مؤمن . فقال ابن أبي ليلى : لاقبلت لك شهادة أبداً . وقال له سفيان الثوري : لا كلمتك أبداً[٣] .

وحكي عن أبي يوسف ، قيل له : أكان أبو حنيفة مرجئاً ؟ قال : نعم . قيل : أين أنت منه ؟ قال : إنما كان أبو حنيفة مدرّساً ، فما كان من قوله حسناً قبلناه ، وما كان قبيحاً تركناه عليه[٤] .

وحدّث إبراهيم بن بشار ، عن سفيان بن عيينة أنه قال : ما رأيت أحداً أجرأ على الله من أبي حنيفة . وعنه أيضاً : كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه[٥] .

وعن الوليد بن مسلم قال : قال لي مالك بن أنس : أيُذكر أبو حنيفة في

---

(١) آكام المرجان للقاضي الشبلي ص١٤٦ .
(٢) انظر أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص٥ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص٣٧٤ .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص٣٧٤ .
(٥) الانتقاء لابن عبد البر ص١٤٨ .

بلادكم ؟ قلت : نعم . قال : لا ينبغي لبلادكم أن تُسكن[١] .

وعن الأوزاعي يقول : إنّنا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى ، كلنا يرى ، ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره[٢] .

قال ابن عبدالبر في الانتقاء : وممن طعن عليه وجرحه : محمد بن إسماعيل البخاري ، فقال في كتابه «الضعفاء والمتروكين» : أبو حنفية النعمان بن ثابت الكوفي ، قال نعيم بن حماد : حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ ، قالا : سمعنا سفيان الثوري يقول : استتيب أبو حنيفة من الكفر مرّتين . وقال نعيم الفزاري : كنت عند سفيان بن عيينة ، فجاء نعي أبي حنيفة ، فقال : كان يهدم الإسلام عروة عروة ، وما ولد في الإسلام مولود أشرّ منه . وقال ابن الجارود في كتابه «الضعفاء والمتروكين» : النعمان بن ثابت جلّ حديثه وهم[٣] .

وقد روي عن مالك أنّه قال في أبي حنيفة نحو ما ذكره سفيان : إنه شرّ مولود ولد في الإسلام ، وأنه لو خرج على هذه الأمّة بالسيف كان أهون . وروي عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب : بالعراق الداء العضال ؟ فقال مالك : أبو حنيفة . وروى ذلك كله أهل الحديث[٤] .

وعن وكيع بن الجرّاح أنه قال : وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ وقيل لابن المبارك : كان الناس يقولون إنك تذهب إلى قول أبي حنيفة ؟ قال : ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه ، كنا نأتيه زماناً ونحن

---

(١) ميزان الشعراني ج١ ص٥٩ .

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٦٣ .

(٣) الانتقاء ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٤) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٠٠ .

لا نعرفه ، فلما عرفناه تركناه[١] .

ولقد جمع ابن عبدالبر بعضاً من أقوال المادحين والطاعنين أخذنا منها ما تقدم وسواها كثير بإمكان القارئ الرجوع إليها في الانتقاء ، في مظانها الأخرى كالخطيب البغدادي الذي طعن علماء الحنفية فيما أورده ، ونسبوه إلى التعصب الأعمى ، وأجابوا عما ذكره ، وألفوا في تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب . على أن أعظم الأقوال تأثيراً ما ضمته مصنفات أصحاب الصحاح والسنن والتي تتخذ مستمسكاً وأصلاً يعملان في النفوس والأذهان ، فكان ما ذكره النسائي عن أبي حنيفة من أكبر ما يرفع في الحملة ضد أبي حنيفة حيث قال: وقال لنا أبو عبدالرحمن أحمد ابن شعيب : وأبو حنيفة ليس بالقوي في الحديث ، وهو كثير الغلط والخطأ على قلة روايته . ثم يصنّف أصحابه إلى ضعفاء وثقات[٢] فتضم هذه الأقوال إلى بعضها ، وتكون مادة للطاعنين .

وصفوة القول ، أنّ دراسة حياة أئمة المذاهب تقتضي التوقف كثيراً عن ركامات ما أنتجته العاطفة وما أفرزه التعصب . وكما أسلفنا فليس من سبل الحق وطرق الأمانة الاعتماد على ذلك ، إذ لا يجني أحد إلّا أموراً لا تمتّ إلى الحقيقة ، ولا صلة لها بالواقع . وهي تسيء أكثر مما تنفع ، وتضعف أكثر مما تعضد ، والطرفان في غنى عن ذلك لو أخلصوا في المأخذ ، واتّخذوا من خصائص الرجال ومكانات أئمة المذاهب مادة لا يتعدّونها إلى نزغات التعصب أو التحامل الفظّ . فمن محبٍ مغالٍ يفتح أبواب الخيال ويتخلّى عن

---

(١) الانتقاء لابن عبدالبر ص ١٥١ . والخيرات الحسان ص ٧٦.

(٢) كتاب الضعفاء والمتروكين ص ١٢٤ .

الواقع فيسمح لنفسه بإشراك الجن أو المخلوقات الأُخرى التي تتخذ وسيلة إلهية في سياق رسالة نبي أو إظهار معجزة لولي بدونها قد يلحق بالشريعة أذى وقد يصيب دين الله الضرر ، ومن متحامل ناقم يتخلى عن روابط العقيدة ويتناسى وشائج الدين ، فيخرج هدفه من حظيرة الإسلام ، أمّا المنامات فأمرها عجب؛ حيث لا يلتفت أحد من مستخدميها ـ مادح أو قادح ـ إلى سخف تعبيرها أو تدنّي تأليفها ، فظلّت مادة متيسرة لا تكلف ثمناً ، يتناولها ذوو الأغراض بيسر وسهولة ، ويتلقاها الواقعون تحت تأثير مروّجيها وباعثيها بثقة واستسلام ، وتصبح سلاحاً بيد العامة ، فتهيج على سطح المجتمع لغة المنامات وما يلحق بها من ادعاءات وكرامات .

أما المصنّفات التي تشتمل على المناقب ، فهي جمع لكل ما أشرنا إليه ، وأخذ بكل ما راج وكثر ، وهي كثيرة ، ومع كثرتها فهي لا تهدي السبيل ولا تنير الطريق ، إذ أنها ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ طوائف من الأخبار يسودها المبالغة ، ولا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق ، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة ، فأخبارها لا ترفض جملة ولا تؤخذ جملة ، إذ هي بلا شك فيها الحق والباطل ، وأخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص[١] .

لقد وجد بعض أتباع أبي حنيفة في حقيقة كونه فارسياً أمر غير مرضي فحاولوا وضع نسب عربي فقالوا : إن ثابت هو ابن طاووس بن هرمز ملك بني شيبان .

وقالوا أيضاً : إنه من الأنصار ، فهو النعمان بن ثابت بن زوطيا بن يحيى بن

---

(١) أبو حنيفة ص٧ .

رشاد الأنصاري .

أو أنه تيمي كوفي من رهط حمزة الزيات .

والمشهور من نسب أبي حنيفة أنه : النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه . ولد سنة (٨٠ هـ) وتوفي سنة (١٥٠ هـ) .

والذين توقفوا عن التلاعب بحقيقة النسب قالوا : بأنه من نسل أفريدون ـ ملوك العجم ـ ووضعوا لذلك حديثاً : لو كان العلم في الثريا لتناوله أبناء فارس ، أو قوم من أبناء فارس ، فخصّصوا عمومه في أبي حنيفة[1] .

وفي نهجنا هنا تجريد البحث عن حياة أبي حنيفة من زوائد فرضتها الميول والأغراض المتعددة ، فقد غلبت على أكثر كتّاب حياة أبي حنيفة من أتباعه عاطفة قوية ، وسيطر عليهم الاندفاع ، حتى أنّهم لم يترددوا في استخدام الأساطير والخرافات ، فهو إمام الأئمة ، وأعلم الأُمة ، وما من عالم من علماء الدنيا إلّا وهو تحت ختمه ، وما من فقيه إلّا وهو عيال عليه ، وأنّه نودي من زواية البيت الحرام : عرفت فأحسنت المعرفة ، وخدمت فأخلصت الخدمة ، غفرنا لك ولمن اتبعك ولمن كان على مذهبك إلى يوم القيامة[2] .

وقد كنّا هناك مضطرين إلى ذكر ما أوردوه من أحاديث عن النبي ﷺ ومناقشتها ، وعندما وضعناها في ميزان الاعتبار ، لم تحرّك كفة عن مستواها فضلاً عن ترجيحها ، لأنّ الدوافع واضحة والأغراض جليّة ، وهي ناجمة عن أوضاع سادت فيها الفرقة وتعرّضت شخصية أبي حنيفة إلى الانتقاد ، فنالوا منه ، ووصفوه بكل مكروه . وقد قطعت خطة تأسيس المذاهب شوطاً كبيراً

(١) جامع المسانيد ج١ ص١٥ ـ ١٩.

(٢) مفتاح السعادة ج٢ ص٨٢، ومقدمة المناقب للخوارزمي .

على الساحة . وأخذت ترسي دعائمها ، فتقتطع من أجزاء المجتمع وتسري في أحشائه ، وينشأ جيل وآخر على مثل هذه العلاقات . وعبر كل المراحل تختبئ أغراض الحكام وراء كل جانب من جوانب العداء والفرقة ، كما كانت أغراضهم وراء تصنيف الناس وتقسيم دينهم .

ولقد كانت الخصائص التي تجاهلها الكثيرون ولم يذكروها بحقائق أسمائها ودلالة وجودها في شخصية أبي حنيفة ومواقفه تمثّل مشكلة للمنصور الدوانيقي[1] الذي عرف بعدائه للعلويين ، وميل أبي حنيفة واتّصاله بهم معروف ، فتعارضت أغراض المنصور وأهدافه في إدناء أبي حنيفة ، وتوجيه الأنظار إليه ، ليقف بإزاء شخصية الإمام جعفر الصادق ، إذ قال له المنصور : يا أبا حنيفة إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد ، فهيّئ له من المسائل الشداد[2] . تعارضت هذه الأغراض مع خصائص أبي حنيفة وسلوكه ، حتى أنه عجز عن تحويله وإبعاده عن توجيه النقد اللاذع الذي كان شيئاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يطبّقه المنصور على أُصوله ، ولا يقوى على مواجهة أهله ، الذين قلّ عددهم ، وانزوت جموعهم تحت ضغط أفعال الحكّام وسياسة بني العباس . وهكذا ضاق المنصور بأبي حنيفة ، وقرر الخلاص منه ، وكان لا بدّ له من سبب ظاهري يأخذه به أمام الناس ، فعرض عليه قضاء بغداد ثانية ، ورفضه أبو حنيفة . ووصله بهدية أرسلها إليه ، فردّها عليه ، فحبسه وضيّق عليه ، وجعل يضربه كل يوم عشرة أسواط ، حتى ضرب عشرة ومائة سوط[3] .

---

(١) الدوانيقي أو أبو الدوانيق من الألقاب والكنى التي أطلقت على المنصور لشحه وبخله .

(٢) المناقب للموفق ج١ ص١٧٣ .

(٣) انظر : مقدمة «العالم والمتعلم» للقلمجي وعبدالوهاب الندوي، وتاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٨ ـ ٣٣٠ .

وإنّ الأفكار وليدة التجارب ، وللبيئة أثرها في توجيه سلوك الأفراد ، وقد كانت لأبي حنيفة تجارب كثيرة ، فقد ولد ونشأ في الكوفة ، وهي البلدة العربية التي عرفت بنزعتها الثورية واتّجاهها السياسي ضد الحكم الأُموي وميلها للعلويين ، وقد شبَّ أبو حنيفة في عهد الحجاج بن يوسف . فرأى قسوته واستبداده وسيرته السيئة وحكمه القاسي ، ومعاملته للناس بما لا يطيقونه من الأذى والعسف ، ومات الحجاج وعُمْر أبي حنيفة حينها خمسة عشر عاماً ، وشاهد ولاة الأُمويين يسيرون بالأُمة بالجور ، ويخالفون نظم الإسلام اتّباعاً لملوكهم وطبقاً لرغباتهم .

وأصبحت الكوفة قاعدة الثورة ضد الظلم الأُموي ، ومركزاً تتجمع فيه القوات الموالية للعلويين والعباسيين معاً . أضف إلى ما احتفظت به الكوفة من نشاط فكري وصراع عقائدي أورثها مشاكل كثيرة ، وأصبح مجتمعها مسرحاً للخلافات .

وفي عصر أبي حنيفة ، نشطت الدعوة العلوية لوجود كتلة شيعية قوية أثرت تأثيراً غالباً في الحركات الفكرية والسياسية ، ومع أنّ الدعوة للثورة كانت مشتركة بين العلويين والعباسيين ، فإنّ الدعاية العباسية كانت محدودة الأثر بالرغم من استغلال العباسيين لشعار الدعوة إلى آل محمّد ﷺ وإقامة تنظيماتهم على هامش المناداة بالرضا من آل محمد ﷺ . فتعاطف الناس معهم ودخلوا في صفوفهم وهم يظنّون بهم خيراً ، وأنّهم لا يختلفون عن الشيعة الذين كانوا يسعون بإخلاص إلى الانتصاف لآل بيت نبيّهم الأطهار الذين ينطبق عليهم لفظ آل محمد ﷺ ، وأنّ الخلافة من أُمور الدين ، وهم أحقّ الناس بالقيام بأمر رسالة جدّهم المصطفى ﷺ .

وعندما نزلت بالأُمة كارثة استشهاد سيد الشهداء الإمام أبي عبدالله

الحسين عليه السلام على أيدي يزيد؛ كابد الشيعة من نتائجها السياسية والنفسية أهوالاً وآلاماً دفعتهم إلى مواصلة الجهاد ضد الظلمة وتفجير الثورات ، وكانت السلطة بتجبرها وطغيانها لا تتورع عن سفك الدماء وإزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات ، والشيعة لا يكفّون عن التفاني وتقديم التضحيات . ولمّا قامت ثورة زيد بن علي ، شاع بين الناس من جديد تيار ثورة الإمام الحسين ، وانتشر بين صفوفهم نداء نهضة السبط الشهيد مرة أُخرى . فكان أبو حنيفة من المتحمّسين لثورة زيد الشهيد ، وقد مرّ بنا جانب من وجوه إنحيازه إلى جانبه ، وقد حثّ على الالتحاق بجيش إبراهيم ،كما أفتى بالخروج مع الثوار من أهل البيت بعد أن بايعه(١) .

وجاءت إليه امرأة فقالت له : إنّك أفتيت ابني بالخروج مع إبراهيم فخرج فقتل . فقال لها : ليتني كنت مكان ابنك(٢) .

وقال أبو إسحاق الفزاري : جئت إلى أبي حنيفة فقلت له : ما اتقيت الله ، أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبدالله حتى قتل؟!

فقال : قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله يوم بدر ، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة(٣) .

وغير ذلك من الإجابات والأقوال ـ كما ألمحنا إليه سابقاً ـ والتي تكشف إنحيازه للثورة ، وتعلّقه بقادتها إلى حدّ تتضح فيه ظروف إقامة أبي حنيفة في ظل المنصور الذي أقضت مضجعه تلك الثورة ، وبقي كأنه يتقلب على ألسنة النيران أو يبيت على حسك السعدان ، حتى اتسخت ثيابه ، وزرى مظهره ،

---

(١) عمدة الطالب ص٩٩ .

(٢) مراقد المعارف ج١ ص٩٧ ، وعمدة الطالب ص٩٩ .

(٣) المقاتل ج٢ ص٧١٢ .

وهو يتلظّى يطلب رؤوس أهل البيت ﷺ . وأبو حنيفة يكتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ويقول : إئتها سراً ، فإن من ها هنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به[١] . ويجهّزه بأربعة آلاف درهم لم يكن عنده غيرها[٢] ويقول له : فإذا لقيت القوم وظفرت بهم فافعل كما فعل أبوك في أهل صفين ، أقتل مدبرهم ، وأجهز على جريحهم . ولا تفعل كما فعل أبوك في أهل الجمل ، فإن القوم لهم فئة[٣] فلا يفرّق بين دولة معاوية وبين دولة المنصور ، مما يجعل تقدير خفاء وضعه على المنصور بعيداً . وهو الملك الذي عدّ من دهاة عصره ، وقد أخّر تنفيذ حكمه إلى حين الانتهاء من الأوضاع المعقدة والظروف الشائكة التي يسببها له أهل البيت ﷺ سواء بمكاناتهم الدينية أو سلطانهم الروحي أو حركاتهم الثورية وتصدّيهم لظلمه بحد السيف . ومهما يكن الاختلاف وكثرة الأقوال عن الأسباب التي دعت المنصور إلى الحقد عليه ، فمما لا شك فيه أن السبب الأساس الذي يعني السلطة هو صلة أبي حنيفة بالعلويين وميله إليهم . وقد مرّ بنا المزيد من ذلك بما لا زيادة عليه في رأينا[٤] .

ويبدو أنّ مدرسة أبي حنيفة ـ برغم وجوده حياً ـ كانت تتأثر بالسلطة ، يتلمذ الأصحاب على إمامهم في العلم والفقه ، وينفتحون على الحكّام والساسة في المواقف والسلوك . وقد رأينا مدى التحول في خط أبي يوسف . أما زفر بن الهذيل فيقول : كان أبو حنيفة يجهر في أمر إبراهيم جهراً شديداً ،

---

(١) المقاتل ج٢ ص٧١٢ .

(٢) عمدة الطالب ص٦٩٩ .

(٣) مرائد المعارف ج١ ص٩٧ ، والمقاتل ج٢ ص٧١٢، والعمدة ص٩٩ .

(٤) انظر ج١ من هذا الكتاب .

ويفتي الناس بالخروج معه . فقلت له : والله ما أنت بمنة عن هذا حتى نؤتى ، فتوضع في أعناقنا الحبال(١) .

وفي الجملة ، فإنّ موقف امتناعه عن تقلّد القضاء من أهم شواهد السلوك الذي تميز بها أبو حنيفة ، وهو يشتمل على دلالات لم تغب عن بال المنصور . لأن الرفض يفسد خطة المنصور السياسية التي وضعها لمواجهة نفوذ أهل البيت عليهم السلام ولذلك فإن فكرة المذاهب الرسمية أو السلطوية لم تلصق بأبي حنيفة ، إذ أعاقها رفضه وامتناعه ، وإنّما ترتبط بأعمدة مدرسته . كذلك فإنّ امتناع أبي حنيفة عن تولي القضاء يعني منع التعاون معهم وحجب التأييد عنهم ، وما يحمل ذلك على أنّه يرى عدم صحة إمامة المنصور فلا يجوز تولي القضاء لهم . وكيف لا يعتقد ذلك منه ، وقد تأثر بأساتذته من سادة أهل البيت عليهم السلام ؛ حيث حضر عند الإمام الباقر عليه السلام المتوفى (١١٤ هـ) وزيد الشهيد عليه السلام المتوفى سنة (١٢٢ هـ) والإمام الصادق عليه السلام المتوفى سنة (١٤٨ هـ) .

وحقيقة الأمر أنّ جلّ ما تشير إليه أخباره في هذا المقام يبين منه أنه كان قلبه مع العلويين في خروجهم أولاً على الأُمويين ، ثم في خروجهم ثانياً على العباسيين ، وكان لا يرى لبني أُمية على أيّ حال حقاً ولا سلطاناً من الشرع أو الدين ، ولكنه لا يحمل السيف ، ولا يثور ، لاعتبارات لها مقامها(٢) .

ويبدو أنّ ذلك كان مشهوراً منه منذ عهد الأُمويين ، فتوحدت وسيلة الإيقاع به من قبل النظامين ، واتّخذ القضاء محكّاً؛ لأنّه منصب ديني وسلطة تشريعية تسند إلى من يتميّز بالعلم والمكانة الدينية ، فضلاً عن أن توليها

---

(١) المقاتل ج٢ ص٧١٢.

(٢) أبو حنيفة لأبي زهرة ص٣١.

يعني التحاق صاحبها بالملوك والحكّام ، وقد ألمحنا إلى محنته مع أبي هبيرة والي الأمويين حتى لتكاد تتساوى العقوبة كأنّها تصدر عن والٍ واحد ، وليس ذلك بغريب لأنّ التهمة واحدة . يروي الحسن بن زياد ـ صاحب أبي حنيفة ـ عن أبي حنيفة قال : كان بنو أُمية يطلبون الفقهاء للإفتاء ، فدعاني واحد منهم وكان أوّل ما دعيت ، وعن يمينه وشماله ابن أبي ليلى وابن شبرمة ، فقال لأحدهما : ما تقول في امرأة زوّجت نفسها في عدّتها ؟ قال : تفرق وتضرب ضرب النكال ، والمهر في بيت المال . وقال الآخر مثل ذلك . فقال : يا نعمان ، ما تقول أنت ؟ فاسترجعت وقلت : هذا أوّل ما دعيت ، كيف لا أقول ما أُدين به ، وقولي فيها قول علي ﷺ ، وبنو أُمية لا يذكر عندهم علي ولا يفتون برأيه ، فقلت : أصلحك الله ، اختلف فيها بدريّان من أصحابه ﷺ فقال عمر ﷺ بما قالا ، وقال الآخر تفرق ، وتتم عدة الأوّل وعليها عدة مستأنفة من الثاني إذ دخل بها ، وعليه المهر بما استحل من فرجها ، ولا يجعل في بيت المال . قال : من قال هذا ؟ قلت : علي بن أبي طالب ﷺ . قالوا : أبو تراب؟ قلت نعم . فنكس رأسه وقال لأشبه القولين بالحديث ... اهـ . وفي أُخرى زيادة قال (ابن هبيرة) بأي القولين تأخذ أنت ؟ قال : قلت : عمر عندي أفضل من علي ، لكن برأي علي آخذ[١] .

وجلي أنّ أبا حنيفة إضافة إلى ما صرح به من خشيته جانب الحاكم الأموي ، وتدرّجه في الإجابة الحذرة ، فإنما بادر إلى تقديم ذكر الأفضلية لتهدئة نفس الحاكم ، ومن ثم التحوّل إلى الرأي . حكى أنّ الكردري يعقبه بالقول : وإنما ذكر حديث الأفضلية ـ وإن لم يكن له دخل في المقصود ـ لئلا

---

(١) المناقب للكردري ج ١ ص ١٧٢.

يتهم بالرفض أو الاعتزال ، وكان بنو أمية لا يذكر عندهم عليّ ، وكل من ذكره عندهم عاقبوه . وكانت العلامة فيه أن يقولوا : قال الشيخ كذا ، وكان الحسن البصري إذا ذكره قال : قال أبو زينب كذا[١] .

ومن المعروف عن رأي أبي حنيفة أنه : ما قاتل أحد علياً ، إلّا وعليّ أولى بالحق منه . عن الحسين بن زياد قال : سمعت أبا حنيفة يقول : لا شك أن أمير المؤمنين علياً إنما قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه . وفي رواية أنه قال: وهو ـ الإمام علي ـ علّم المسلمين السنّة في قتال أهل البغي[٢] .

كما أنّه كان يروي عن أسانيده ، ويبدو لعلّة ولا تعدو الحكّام والإشفاق منهم ، وكأنه يهرب من بلائهم ، فيروي عن حمّاد قال : قال إبراهيم : عليّ أحبّ إلينا من عثمان[٣] ومعلوم علاقة حمّاد وإبراهيم ودورهما في تكوين مكانة أبي حنيفة والصلة التي تجمعهم .

وقد حضر أبو حنيفة عند علماء الشيعة ، وأخذ عنهم العلم ، وروى أحاديثهم ، نذكر منهم ـ على سبيل الإشارة لا الاستقصاء ـ:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي المتوفى سنة (١٢٨ هـ ).

حبيب بن أبي ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة (١١٩ هـ ).

فحول بن راشد ، أبو راشد النهدي المتوفى (١٤١ هـ ).

عطية بن سعد العوفي المتوفى سنة (١١١ هـ ).

أجلح الكندي ، وقيل اسمه يحيى بن عبدالله ، ولقبه الأجلح المتوفى سنة (١٤٥ هـ ).

---

(١) المناقب للكردري ج١ ص١٧٣.

(٢) المناقب للموفق ج٢ ص٨٤.

(٣) المصدر السابق.

إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة المتوفى سنة (١٢٧ هـ).

المنهال بن عمرو الكوفي التابعي .

عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي المتوفى سنة (١١٩ هـ).

زبيد بن الحارث الأيامي المتوفى سنة (١٢٢ هـ).

وغيرهم من رجال الحديث ، وقد خرّج أحاديثهم كبار المحدّثين ، وضمّت كتب الرجال تراجمهم وأسماء من حضر عندهم من العلماء[١] .

## وفاته

توفي أبو حنيفة سنة (١٥٠ هـ) ببغداد ، ودفن بالجانب الشرقي بمقبرة الخيزارن ، وفيها قبر محمد بن إسحاق صاحب السيرة ـ وكانت قبلاً مقبرة للمجوس تسمى أيضاً الحضرية ـ[٢] .

وفي سبب وفاته ثلاث روايات :

**الأولى** : أنّ أبا حنيفة بقي في السجن مضيقاً عليه إلى أن وافته المنية .

**والثانية** : أنّ المنصور أخرجه من السجن ، وفرض عليه الإقامة الجبرية في المدينة ، ومنعه من الاتصال بالناس إلى أن توفّي .

والثالثة : أنّ المنصور دسّ له السم[٣] .

وجميعها تدين الحكّام بموته؛ لأنّ ذنبه في نظر المنصور لا يغتفر .

---

(١) انظر الخلاصة للخزرجي ، وميزان للذهبي ، ولسان الميزان لابن حجر ، وهداية الباري لشرح صحيح البخاري وغيرها .

(٢) تاريخ جامع الإمام الأعظم للشيخ هاشم الأعظمي ص٢١ .

(٣) المناقب للموفق ج٢ ص١٨٥ .

## أولاده وأحفاده

لم يكن لأبي حنيفة عقب مشهور أو ذرية واسعة . أما الشهرة بكنيته ـ أبي حنيفة ـ فليست قائمة على اسم لبنت له ، فليس له بنت تسمّى حنيفة ، وإنّما كنّي بأبي حنيفة لملازمته لدواة على هيئة خاصة وتعرف بحنيفة ، فهو دائماً يستصحب تلك الدواة ذات الشكل المستطيل الذي يجلب انتباه الناظر إليه .

ولم نعثر على ولد له غير حمّاد .

وكان حمّاد قد تفقه على يد أبيه ، وولّي قضاء الكوفة بعد القاسم بن معين تلميذ أبي حنيفة .

قال الذهبي : حمّاد بن أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ضعّفه ابن عدي وغيره من قبل حفظه ، وتوفي سنة ست وسبعين ومائة .

وكان لحمّاد بن أبي حنيفة ولد يسمى إسماعيل ، وروى عن أبيه عن جده أبي حنيفة .

قال ابن عدي : ثلاثتهم ضعفاء .

وقد ولّي قضاء الرصافة وقضاء البصرة ، وكان عارفاً بالقضاء ، ومات سنة (٢١٢ هـ) وهو شاب وقد تفقه على يد أبي يوسف . ولم نعثر على شيء له يعتبر[١] .

## قبـره

أمّا قبره فكان أول رواق بني عليه سنة (٣٧٩ هـ) ويروى أنه في سنة ست

(١) تاريخ بغداد ج٦ ص٢٤٣.

وثلاثين وأربعمائة وضع أساس مسجد بالكلس والنورة في موضع ضريحه ، وكان المنفق عليه تركي قدم حاجاً .

ويذكر ابن خلكان أن شرف الدين الملك أبا سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي بنى على قبر أبي حنيفة مشهداً أو قبة نيابة عن الملوك السلاجقة ، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، ولما فرغ من عمارة ذلك؛ ركب إليها في جماعة من الأعيان ليشاهدوها[١] .

ويقول ابن الجوزي : وإنّ حنفياً متعصباً . وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، فهدم جميع الأبنية التي في المسجد وما يحيط بالقبر وبنى القبة ، وقد جاء بالقطّاعين والمهندسين ، وقدّر لها ألوفاً ، وابتاع دوراً من جوار القبر ، وحفر أساس القبة ، وكانوا يطلبون الأرض الصلبة ، فلم يبلغوا إليها إلّا بعد حفر سبعة عشر ذارعاً ، في ستة عشر ذراعاً فخرج من الحفرة عظام الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان[٢] .

وقد تكوّنت حوله محلّة عرفت بمحلة أبي حنيفة ، واسم الأعظمية حادث . وعني الأتراك عناية فائقة بالقبر وصاحبه ، وبذلوا جهداً كبيراً في إعلاء شأن المذهب . فلما احتل السلطان سليمان القانوني بغداد سنة إحدى وأربعين وتسعمائة هجرية أقام مسجد الإمام الأعظم ومشهده ، وباشر بإصلاح ما تهدّم من قبره أيام الفرس ، وبنى عليه قبة ومدرسة ، وعمّر في أطرافها قلعة واتخذها جامعاً ودار ضيافة وحمّاماً وخاناً ، وعيّن للقلعة محافظاً

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٤٦ .

(٢) انظر المنتظم ج٨ ص٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

وجند لحراستها مائة وخمسين ، ووضع فيها معدّات كافية . كما بنى مسنّاة في الأعظمية لحفظها من الفيضان .

وإضافة إلى قيام الأتراك بتشييد مرقد أبي حنيفة واهتمامهم بأمره؛ فقد أعلنوا اتخاذ مذهبه مذهباً رسمياً ، وأصبحوا يُرجعون الناس إليه ، ويُلزمون الأُمة باتباعه ، حتى وازى وجود المذهب ومناطق انتشاره حدود ونفوذ العثمانيين ومناطق احتلالهم ، وسبب ذلك أنهم وجدوا في عدم اشتراط القرشية في الخلافة عند أبي حنيفة مقوّماً لاستيلائهم وتحكّمهم برقاب المسلمين ، فاحتل أبو حنيفة المكانة السامية في نفوس العثمانيين ، وتعلّقت به أفئدة العائلة الحاكمة . فنجد أُم السلطان عبدالعزيز السيدة الصالحة تنذر في مرضها إن شفاها الله عزّ وجلّ لتشيدنّ مسجد الإمام الأعظم مجدداً[1] .

كما كان الحنفية أنصاراً للأتراك وأتباعاً للباب العالي ، ففي مصر وجد منهم نصيراً قوياً أطلق يده في حكم وادي النيل وفي تقرير مصيره ، وكان من نتيجة تفضيل السلطات الرسمية لأتباع المذهب الحنفي، أن تحوّل إليه كثير من أتباع المذاهب الأخرى[2] .

## أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ)

ونعاود الحديث عن أحمد بن حنبل ، وقد رأينا بحث بعض جوانب شخصيته في هذا الجزء لتقدم الإشارة إليه في بدء الجزء السابع ، ونرجو أن لا يعدّ ذلك خروجاً على قواعد الأفضلية أو الرتبة الزمنية ، فإنا لا نراها كانت في

---

(١) انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم ص١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية «مادة الأزهر» ج٢ ص٥٨ ـ ٦١ .

يوم مناط إجماع أو إلزام في غيره أو في شخصه .كما إن تقديمه لا يعني خلاف ذلك .

ونتبع منهجنا التحليلي في نهاية البحث لنكمل ما سلف من إشارة عنه وعن الحنابلة ، ونبدأ ببعض المعلومات والصور عنه .

وقد مر بنا شيء من هياج الحنابلة الذين تجاوزوا القصد وألحقوا بالمسلمين الآخرين البلاء ، ونرغب عن الخوض في عوامل اتخاذ العامة للحنبلية شعاراً يوحي بالعناد والتزمت والأذى . ونعمل على سوق الأحداث والاتجاه إلى دراسة شخصية الإمام أحمد في عناصرها الأساسية ، ولا نفيض في البحث بأكثر مما يقتضيه الغرض .

وأحمد بن حنبل في مكانته وشهرته ، هو نتاج مشكلة «خلق القرآن» وهي المشكلة التي اتخذها المأمون وسيلة لإقامة سلطانه حسب ميوله الفكرية وتكوينه المتأثر بروح العصر؛ ليواجه ما توارثته العقول واستقر في الأذهان على أنماط الحكّام وطرق الموجهين ولكن بأساليب قمعية،كان ضحيتها الفكر وروح التحرر قبل أن يضحّى بسببها بأي شيء آخر . ولأنّ الإمام أحمد كان رجل المحنة ، وتعرّض إلى الأذى الجسدي والنفسي ، وتجرّع آلام السجن ؛ اتصلت به عواطف الناس وتعلّقت به مشاعرهم ، بعد أن وجدوا أنفسهم معرّضين إلى السخط ، وقد اضطرب كيانهم ، واهتزّت شبكة معتقداتهم التي وجدوا عليها آباءهم وألفوها عبر عشرات السنين مُتعارفاً عليها بين أوساط الحكّام والخطباء والمتنفذين .

وبدءاً نقول : إنّ نتائج المحنة تركت آثاراً قوية لفّت كل جوانب حياة أحمد ابن حنبل ، وأدت في كثير من الأحيان إلى الغموض أو التعارض ليتحاشى ما يشبه الهاجس في الداخل .

ولنرافق أحمد بن حنبل في ترجمته فهو : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ، كان جده حنبل والياً من قبل الأُمويين على سرخس ، ويقال : إنه دخل بعد ذلك في سلك الدعوة العباسية ، فكان من دعاتها المبرّزين ، وبذلك فإن الإمام أحمد ينسب إلى جده حنبل ، وقد يكون ذلك لوفاة أبيه ونشوئه في ظلّ جده أو عمه .

وقد وقع الاختلاف في موت محمد والد أحمد ، هل مات في مرو ، أو أنه نزح إلى بغداد مع زوجته والدة أحمد وهي : صفية بنت عبدالملك بن سوادة ابن هند الشيباني؟ ونقل عن أحمد ما يؤيد القول الأوّل ، وأنّه قال : قدم أبي من خراسان وأنا حمل ، وولدت هٰهنا ـ ببغداد ـ ولم أرَ جدّي ولا أبي ، ولا تزوجت إلّا بعد الأربعين[1] .

نشأ أحمد في بغداد ، واتجه لطلب العلم ، وحضر عند علمائها . وله رحلات متعددة ، واتصل بالشافعي محمد بن إدريس ، وحضر عنده كما حضر عند أبي يوسف ، فكتب فقه أهل الرأي[2] .

وروي عنه أنه قال : أوّل ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي ، ثم طلبنا بعده فكتبنا عن الناس . ثم قال : أوّل من كتبت عنه الحديث أبو يوسف ، وأنا لا أُحدّث عنه[3] .

وذلك أنّه رأى أباحنيفة وأتباعه يقدّمون الرأي[4] وأقبل أحمد على الحديث حتى عُدّ من المحدّثين لا الفقهاء ، وهذا ما أثار غضب الحنابلة على

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٦٣ .

(٢) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ص٣٨ .

(٣) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص٣٦ .

(٤) المصدر السابق .

الطبري وغيره من الذين قالوا بهذا الرأي .

وقد مر الحديث عن حياة الإمام أحمد منذ نشأته ، ورافقناه في محنته ، تلك المحنة التي هبّت عواصفها السياسية والعقائدية ، فأحدثت انقساماً في صفوف المسلمين ، وذلك عندما أعلن المأمون سنة (٢١٨ هـ) وجوب الاعتقاد بخلق القرآن ، وأنه حادث غير قديم كما يراه المعتزلة وغيرهم ، وقد فرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة ، وعقد مجلساً للامتحان كما اختار جماعة من الجلّادين الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط .

وقد امتحن جماعة من العلماء ، فامتنع بعض وأقرّ آخرون .

وقد أوجدت هذه المحنة مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة في علم الكلام ، وبيان المراد من الكلام النفساني وتعلّقه بالذات ، وقد تناولتها الأقلام قديماً وحديثاً ، وربما وقع وهم من بعض من تعرّض لهذه المسألة تاريخياً فسار وراء ظواهر الأقوال ، وعبّر عن الخلق بالمعنى اللغوي وهو الكذب ، فيقال إنه مخلوق أي مكذوب .

وكان الخليل بن أحمد يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق ، ويقول : إنّ الكلام متى أطلق عليه الخلق فالقصد الكذب ، ولهذا يقال : كلام خلقه فلان أي تقوّلهُ . وكان ذلك من رأي الشيعة كما تقدم في أوّل الكتاب[1] .

وقد ورد في كثير من أقوال العرب : اختلق كذا أي كَذَبَ فيه . وسئل بعض الفقهاء في المحنة فقال : أصفه بأنه محدث ، ولا أقول إنه مخلوق لقوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[2] فمعنى أنّه مخلوق وهو غير منزل؛ وبهذا

---

(١) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص٣١.

(٢) الأنبياء : ٢.

أخذ العوام في إثارة البغضاء وإيقاد نار الفتنة ونشر الدعاية ضد المعتزلة بأنهم يذهبون إلى خلق القرآن أي إلى عدم كونه منزلاً من الله تعالى ، واتّسعت شقة الخلاف ، وحدث في صفوف الأُمة الانقسام . وكان الإمام أحمد قد امتحن وثبت ، فاجتاز المحنة عندما اعتلى الحكم المتوكل العباسي ، فكان انتصاراً لأحمد ولمن اتصل به ، وبخروجه باتت المحنة تشمل العامة فاحتفلت بالانتصار بعواطف هياجة ونقمة عارمة طافت على سطحها وركبت موجها وجوه تضرّرت مصالحها وتضاءلت مكانتها ، فاندفعت بكل ما أوتيت من قدرات إلى تمجيد المتوكل وتعظيمه ، واتبعهم على ذلك بإخلاص أخلافهم .

قال ابن الجوزي : أطفأ المتوكل نيران البدعة ، وأوقد مصابيح السنّة ، وقد قال من سبقوه : الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة حتى استجابوا له ، وعمر بن العزيز ردّ مظالم بني أُمية ، والمتوكل محا البدع وأظهر السُنّة[١] . كما خلقوا له مناقب وأطيافاً ، ورفعوا شعار العدالة باسمه وهو أظلم خليفة من بني العباس ، فأسدلوا على ظلمه ستار المدح الزائف ، وجعلوا سيئاته حسنات ، وأخذ القصّاصون بنشر الأطياف بحقه حياً وميتاً .

أما الإمام أحمد ، فإنه أصبح إمام السنّة وبطل الإسلام ، وأنه ما قام أحد بأمر الإسلام كما قام به أحمد .

وقالوا : أحمد بن حنبل إمام ، ومن لا يرضى بإمامته فهو مبتدع ضال[٢] .

وقالوا : أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين ، وبه نحيا ونموت ، وبه نبعث . فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين[٣] .

---

(١) مناقب أحمد بن حنبل «لابن الجوزي» : ص٣٥٦.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٥.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٦.

وجعلوا بغضه كفراً ، وحبّه من السنّة .

وقالوا : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل ، فأعلم أنه صاحب سنة وجماعة[١] .

وأسندوا إلى الشافعي أنّه قال : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر . فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال : نعم ، من أبغض أحمد بن حنبل قَصَد الصحابة ، ومن قَصَدَ الصحابة أبغض النبي ، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم[٢] . فيكون الناتج من هذه القضية ، أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر بالله العظيم . وهذا غريب من الشافعي ، إذ يعتمد على نتيجة مقدمة كاذبة .

* * *

وقد رأينا فيما تقدم من بيان الإغراق في المدح من قبل أتباع أئمة المذاهب ما خرجوا به عن طريق المعقول وتجاوزوا فيه حدود المنطق . على أنّ جولة الحنابلة في عصر التطاحن المذهبي ، خلقت كثيراً من الأمور المناقضة للحقيقة والمخالفة لما يقتضيه واقع الإمام أحمد وسيرته ، فقد اندفعوا بصورة واسعة إلى خلق مشاكل في المجتمع ، وأرهبوا الناس ، واضطرب حبل الأمن من جزاء نشاطاتهم حول نشر مذهبهم مما لا ربط له بإمامهم .

وفي عصر المتوكل كان نشاطهم سياسياً أكثر من أن يكون عقائدياً ، وقد شدّ المتوكل أزرهم ، وأخبر المتوكل بعد موت أحمد أنّ الحنابلة يكون بينهم وبين أهل البدع ـ وهم غيرهم من الطوائف ـ الشر ، فقال لصاحب الخبر : لا

---

(١) الجرح والتعديل ج١ ص٣٠٨.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣ .

ترفع إليّ من أخبارهم ، وشدّ على أيديهم فإنّهم وصاحبهم من سادة أُمة محمد(١) .

واستغل الحنابلة هذه الفرصة ، فراحوا في ذلك الود يتنفّسون حرية الكلام وحرية الانتقام من خصومهم أيام المحنة ، فلم يسلكوا طريقة أحمد في حياته في الصفح والتجاوز؛ لأنّهم خضعوا لأُناس آخرين كان نفعهم في الأذى ومصلحتهم في الأضرار ، ومنه من رأى في التحول على يد المتوكل والعودة إلى ما كان عليه الأمر قبل المأمون فرصة تسمح لهم بأن يفعلوا بالآخرين ما فعله المأمون ، وهكذا تنتهي محنة لتبدأ أُخرى .

وقد أخذ المتوكل بإضفاء الطابع الحنبلي على حكمه من خلال قوله وإذاعته المسائل التي يتميز بها أحمد ، فقسّم الجوائز على فقهاء ومحدّثين ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأشخصهم ، وكان فيهم مصعب الزبيري ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإبراهيم بن عبدالله الهروي ، وعبدالله وعثمان ابنا أبي شيبة . وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ، وأن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية ، وأن يحدّثوا في الرؤية(٢) . وهي الأُمور التي اشتغل بها أحمد ، وأثرت عنه رسالة اشتملت على آرائه ومعتقداته في البدعة والسنّة والرؤية وإجابات ضمّنها أقواله ، أشرنا إليها فيما مضى .

ويبدو أنّ المتوكل أراد أن يستكمل خطته في تبنّي المذهب الحنبلي ، فعزم على استقدام أحمد بن حنبل إلى مقرّ ملكه في سامراء . وهي وإن لم تكن على طريقة أسلافه ، لأنّ عمله وميله إلى أحمد بن حنبل تتداخل فيه

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٣ .

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٣٥٧ .

عوامل كثيرة ، هي مزيج من مشاعر وأهواء وأغراض . إلّا أنّ أحمد نفسه كان غير مستعد لمثل هذا العمل ، فهو يتردّد أو يحذر من مخالفة الحكام لسبب لا يتفق مع الأسباب التي يدعو إليها أصحاب مبدأ مقاطعة سلطان الظلمة ، إذ هو يدعو إلى إطاعة «الإمام» البر والفاجر مما يجعله بعيداً عن أصحاب الدعوة إلى الثورة على الظلمة ، ويحصر القضية في أُمور هي من أكبر عوامل الظلم والجور ، ولكنّه لا يُقرّ بها أسباباً للثورة أو الخروج على حكم المتسلطين .

كان إسحاق بن إبراهيم من كبار رجال الدعوة العباسية ، فأمره المتوكل بإشخاص أحمد بن حنبل من بغداد إلى سامراء بعد انتهاء المحنة ، فأخبره إسحاق بذلك ، ثم قال لأحمد : أسألك عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان ، وليكن ذلك عندك مستوراً ، ما تقول في القرآن ؟ قال أحمد : القرآن كلام الله غير مخلوق .

قال إسحاق : من أين قلت غير مخلوق ؟

فأجاب أحمد : إن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾(١) ففرّق بين الخلق والأمر .

فقال : الأمر مخلوق ؟

فقال أحمد : يا سبحان الله ، أمخلوق يخلق مخلوقاً؟!

قال إسحاق : وعمن تحكي أنه غير مخلوق ؟

قال أحمد : جعفر بن محمد الصادق : قال ليس بخالق ولا مخلوق . فسكت إسحاق(٢) .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) ابن الجوزي ، مناقب أحمد ص٣٥٩ .

وهذا يدلنا على شدة التكتم في المسألة ، وعدم الخوض في شيء من ذلك؛ لأنه يؤدي إلى مخالفة رأي السلطة . وهذا الرجل أي إسحاق هو من رجال الدولة يسأل مسترشداً أو يطلب ستر ذلك ، لأنّ إظهاره يجرّه إلى نكال المؤاخذة .

ومهما يكن من أمر ، فقد سكت إسحاق مقتنعاً بظاهر القول ودلالة اللفظ . والغرض أنّ المسألة هي من المسائل العلمية الهامة ، وهي على جانب كبير من الخطر ، فلم يكن هناك مجال لعرض الآراء واستماع الحجج وإقامة البرهان من كلا الطرفين ، وبهذا أصبح الأمر فوضى ، فقد استساغ المعتزلة حمل خصومهم على الاعتقاد بالقوة؛ ولهذا باءت سياستهم بالخيبة والخذلان ، وانتصرت عليهم قوى العامة التي آثرت التمسك بالسنن والآثار ، وترك الخوض في علم الكلام ، وتحكيم العقل . وقامت هناك عاطفة دينية تدعو إلى صيانة كتاب الله عن الطعن فيه ، أو عدم نزوله .كما حرّفوا مدلول المسألة .

وفي مواجهة المشكلة ،كان أحمد يرى أنّ الخوض في قضية خلق القرآن لم تكن مطروقة وليست من السنة ، حتى أنّه كان يطالب مناظريه بشيء من السنة فيما يدعونه إليه . ولا ننكر أنّ دافع الحرص على قدسية النص كان وراء موقف أحمد وإجاباته ، غير أنّ الإمام أحمد بالغ في انتهاج النصيّة والاعتماد على السلف إلى حدّ ألغى فيه فرص التحاور وإمكانية المناظرة ، وأدّى به اصراره إلى تحاشي الرأي كلياً ، حتى لكأنه حاول أن يجعل نفسه بعيداً عن الأحداث ولا يقرّ بتحولات الظروف وتطورات الوقائع التي وضع الاجتهاد لمعالجتها وهدي الأمة بالاستنباط من الأصول ، وإرشادها باستخراج الأحكام من النصوص ، حتى يجد المسلمون في كتاب الله وسنّة نبيّه مصدراً يسع كل ما يجدّ من أحداث ، وينطوي على كل ما يقع من الوقائع .

لقد غلب على الإمام أحمد التقيّد بالنص والاتّباع والتقليد ، ولم يَدَعْ مجالاً للرأي ، وكان يتحرّى المسائل على ما سمعه وروي له ، ويحذّر من إجالة الرأي أو التقدير ، ولا يجيب إلّا في مسألة وقعت . فإن كان احتمالاً أو توقّعاً امتنع ، ولا يحفل إن كان ذلك على اشتباه الوقائع القريبة ، أو بعيداً عنها .

وعلى يديه وضعت مبادئ ما عرف عن ابن تيمية وابن قيّم الجوزية من تعنّت وتزمّت . ويثير قولنا هذا ـ السلفية والوهابية ـ ولا شك ، لأنّهم أخذوا ما رآه الإمام أحمد وقاية وتحصناً . وجعلوه أساساً لمنطقهم القائم على الإفهام بالابتداع ، واستسهال إطلاق الكفر على غيرهم ، فيما تركوا الكثير من أقوال الإمام أحمد التي تأتي مرادفة للنصوص التي احتوت أُصول أفكارهم ، منها : أنّ الرجل لا يخرجه من الإسلام إلّا الشرك العظيم ، أو ردّ فريضة جاحداً لها فيما أخذوا معتمداً لهم وأصلاً قوله : فمن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، ومن لم يكفره فهو كافر[1] فاستسهلوا تكفير غيرهم . ومنهجه في غلق أبواب النقاش توقّياً وحذراً بقوله : ولا يقال لِمَ ولا كيف[2] . لأنّ الأُمور التي تبحث العقول عن حقيقتها في ظل ظروف المحنة يراها ليست من السنن ، والكلام فيها مكروه ، بل منهي عنه : لا يكون صاحبه ـ وإن أصاب بكلامه السنّة ـ من أهل السنة حتى يدع الجدال ويسلم ويؤمن بالآثار فجعلوا ذلك مسوّغاً لجمودهم وانغلاقهم .

وخلاصة القول : أنّه تمسّك بالأثر دون تمحيص ، واعتمد على السلف ، وحكم بأن من يخالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها :

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) طبقات الحنابلة ج٢ ص١٩.

فهو مبتدع خارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة . واتّجه هذا الاتجاه في حياته ، وأخذ به ، فتمسك بحرفية النص وظاهره ، ولا يسمح لنفسه تخريج أو تفسير أو جدل ينمّ عن تصدٍ للاجتهاد ، أو تـصدّر للإفـتاء ، ولا يـتعدّى الأخذ بالأثر والجمود على النصوص والعمل بظاهرها . وقد نسب إليه ذلك في شعر وهو قوله :

يـا طـالب العـلم صـارم كـل بـطّال — وكـــلّ غـــادٍ إلى الأهـــواء مـــيّال
واعــمل بــعلمك ســرّاً أو عــلانية — ينفعك يوماً عـلى حـال مـن الحـال
ولا تـــميلنّ يـــا هـــذا إلى بـــدعٍ — تــضلّ أصــحابها بــالقيل والقــال
خـذ مـا أتـاك بـه مـا جـاء مـن أثـرٍ — شـــبهاً بشـــبه وأمـــثالاً بأمـــثال
ألا فكــــن أثـــرياً خـــالصاً فـــهماً — تــعش حــميداً ودع آراء ضــلاّل[1]

وقد اتّجه إلى الحديث ، فروي أنه كان يحفظ ألف ألف حديث ، ويأخذ بالضعيف منها ويعلم به إذا لم يكن ما يعارضه ، وأصبحت له خبرة بالحديث ، وسعة اطلاع جعلت له منزلة بين المحدثين . وإذا صحّ ما كان يـحفظه ، فـإنّا نميل إلى أنّ تكوينه النفسي قد طغت عليه ملكة الحفظ ، وآنس فـي نـفسه قوتها دون غيرها، وساعدت على ذلك اعتبارات الفترة ونتائج المحنة؛ ولذلك لم يكن له في حياته مدرسة فقهية ، حتى أنّ ابن عبد البر لم يجعله مع مالك والشافعي وأبي حنيفة في كتابه «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» وأن عنوان الكتاب ينطوي على هذا القصد ، ولا بد أنّ المالكية عـلى هـذا الرأي جميعهم ، فإن القاضي عياض قال عنه : إنّه دون الإمامة في الفـقه ، وجـودة

---

(١) انظر ما نسب إليه من الشعر في المنهج، في تراجم الإمام أحمد : ج١ ، ص٩٣ ـ ٩٤.

النظر في مأخذه[١] .

وقد مرّ بنا ماذا فعل الحنابلة بابن جرير الطبري ، فهو لم يعدّ مذهبه في الخلاف بين الفقهاء وقال : إنما هو رجل حديث . وعلى هذا الرأي غيره من الشافعية .

ومنْ تَتبّع سيرة الإمام أحمد ، يترجّح لدينا أنه لم يقصد إلى تأسيس مذهب خاص به ، ولم يستجب إلى إغراءات السلطان . ولكن تلامذته قد أفرغوا تعاليمه وأقواله بعد موته في قوالب محدودة هي قواعد ومبادئ لفقه ينسب إلى الإمام أحمد ، فتألفت جماعة فقهية كان رجالها أصحابه من ذوي الإحاطة ، فكان نشوء المذهب الحنبلي .كما أنّ المسند كان من جمع ابنه وأصحابه . ويعتقد أحمد أن منحاه في التقيّد بالحرفية والظاهر هو المنهج الأقوم والطريقة المثلى ، ويردّ بها على اتجاهات الرأي وتيارات الجدل . ووضع بذلك المنحى مسوّغاً للاحتماء بالتقليد ، ومبرراً للاتهام بالمروق . ولو قابل الاتجاهات والمدارس الفكرية التي نجمت عنها المسائل التي كره الخوض فيها وأنكر شيوعها ، وأدّت به إلى المحنة بطرق مماثلة تقابل الحجة بالحجة ، وتعتمد الاستدلال والمنطق ؛ لما استغلت أقواله ذلك الاستغلال الذي أطلق العامة من عقالها ، فراحت تعرّض أمن الناس للخطر ، وتنزل بهم الويلات ، وتصف الناس بالكفر .

يقول الإمام أحمد : الدين إنما هو كتاب الله عزّ وجلّ ، وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة ، يصدّق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعي

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ص٧.

التابعين ، ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم ، المتمسّكين بالسنة والمتعلّقين بالآثار ، لا يعرفون بدعة ، ولا يطعن فيهم بكذب ، ولا يرمون بخلاف ، وليسوا بأصحاب قياس ولا رأي ، لأنّ القياس في الدين باطل ، والرأي مثله وأبطل منه ، وأصحاب الرأي والقياس مبتدعة ضلال ، إلّا أن يكون في ذلك أثر عمّن سلف من الأئمة[1] .

وهو يرى نفسه دائماً متبعاً، فلا يتحدّث إلّا بما أُخبر وحُدّث، ويدعو الى الاتّباع: هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة والمتمسكين بعروقها المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبيﷺ الى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو أعاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحق[2]

## أولاده

ولد لأحمد بن حنبل عدة أولاد وهم صالح وعبدالله من أم ، وحسن ومحمد وسعيد من جارية تسمى حُسْن ، وولدت له بنتاً سمّاها زينب ، وقبل ولدت له ولداً رابعاً سمّاه حسناً أيضاً .

## صالح بن أحمد بن حنبل

ولد سنة (٢٠٣ هـ) وتوفي سنة (٢٦٥ هـ) وهو أكبر أولاد أحمد ،كان

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص ٣١.

(٢) المدخل الى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص ٢٦.

راوية لأبيه . وحدّث كثيراً عن سيرته وأحواله وتاريخ حياته ، ويبدو على صالح رفضه لمسلك التقشف الذي أخذ أبوه به ، وعدم القناعة بموقف الانصراف عن الحكّام في أمر المنح والعطايا التي توالت على أحمد في عهد المتوكل ، حتى إنه كان يتصرّف في الأموال التي يتحرّج في أخذها بدون موافقة أبيه عندما يراه يمتنع أن يقدم منها إلى أحفاده[1] .

وكذلك عندما صارحه أبوه في أن يدع الرزق الذي يأتي من المتوكل فلا يأخذه ولا يوكل فيه أحداً ، فرفض ذلك . فقد كان معيلاً . وكان الإمام أحمد يدعو له . وكان الناس يكتبون إليه من خراسان ـ حيث موطنهم الأوّل ـ يسأل لهم أباه عن المسائل .

ولّي القضاء بأصبهان ، كما ولّي القضاء بطرسوس . نقل إليها من أصفهان .

قال صالح : كان أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد متقشّف لأنظر إليه ، يحبّ أن أكون مثلهم ، أو يراني مثلهم . ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر لدَيْن غلبني ، وكثرة عيال[2] .

حدّث عنه ابنه زهير ، وروى عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن صالح ، وأحمد بن سليمان النجار . وتوفي زهير سنة ( ٣٣٠ هـ ) .

وأمّا أحمد بن صالح فقد روى عن جدّه أحمد حديث عائشة : كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد .

ولأحمد بن صالح ولد اسمه محمد كان يروي عن عمّه زهير ، وروى عن أبيه قول عائشة كما ذكره ، ورواه عنه الدارقطني[3] وتوفي سنة ( ٣٣٠ هـ ) .

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٣٨.

(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٧٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٦٤.

(٣) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٦٤ ـ ٦٥.

## عبدالله بن أحمد بن حنبل

ولد سنة (٢١٣ هـ) وتوفي سنة (٢٩٠ هـ) وكان أعلم أولاد أحمد وأكثرهم رواية عنه، وهو الذي جمع مسند أبيه، وزاد فيه كثيراً من الأحاديث التي لم يأخذها عن أبيه، ورواه عنه أبو بكر القطيعي وزاد فيه أيضاً، فالمسند يرويه عبدالله عن أبيه سماعاً، وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبدالله، وقسم لم يسمعه من أبيه بل وجده بخطه، وقسم رواه القطيعي، عن غير عبدالله وأبيه.

وأول من سمعه منه: حنبل بن إسحاق بن حنبل ـ وهو ابن عم أحمد ـ وعبدالله بن أحمد، وصالح بن أحمد. قال ابن السماك: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبدالله. وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه غيرنا[١].

وذكر الشيخ محمد أبو زهو في كتابه «الحديث والمحدثون» أنه سمع المسند من الإمام أحمد أولاده الثلاثة: صالح وعبدالله وحنبل. ثم ذكر رواية ابن السماك ـ أو السّباك ـ وهذا خطأ فإنّ حنبل لم يكن ولداً لأحمد، بل هو ولد عمّه إسحاق كما ذكره ابن الجوزي وغيره، وجاء في ترجمته في طبقات الحنابلة، قال حنبل بن إسحاق: جمعنا عمي لي ولصالح ولعبدالله، وقرأ علينا المسند وما سمعه منه غيرنا[٢].

ونقل ابن الجوزي عن ابن السماك قال: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا

(١) مناقب أحمد ص١٩١.

(٢) الطبقات ج١ ص١٤٣.

أحمد بن حنبل ، أنا وصالح وعبدالله ، وقرأ علينا المسند وما سمعه منه غيرنا[١] .

فقول الشيخ أبي زهو أنّ حنبل من أولاد أحمد خطأ ، وما هو بأوّل خطأ يرتكبه ، وقد أشرنا لكتابه وأخطائه فيما سبق .

ومهما يكن من شيء ، فإنّ عبدالله كان أشهر أولاد أحمد بن حنبل ، وأكثر رواية عنه . وقد ولي القضاء في خلافة المكتفي . وتوفي في جمادى الآخرة سنة (٢٩٠ هـ) . ولما مرض قيل له : أين تحبّ أن تدفن ؟ فقال : صحّ عندي أنّ بالقطيعة نبياً مدفوناً ، ولئن أكون بجوار نبي أحبّ إليّ من جوار أبي[٢] .

## سعيد بن أحمد

ولد سعيد قبل موت والده بنحو من خمسين يوماً ، وتوفي سنة (٣٠٣ هـ) وقيل : بل توفي قبل هذا التاريخ بمدة طويلة في حياة أخيه عبدالله . وقد ولّي سعيد قضاء الكوفة . وأما بقية أولاد أحمد ، فلا يعرف من أخبارهم شيء .

## وفاتـه

توفي أحمد بن حنبل في ربيع الأول سنة (٢٤١ هـ) وقيل ١٢ منه ، وصلّى عليه الأمير محمد بن طاهر . ودفن بمقبرة باب حرب[٣] . وقد وصفوا تشييعه بأنه ما كان في الجاهلية ولا في الإسلام جمع أكثر منه ، وقد اشترك فيه النساء

(١) المناقب ص ١٩١.

(٢) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص٣٠٦.

(٣) باب حرب تنسب إلى حرب بن عبدالله ـ أحد أصحاب المنصور ـ أو حرب بن عبدالملك ، وإليه تنسب محلة الحربية ، وفيها أيضاً قبر بشر الحافي ، تاريخ بغداد ج١ ص١٢٣.

والرجال يتبادلون النوح والصراخ ، وأعلن الحنابلة اللعنة على من خالفهم ، وعلت الهتافات بلعن بُشر المريسي والكرابيسي . فسأل المتوكل عن الكرابيسي من هو ؟ قالوا هو رجل أحدث قولاً لم يتقدمه أحد . فأصدر المتوكل أمره إليه بلزوم بيته ، فلزمه إلى أن مات[١] .

وينقل الحنابلة عن يوم الجنازة ما لا يقبله العقل ويقرّه المنطق كقول الوركاني : أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس . ووقع المأتم والنوح في أربعة أصناف من الناس : المسلمين واليهود والنصارى والمجوس[٢] .

ومنذ ووري ابن حنبل ، لزم بعض الناس القبر وباتوا عنده ، وجعل النساء يأتين ، فأرسل السطان أصحاب المسالح ، فلزموا ذلك الموضع حتى منعوهم مخافة الفتنة[٣] . ويبدو أن الجنازة تحوّلت إلى مناسبة أظهر فيها الحنابلة أنفسهم والدعوة إلى منهجهم والطعن على غيرهم ، حتى قال ابن الجوزي : فسرّ الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلوّ الإسلام ، وكبت الله أهل البدع والزيغ والضلالة[٤] .

ويذكر المسعودي أنّ اجتماع الجنازة كان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضدّ في الأمور منها : أنّ رجلاً منهم كان ينادي : إلعنوا الواقف عند الشبهات . وهذا بالضدّ عمّا جاء عن صاحب الشريعة ﷺ . وكان عظيم من عظمائهم ومقدّم فيهم يقف موقفاً بعد موقف أمام الجنازة ، وينادي بأعلى صوته :

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص٤١٧ .

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٦ .

(٣) المناقب ص٤١٨ .

(٤) المناقب لابن الجوزي ص٤١٨ .

واظـلمت الدنـيا لفـقد مـحمدٍ واظـلمت الدنـيا لفـقد ابـن حـنبل

يريد بذلك أنّ الدنيا اظلمت عند وفاة محمد ﷺ وأنّها اظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول ﷺ[١] .

وازدحم الناس على قبر أحمد يتبرّكون به ، ويقصدونه للزيارة ، وهنا تجدّدت نشاطات الدعايات المذهبية ، وطغت موجة المناقبية ، وقام القصّاصون والوعّاظ ـ الذين هم من قبل الدولة ـ بنشر خرافات لو كان أحمد حياً لخجل منها وتبرأ من قائلها . وإليك نموذجاً منها :

١ ـ ادّعى أحدهم أنه زار قبر أحمد ، فرأى القبر قد التصق بالأرض ، وسمع صوتاً من القبر يقول : هذا من هيبة الحق ، لأنه عزّ وجلّ زارني فسألته عن سرّ زيارته إيّاي في كل عام . فقال : لأنك نصرت كلامي...

٢ ـ أن من يدفن في مقبرة أحمد يكسى حلّتين من حُلل الجنة ، ويوضع على قبور مجاوريه قناديل ، ومن يعذّب يرحم لأجله[٢] وكان فيهم رجل محنث فشمله العفو[٣] .

٣ ـ حدّث علي بن إسماعيل السجستاني : كأن القيامة قد قامت وكان الناس يزدحمون عند قنطرة ، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم ، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم ، فسألت عنه فقالوا : هذا أحمد بن حنبل[٤] .

٤ ـ أن أبواب السماء تفتّح لزوّار قبر أحمد بن حنبل ، والملائكة تنزل عليهم بثياب خضر تطير بهم في الهواء . وكان قبره يقصد للزيارة من ستمائة

---

(١) مروج الذهب ج٤ ص١٠٢ و١٠٣ .

(٢) تاريخ بغداد ج١ ص٢٢ .

(٣) المناقب لابن الجوزي ص٤٦٣ .

(٤) المناقب لابن الجوزي ص٤٤٦ .

فرسخ[١] ولا يتسع المجال لعرض ما ادّعي من منامات وأحلام في قبر أحمد وزيارته ، وعظيم الأثر الذي خلّفته الدعاية في قلوب الناس من تعظيم قبره والتبرك به وتقبيله . وقد سأله رجل في الرؤيا : لم يقبل قبر إلّا قبرك ؟ فأجاب: هذا ليس كرامة لي ، ولكن كرامة لرسول الله ، لأن معي شعرات من شعره ، ألا ومن يحبني لم لا يزورني في شهر رمضان؟

وقد بقي قبر أحمد بن حنبل مقصداً لمحبيه، ويتبركون بزيارته ، وادُّعي أنّ الماء حار حول قبره عند طغيان دجلة سنة (٧٢٥ هـ) فغمر جميع الأمكنة إلّا قبر أحمد ، فلم تبلّ الحصر كما يدّعون . ولكن دجلة أعاد الكرّة ، فاكتسح القبر وابتلعه ، وذهب به وبآثاره إلى اليوم .

وقد دفن في مقبرته خلق كثير ، ونقل إليه من الأماكن النائية جثث كثيرة لأموات أمثال : عبدالمغيث بن زهير الحربي الحنبلي محدّث بغداد . ومن الغريب بل من الشذوذ الفكري أن يوصف هذا الرجل بأنه صالح متدين أمين مجتهد في السُّنة ، حافظ زاهد يشبه أحمد بن حنبل ، مع اعترافهم بأنه وضع جزءاً في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالموضوعات كما يقول الذهبي[٢] .

ومن أعيانهم : عبدالرحمن بن الجوزي المتوفي سنة (٥٩٧ هـ) وصاحب المؤلّفات الكثيرة ، دفن عند أبيه بباب حرب عند قبر أحمد ، وكان يوم تشييعه يوماً مشهوداً وذلك في شهر رمضان ، وقد أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدّة الحرّ[٣] .

ولعل المسوّغ لإفطارهم اعتقادهم بأن تشييع ابن الجوزي أعظم ثواباً من

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص٤٨٢ .
(٢) الشذرات ج٤ ص٢٧٥ .
(٣) البداية والنهاية ج١٣ ص٣٣٩ .

صيام شهر رمضان؛ لأنه كان ناصراً للسنّة محارباً للبدعة . وقد وصف بأنه كحاطب ليل ، وهو لا يفرّق بين الضارّ والنافع ، والحق والباطل ، وكانت مؤلفاته تناقض بعضها بعضاً ، وهو يورد الشُبَه ، وليس له قدرة على ردّها ، وقد نقم عليه العلماء ، ولكن لا ينفع ذلك مع تجمع العوام عليه .

وكثير من علماء الحنابلة دفنوا عند قبر أحمد تبركاً بجواره ، ومنهم من نقل إلى مقبرة أحمد بعد مدة من دفنه كسعدالله الحنبلي المتوفى سنة (٥٦٤ هـ) دفن بمقبرة الرباط ، ثم نقل بعد خمسة أيام ودفن في مقبرة أحمد . وكمال الدين ابن وضّاح الحنبلي المتوفى سنة (٦٢٧ هـ) دفن عند رجلي أحمد . ومنهم : محمد بن محمّد بن الحسين الحنبلي المتوفى سنة (٥٢٧ هـ) ونقل إلى مقبرة أحمد بن حنبل سنة (٥٣٤ هـ) أي بعد مضي سبع سنوات على موته . وغير هؤلاء خلق كثير أحصينا عددهم بما يقارب الخمسين شخصاً . وبطبيعة الحال فإنّ قبورهم ذهبت في طغيان دجلة كما سبق وذكرنا .

ولا بد من التعرض لما جاء في لغة العرب المجلد الخامس من السنة الثامنة ما ذكره الدكتور مصطفى جواد: أنّ عبدالحميد عيادة نشر في لغة العرب أنّ في جامع حاج أفندي ـ ويسمى مسجد اللالات بمحلة كوك ـ نفراً ببغداد أنّ رخامه في الجوار الذي يلي الباب ، مكتوب عليها ما صورته : هذا قبر المرحوم المغفور له الدارج في رحمة الله الشيخ المجتهد السيد أحمد من الأربعة المجتهدين وذلك في ١٣ ربيع الأول سنة (٥٦٢ هـ)، ثم قال : توارد إلى خاطري أنه قبر الإمام المشار إليه ، أي أحمد بن حنبل إذ لا يبعد أنه نقل إلى محلّه الحالي لسبب غرق بغداد . . . إلخ .

وهذا بعيد كل البعد؛ لأن التاريخ إما أن يكون تاريخ الوفاة أو تاريخ النقل ، فتاريخ الوفاة سابق عليه؛ لأن وفاة أحمد سنة (٢٤١ هـ)، وأما تاريخ النقل عند

الغرق فهو متأخر عن هذا التاريخ .

وقد نقل لقبر أحمد رجال من الحنابلة بعد هذا التاريخ منهم : كمال الدين علي بن وضّاح المتوفى سنة (٦٧٢ هـ) وفي سنة (٧٦٥ هـ) دفن القاضي جمال الدين بن خليل الخضري الحنبلي محدّث بغداد ، وفي سنة (٧٦٦ هـ) دفن الشيخ نور الدين الحنبلي ، وفي سنة (٧٨٤ هـ) دفن أبو طالب عبدالرحمن بن عمر الحنبلي نزيل بغداد .

والحاصل أنّ مقبرة أحمد بن حنبل بقيت مدة من السنين مهوى أفئدة الحنابلة ، ومقصد الزوار ، وتدفن حوله الأموات تديناً وتقرباً لنيل ما أعدّ من الجزاء لمن يدفن حوله . فقد أشاع الحنابلة أن من يدفن حول قبر أحمد يكسى حلّتين من حلل الجنة ، ويوضع على قبر مجاوريه قناديل ، ومن يعذب يرحم لأجله[1] . إلّا أن ذلك القبر قد غمره الفيضان فانهار ، ولم يبق له أثر ، إذ امتلأت مقبرة أحمد كلها ، ولم يسلم منها إلّا موضع قبر بُشر الحافي لأنّه على نشز من الأرض ، وكان من يرى مقبرة أحمد بعد أيام من مضي الفيضان ليدهش عندما يرى القبور قد قُلّبت ، وجمعت العظام كالتل ، جمعها السيل ـ سيل الماء ـ وكذلك ألواح القبور[2] .

وقال اليافعي : إنّ دجلة زادت زيادة مفرطة حتى أخربت مقبرة أحمد بن حنبل ، ودخل الماء في دهليز البيت ، وذلك في سنة (٧٢٥ هـ). وقال ابن العماد نقلاً عن الذهبي : إن مقبرة أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي فيه ضريحه ، فإن الماء دخل الدهليز علو ذراع ، ووقف بإذن الله تعالى ، وبقيت

(١) المناقب لابن الجوزي ص٤٦٣ .

(٢) فيضانات بغداد ، الدكتور سوسه ص ٢٢٠ .

البواري عليها الغبار حول القبر[١] .

ولقد علّق المرحوم السماوي على هذا القول بقوله :

ألا من عذيري يابني العلم والحجى ... من اليافي الحنبلي المجلل
يكذّبني إن قلت قبر ابن فالهم ... عليه استدار الماء للمتوكل
ويزعم حارَ الماءُ ثمّ تجل غبرة ... على حُصُرٍ كانت بقبر ابن حنبل[٢]

هذه لمحة موجزة عن السيرة المستمرة في نقل الأموات ونبشهم بعد دفنهم ، وهي باقية حتى يومنا هذا عند إخواننا السنة ، فإنّهم ينقلون الموتى من الأماكن . فمن مات خارج العراق نقل إليه ، ومن مات في العراق فإما أن ينقل إلى بلده ومسقط رأسه ، أو يدفن في مقبرة وليّ كأبي حنيفة والإمام الأعظم والشيخ معروف ببغداد ، والبعض ينقل من بغداد إلى مقبرة الخاتونة في السماوة إن كان من أهلها ، وأغلب أهل الجنوب من إخواننا السنّة ينقلون موتاهم إلى بلد الزبير ، ودفنهم هناك تبركاً بالقبر المنسوب للزبير بن العوّام .

وقد ذكرنا سابقاً أنّ هذه النسبة غير صحيحة ، وأن هذا القبر بني على الظنة والتخمين ،كما نص على ذلك بعض المؤرخين[٣] .

ومن الجدير بالذكر ، أن النقل بعد الموت عند المسلمين شائع معمول به منذ الصدر الأول عند جميع الفرق والمذاهب .

ونذكر مايحضرنا ذكره الآن فمنهم .

١ ـ جعفر بن الفضل بن موسى بن الفرات أبو الفضل المتوفى سنة (٣٩١هـ) وزير الديار المصرية ، توفي بمصر ، فنقل إلى المدينة . يقول ابن عساكر :

---

(١) شذرات الذهب ج٦ ص٢٣٢ .
(٢) انظر شعراء الغري ج١٠ ص٤٧٥ ـ ٥٠٣ لنماذج من شعره .
(٣) انظر الجزء الأوّل من هذا الكتاب .

وخرجت الأشراف إلى لقائه وفاءً بما أحسن إليهم ، ثم يقول : فحجّوا به وطافوا ووقفوا في عرفات ، ثم ردّوه للمدينة ، ودفنوه في دار اشتراها من الأشراف بالمدينة(١) . ولا ندري هل كان ورود جنازته أيام الحج فحجّوا به ، أم أنهم خلقوا له حجاً ووقفوا بعرفات في غير وقت الموسم ؟!

٢ ـ القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٤ هـ) دفن في داره بنهر طابق ، ثم نقل إلى جوار قبر أحمد بن حنبل في مقبرة باب حرب ، ويؤم الناس قبره ، ويتبركون به . يروى أنّ أحد شيوخ الحنابلة «أبو الفضل التميمي» حضر يوم وفاته حافياً مع أصحابه ، وقعد معهم للعزاء ثلاثة أيام ، وكان يزور قبره كل يوم جمعة(٢) .

٣ ـ أبو البقاء محمد بن المبارك المعروف بابن الخل الشافعي المتوفى ببغداد سنة (٥٥٢ هـ) ونقل إلى الكوفة ودفن فيها .

٤ ـ صدر الدين أبو بكر الشافعي خرج من بغداد ، فنزل بقرية بين همدان والكرج ، فأصبح ميتاً ، فحمل إلى أصفهان ودفن بسيلان .

٥ ـ وكذلك ولده عبدالمطلب مات بهمدان سنة (٥٨٠ هـ) بعد عودته من الحجاز ، وحمل إلى أصفهان ، ودفن فيها .

٦ ـ أحمد الحريزي المتوفى سنة (٥٥٠ هـ) وكان عاملاً للمقتفي على نهر الملك، وكان من أظلم العالم ، ومع هذا يظهر التدين . وكان يجلس على السجادة وبيده سبحة يسبّح فيها ويقرأ القرآن ، والناس يُعذّبون بين يديه . وكان يعلّق الرجال بأرجلهم ، والنساء بأثدائهن ، ويضربون بين يديه وهو

---

(١) شذرات الذهب ج٣ ص١٣٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ج١٣ ١٦٦ ، ج٢٤ ٣٧٢.

يومي إلى الجلّاد: الرأس ، الوجه . وقد سئم الناس حياته ، فدخل عليه ثلاثة رجال ، فضربوه بالسيوف فمات ، وحمل إلى بغداد ، ودفن فيها ، فأصبح وقد خسف بقبره[١] .

٧ ـ الملك المظفر علي كوجك التركماني المتوفي سنة (٦٢٠ هـ) ملك أربل . مات فيها في رمضان ، وأوصى أن يحمل إلى مكة فيدفن في حرم الله تعالى ، وقال استجير به . فحمل في تابوت إلى الكوفة ، ولم يتفق خروج الحاج في تلك السنة ، فدفن عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ .

٨ ـ كمال الدين محمد بن علي الشافعي يعرف بابن الزلمكان المتوفي سنة (٧٢٧ هـ) بدبيس ، وحمل إلى القاهرة ، ودفن إلى جوار الشافعي .

٩ ـ إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبدالملك بن عبدالله الفقيه الشافعي المتوفى سنة (٤٧٨ هـ) ودفن بداره في نيسابور ، ثم نقل منها بعد سنتين .

وكان لموته يوم مشهود ، فلقد أُغلقت أبواب البلد ، وكشف الناس رؤوسهم حتى ما اجترأ أحد أن يغطّي رأسه ، وصلّى عليه ولده أبو القاسم بعد جهد عظيم من الزحام ، وكسر منبره في الجامع ، وقعد الناس للعزاء أياماً ، وكان طلبته أربعمائة يطوفون في البلد نائحين عليه[٢] وقد وصف السبكي يوم موته ، وأن الطلبة تجوب موكبهم البلد نائحين عليه مكسّرين المحابر والأقلام ، مبالغين في الصياح والضجر[٣] . وقال الذهبي : استمرت الحالة سنة[٤] .

(١) شذرات الذهب ج٤ ص٣٢٦ .

(٢) الشذرات ج٣ ص٣٦٠ .

(٣) الطبقات ج٣ ص٢٥٧ .

(٤) وفيات الأعيان ج٣ ص١٦٩ ـ ١٧٠ ح٣٧٨ .

١٠ ـ أبو الحسين بن سمعون الواعظ المتوفى سنة (٣٨٧ هـ) ودفن في داره بشارع العباس، ثم نقل يوم الخميس ١١ رجب سنة (٤٢٦ هـ) ودفن بباب حرب، وكان الباقلاني يقبل يده لعظيم منزلته. وحكى الخطيب أنّ ابن سمعون خرج من المدينة الشريفة إلى بيت الله فاشتهى الرطب، فلما كان وقت الإفطار صار التمر رطباً فلم يأكله، فعاد إليه من الغد فإذا هو تمر.

١١ ـ ابن طولون خمارويه بن أحمد حمو المعتضد. فتك به غلمان بدمشق سنة (٢١٢ هـ) وحمل تابوته إلى مصر، ودفن عند أبيه بسفح المقطم.

١٢ ـ محمود بن السلطان ملك شاه. مات بأصفهان سنة (٤٨٧ هـ) وحمل إلى بغداد، ودفن بالنظامية.

١٣ ـ أحمد بن محمد غلام خليل. المتوفى سنة (٢٧٥ هـ) ببغداد، وحمل في تابوت إلى البصرة. قال الخطيب: غلّقت له أسواق مدينة بغداد، وخرج الرجال والنساء لحضور جنازته والصلاة عليه، فأدرك ذلك بعض الناس وفات بعضهم لسرعة السير به، ودفن بالبصرة، وبنيت عليه قبة[1].

يذكر الخطيب في ترجمته عن عبدالله النهاوندي قلت لغلام الخليل: ما هذه الأحاديث الرقائق التي تحدّث بها؟ قال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة.

وعن ابن عدي سمعت عبدان الأهوازي يقول: قلت لعبدالرحمن بن خراش: هذا الحديث الذي يحدّث به غلام الخليل لسليمان بن بلال من أين له؟ قال: سرقه من عبدالله بن شبيب، وسرقه عبدالله بن شبيب من النضر بن سلمة، ووضعه شاذان[2] وكان أكثر ما يتحدّث به بالموضوعات في مناقب الصحابة

---

(١) تاريخ بغداد ج٥ ص٢٨٥ م٢٧٨١.

(٢) تاريخ بغداد ج٥ ص٧٩.

وغيرهم من الرجالات ، ويتخذها وسيلة لمعاشه ، ومن وضعه حديث ، اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر[1] . وهو من المحدّثين والوعاظ القصّاصين .

ولا يتسع المجال لأكثر مما ذكرنا في هذا الاستطراد الذي لا تخفى دواعيه وأسبابه إذا ما استحضرنا ما شذّ به أقوام جعلوا من أحمد بن حنبل إماماً وقدوة ، وراحوا يطلقون التهم والتخرصات في قضايا الأموات والقبور ، وقضية النقل بعد الموت ، وما يتعلّق بالدفن أمر معروف منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا ، وقد سار عليه السلف والخلف ، فمن ينقل إلى المدينة ، ومن ينقل إلى دمشق ، ومن ينقل إلى بغداد ، ومن ينقل إلى القاهرة ، ومن ينقل من رمسه القديم إلى مكان آخر كما رأينا من نقل إلى مقبرة أحمد . .

ومقبرة أحمد بن حنبل في محلّة الحربية التي تقع وراء مقابر قريش ، وفيها الباب الذي كان بنو شيبان قد اتخذوها مقبرة لمن يموت منهم ، ثم لمن يموت من أهل الحديث . فدفن أحمد بن حنبل في هذا الباب ، لأنه إمام الحديث ـ كما قالوا ـ ولأنه من بني شيبان .

أما الحربية أو باب حرب ، فقد نسب إلى حرب بن عبدالله أو حرب بن عبدالملك أحد قوّاد المنصور ، ثم غلب عليها اسم أحمد فصارت تسمى مقبرة أحمد .

وأصبحت مزاراً تهفو إليه قلوب الحنابلة وتعج بالدعاء ، وبقعة مقدسة توضع في زوارها المنامات ، حتى جرفتها السيول ـ كما علمنا ـ وغرق قبر أحمد على اختلاف في تعيين سنة الغرق في القرن السادس أو السابع ؟

---

(١) لسان الميزان ج١ ص ٢٧٢ .

ولما غرق القبر ، تحوّل الناس إلى زيارة قبر ولده عبدالله في القطيعة ، يؤدّون الزيارات ، ويدعون لقضاء الحوائج .

وأحمد بن حنبل هو آخر رؤساء المذاهب وفاةً . توفي أبو حنيفة سنة (١٥٠ هـ) ومالك سنة (١٧٩ هـ) والشافعي سنة (٢٠٤ هـ) ثم أحمد سنة (٢٤١ هـ) ومذهبه قليل الانتشار ، محدود الاتباع . فهو ليس كمذهب أبي حنيفة عدداً في البلاد الإسلامية ، ولا كمذهب الشافعي في مصر .

## الحنابلة في ظل المتوكل

سبق أن أشرنا إلى مشاعر المتوكل تجاه أحمد ، وكونها واحدة من عوامل الميل إلى أحمد بن حنبل ، إضافة إلى الأغراض السياسية ، وقد قلنا إنّ أحمد لم يستجب تماماً لرغبة المتوكل في تنصيبه رئيساً مذهبياً ، ولولا التهمة التي غيّرت مجرى السعي السلطاني إلى ضمّ أحمد في تلك المرحلة ؛ لاكتملت مقتضيات السياسة في تبني أحمد تماماً وهو في حياته ، وقد كانت التهمة خطيرة تهتزّ لها أبدان بني العباس غيظاً ، وهي التعاون مع العلويين . فداهموا منزله ومنزل ابنه ، ودلوا شمعة في البئر ، ووجهوا النسوة ففتشن الحرم ، مما أخر في إعلان المذهب رسمياً .

وبعد ثبوت براءته ، لم يعد أمام المتوكل من مانع يمنعه من الاهتمام بأحمد اهتماماً بالغاً ، فكان يأمر بالمال ، ويتوجّع لما يصيبه ، واقتنع قناعة تامة بأحمد بن حنبل . ويبدو أنّ الموت عاجله ، فاستأنف ما أراد منه في غيابه .

ولو بحثنا في اتجاه أحمد بن حنبل وآرائه في الحكّام؛ لوجدنا أنّ ابن حنبل يرى أن من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة : صلاة العيدين والخسوف

والجمعة والجماعات مع كل أمير برّ أو فاجر ، والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وعدم الخروج عليهم بالسيف[1] . وعندما داهموا بيته بتهمة إيوائه علوياً كان يقول : ما أعرف من هذا شيئاً ، وإني لأرى طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة . وإني أتأسف على تخلّفي عن الصلاة في جماعة ، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين[2] .

ولما جاء المتوكل ، أظهر ما يتفق مع آراء أحمد ومعتقداته ومنهجه ، فأمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون . وأمر شيوخ المحدّثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة[3] . وأشخص الفقهاء والمحدّثين ، وكان فيهم : مصعب الزبيري ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإبراهيم بن عبدالله الهروي ، وعبدالله وعثمان ـ ابنا أبي شيبة ـ فقسّمت بينهم الجوائز ، وأُجريت عليهم الأرزاق ، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ويحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية ، وأن يحدّثوا بالأحاديث في الرؤية . فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور ، ووضع له منبر ، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً من الناس . وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة ، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً .

وقد كان من نتائج تقيّد أحمد بالمأثور عنده وتقليده أن يرى الحاكم قد ولّاه الله؛ ولذلك نجده يدعو إلى السمع والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين البرّ والفاجر ، ومن ولّي الخلافة ، ومن اجتمع الناس عليه ورضوه ، ومن غلبهم

---

(١) المدخل إلى فقه أحمد بن حنبل ص ١٩.

(٢) المناقب ص ٣٦٠.

(٣) مروج الذهب ج ٤ ص ٥.

بالسيف حتى صار خليفة يسمى أمير المؤمنين .

ولا بد أن تكون للمتوكل أولية في ذلك بالنسبة للإمام أحمد ، فإذا كان يعتقد بالحكام الذين ملكوا الأمر والسلطة بعد الإسلام بعمومهم ، فإنّ المتوكل أولى بكل ماكان يراه ويعتقده ، غير أن التردّد والسلوك الذي سلكه أحمد ينمّ عن أمر نستشعر منه الإحراج إن لم يكن به غناء عن الكناية أو التلميح. وقد كتب إليه المتوكل بعد أن استيقن من وضعه وقال : إني أحبّ أن آنس بقربك وبالنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . ولكنّا نجده لا يقرب أكل المتوكل ، ولا يمسّ منه شيئاً . ويطوي صائماً حتى جاع ـ وهو عند المتوكل ـ جوعاً عظيماً ، وكاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرّم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم ، وكلّمني في أحمد ؛ ما قبلت منه[١] . ويروى أنّه كان يتألم من هذا اللقاء ويقول : سلمت منهم طول عمري ، ثم ابتليت بهم في آخره[٢] . فلماذا هذا الألم ؟ وكيف يتفق ذلك مع الدعوة إلى الطاعة والاستسلام إذا كان الاتصال بالحكّام ابتلاءً ؟ ومن يكن سبباً في البلاء لا بد أن حاله على غير ما يدعو إليه الإسلام ، وبخلاف ما يستريح إليه المؤمن . بل إن أحمد بن حنبل يرى أن تكريم المتوكل له يجعله في غم ، ففي رواية أن عم أحمد قال له : لو دخلت على الخليفة ، فإنك تكرم عليه، فقال: إنما غمّي من كرامتي عليه[٣] .

ونرى الإمام أحمد يصرف همّه إلى ما أحاطه به المتوكل من منح وعطايا ،

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٣٣٩، والمناقب لابن الجوزي ص٣٦٩.

(٢) البداية والنهاية ج١ ص٣٧٣.

(٣) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص٣٧٥.

ويصبح شغله الشاغل أن يمنع أهله وعمه ـ الذي يرافقه دوماً ـ من أخذها ، ويلومهم ويعظمهم في كلام طويل . فيحتجون عليه بالحديث : «ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف ؛ فخذه»[1] . وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان . ويقول : وما هذا وذاك سواء . ولو أعلم أنّ هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور ؛ لم أُبالِ .

فكيف يقرّ الظلم والجور ، وتصبح الطاعة من صفات المؤمن ؟ ورغم أنّ أحمد حصر سبب رفضه وابتعاده عن الحاكم المتوكل بالناحية المالية ، فإنه لم يتمكّن أن يعزلها عن أُسس وحقيقة الحكم القائم . وخلاصة الأمر ، أنّ الإمام أحمد يدعو إلى السمع والطاعة على الطريقة التي مرّت بنا متأثراً بدعاة السلاطين وسدنة الملوك الذين دسّوا في الأثر ما ليس له علاقة بمبادئ الإسلام وعدالة السنّة ، ويعارض دعوته بسلوكه هذا الذي تقتضيه بداءة العقول ، فضلاً عن تعاليم الإسلام . ثم لا يتجاوز دائرة السلبية وضيق المجال الذي يتصرّف فيه إلى رحاب المسؤولية الدينية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى السلطان الجائر باعترافه هو ، وليس هناك ما يمنع من خشية عليه شخصية أو عداء من جانب المتوكل يمكن أن يؤدي به إلى التلف والهلاك . فجسور الودّ قائمة ، وحبال الوصل ممدودة ، والفترة تشهد سواء ممن يقوم بهذا الواجب . وفي سيرة إسحاق بن حنبل ـ عمّه ـ ما يشير إلى مخالفة أحمد ليس في أمر المال فحسب ، بل في نظرته إلى ما يتاح له من عمل . فيسأله الدخول على الخليفة ليأمره وينهاه قائلاً له : إنه يقبل منك . وهذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره وينهاه ، فيجيبه أحمد بالسلبية التي لا يرجى تغييرها .

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٧٣ .

الدنو منهم فتنة ، والجلوس معهم فتنة ، نحن متباعدون منهم وما أرانا نسلم ، فكيف لو قربنا منهم ؟ هذا والإمام أحمد في ظل دولة تكاد تعلن آراءه ونهجه مذهباً لها ، ويتقرّب إليه ملكها بودّ كبير ، وليس للحكّام معه عداء أو مع أهله ، ولا يشكّل وجوده خطراً عليهم .

وهنا نشير إلى منهج أهل البيت النبوي الكرام ، وأولاد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ونسوق مثالين : أحدهما في عصر الأُمويين ، والآخر في عهد العباسيين ، إذ لم يتخلّ الحكّام عنهم في كلا العصرين ، واستمروا في معاملتهم بقسوة دموية وسياسة لا إنسانية؛ لأنّهم يشكلون خطراً يتهدّد كيانهم الجائر وسلطانهم الظالم عن المسؤولية الدينية، ووجه القيام بها في العصر الأُموي نشير إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين ، الذي عاش مأساة الطف ، وشبّ وجريمة الأُمويين تصبغ بالعار كل أوجه الحياة ، فسلك طريق الانقطاع إلى الله ، وتوجيه الأُمة بالنصح والإرشاد ، وهو في ظل حكم السلالة الأُموية ، فيرى أن التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلّا أن يتقي تقاة . قيل : وما تقاته ؟ قال : «يخاف جباراً عنيداً أن يفرط عليه أو أن يطغى»(١) .

وعن الضرورة التي تجعل التقية جُنّة المؤمن عملاً بقوله تعالى : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(٢) نحيل إلى ما ضمّه هذا الكتاب من صفحات من سيرة الإمام الصادق عليه السلام وهو يواجه الطغيان العباسي ، ويرى أنّ التعرّض للدولة قتل

(١) حلية الأولياء ج٣.
(٢) آل عمران : ٢٨.

للنفس ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فتحامى الحكّام ، ودعا إلى وقاية الأنفس وحفظ الدماء ، لأنّ العباسيين شأنهم شأن من سبقهم من الظلمة، لا يتورعون عن سفك دماء آل البيت بسبب أو بدون سبب . ومع شدّة حذره ﷺ تعرّض إلى القتل على يد المنصور تسع مرات ، غير أنه ﷺ وضع قواعد الدعوة الصامتة ، وخاطب أصحابه بأن يكونوا دعاة صامتين لآل البيت ، ثم رسم للعلماء والمتكلمين من أصحابه الأدوار ، وحدّد المسؤوليات كما مر بنا في هذا الجزء من الكتاب والأجزاء السابقة .

* * *

لم يؤثّر تردّد أحمد بن حنبل ، فقد كان سلوكاً لا يجاوز الأسرة ، يجري كشأن عائلي بحت مناطه المال . أمّا آراء أحمد السابقة فهي شائعة عن مريديه ومعروفة لالتماع شخصه واشتهار اسمه في المحنة ، والمتوكل يعمل على إلباس عهده صفة الحنبلية ، وأحمد يتعاون مع هذا الاتجاه ، ويستجيب برغم نفوره من المخالطة؛ إلّا أنّه كان له الرأي في الأمور المذهبية ، وكان المتوكل يستشيره في التعيين للقضاء ، ويأخذ برأي أحمد كما حدث عندما بعث المتوكل إلى أحمد يستشيره في تولية محمد بن شجاع الثلجي من فقهاء الحنفية . فقال : لا ، ولا على حارس . ورأي أحمد فيه : إنه مبتدع صاحب هوى[1] وأنفذ إليه المتوكل بصاحب لم يعلمه ـ ونورد القصة بسياقها وهي جديرة بالبحث والتعليق ـ أن له جارية بها صَرَع ، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية . فأخرج له أحمد نعل خشب بشراك خوص للوضوء ، فدفعه إلى صاحب له ، وقال له : تمضي إلى دار أمير المؤمنين ، وتجلس عند رأس

(١) المنتظم ج ٥ ص ٥٧ .

الجارية ، وتقول له : يقول لك أحمد أيما أحب إليك ، تخرج من هذه الجارية أو أصفع الآخر بهذه النعل ؟ فمضى إليه ، وقال له مثل ما قال أحمد ، فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة ، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم في العراق ما أقمنا به ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . وخرج من الجارية ، وهدأت وزوّجت ورزقت أولاداً[1] .

وعلى عهد أحمد بزغ نجم الحنابلة ، وطلع فجر ليلهم الدامس بفضل انتصار المتوكل للإمام أحمد . ويحلو للحنابلة أن يصوّروا أحمد وحيداً في المحنة ، ليتدرّجوا في غلوّهم ، متناسين أن الأمر صنعته أهواء الحكام وأغراض السياسة فتحوّل البعض عن طريقة السلطة العباسية ، وبقي أحمد وحيداً في أجواء التحوّل والتغيير ، مستمسكاً بالطريقة التي تهاب البحث وتخشى النقاش ، وإن كان تحرز كنزاً وتدّخر ثروة من فهم الكتاب بأيّ طريقة كانت ، وتمثّل السنة بأيّ صورة تمّت؛ لأنّ الظاهر القائم على وضوح النص وتحري السبب معين فيّاض يوفّر الحجة ويغني في الجدل .

بإسناده قال الميموني : سمعت علي بن المديني يقول : ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ كما قام أحمد بن حنبل . قال : قلت له : يا أبا الحسن ولا أبو بكر الصديق ؟ قال : ولا أبو بكر الصديق . إن أبا بكر الصديق كان له أعوان وأصحاب وأحمد بن حنبل لم يكن له أعوان ولا أصحاب[2] .

سبق أن قدّمنا أن الكرابيسي كان أول ضحايا السلطة بعد جنازة ابن حنبل ، وقد بدر من المتوكل من مشاعر التقديس والإجلال لأحمد بن حنبل ما لم

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٣ .

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٣ .

يحظ به أحد من رؤساء المذاهب الذين سبقوه ، فيقول لمحمد بن عبدالله بن طاهر : طوبى لك صلّيت على أحمد بن حنبل[١] .

وبعد موت أحمد اندفع أصحابه تحت شعار: «إحياء السنّة ومحاربة البدع» إلى إيذاء الناس والاعتداء على الآخرين . ولمّا تصل الأخبار إلى المتوكل يقول لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من خبرهم شيئاً ، وشدّ على أيديهم فإنهم وصاحبهم من سادات أُمة محمد ﷺ[٢] .

يقول ابن كثير :كان المتوكل مُحبباً إلى رعيته ، قائماً في نصرة أهل السنة ، وقد شبّهه بعضهم بأبي بكر في قتله أهل الردة؛ لأنّه نصر الحق وردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبدالعزيز حين ردّ مظالم بني أُمية ، وقد أظهر السنّة بعد البدعة ، وأخمد أهل البدع بدعتهم بعد انتشارها واشتهارها ، فرحمه الله[٣] .

وتولى الحنابلة ـ وعلى رأسهم صالح بن أحمد ـ نشر المنامات التي تصوّره بأنوار قدسية وبين يدي ربه ، لأنه محيي السنة رداً لرعايته وتبنّيه لأمرهم . فقد بلغ الأمر بالمتوكل أنّه أرسل جماعات تحصي عدد المصلّين أو المشيّعين .

وأخذ المتوكل يروّج المنامات عن نفسه على طريقتهم ، فيدّعي أنّه رأى النبي الأعظم ﷺ في المنام ، وقام إليه فقال له ﷺ : تقوم إليّ وأنت خليفة . ويعبّر له الحاشية ذلك بقولهم : أبشر يا أمير المؤمنين ، أما قيامك إليه فقيامك

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص١٦ .
(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٣.
(٣) البداية والنهاية ج١٠ ص٣٨٧.

بالسنة ، وقد عدّك من الخلفاء : فيسر بذلك[١] .

وهكذا حصرت السنّة في رعاية الحنابلة ، وترك حبلهم على الغارب يعيثون في الأرض ويرتكبون ما حمل ابن تيمية ـ أبا بدعة الوهابية وشيخ مذهبهم ـ أن يقول : بأنّهم أتوا من المنكرات والإمام أحمد بريء منهم[٢] . وهو قول يرمي به إلى نفي المسؤولية عن أسلافه ، ويفتقر إلى الصحة؛ لأنّ رجال أحمد كالمروذي وأصحابه كانوا على رأس العامة يهيّجونهم إذا هدأوا ، ويستفزّونهم إذا خمدوا . وقد كانت البداية في عهد المتوكل ، ثم توالت عهود هيمنتهم وتحكّمهم وإلزام الناس بأفكارهم المجسّمة وغيرها ، حتى بلغ الأمر تهديد من يخالفهم ، واستعداء الحكّام عليه ، واستخدام قوتهم لأغراض مذهبهم . فكان من وجوه ابتلاء الأُمة أن يتعرّض كل من لا يرى رأيهم في التجسيم والرؤية[٣] للأذى ، في حين يبقى يحيى بن أكثم ـ وهو من أركان الحكم في عهد المأمون ـ على مكانته ، ويظل في منزلته من الخليفة؛ لأن أحمد بن حنبل راضٍ عنه . قال المأمون ليحيى بن أكثم : من الذي يقول وهو يعرّض به :

قاضٍ يرى الحدّ في الزناء ولا ... يرى على من يلوط من بأس

قال : أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله ؟ قال : لا . قال : يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول :

حاكمنا يرتشي ، وقاضينا ... يلوط ، والرأس شرّ ما راس

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٣٥١ .

(٢) قواعد المنهج السلفي ص١١٣ .

(٣) انظر : المنتظم ج٦ ص١٧٢ .

لا أحسب الجور ينقضي ، وعلى الـ أمة والٍ من آل عباس[١]

ولمّا كان يحيى بن أكثم قاضياً للبصرة ، رفع الناس إلى المأمون أنّه أفسد أولادهم بكثرة لواطه ، وبلغ من إذاعته ومجاهرته باللواط في بغداد أن المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه ، ويتصرّفون في أُموره . ففرض أربعمائة غلام مُردٍ اختارهم حسان الوجوه ، فافتضح بهم .

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل : ذكر يحيى بن أكثم عند أبي فقال : ما عرفت فيه بدعة . فبلغت يحيى فقال : صدق أبو عبدالله ، ما عرفني ببدعة قط . قال : وذكر ما يريمه الناس به فقال : سبحان الله ! سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟ وأنكر ذلك أحمد إنكاراً شديداً[٢] .

وعلى شاكلة يحيى بن أكثم كانت دقّة حكم المتوكل ، فلم يكن في وزرائه والمتقدّمين من كتابه وقوّاده من يوصف بجود ولا إفضال ، أو يتعالى عن مجونٍ وطرب .

يظهر لنا من ذلك أنّ صفة إحياء السنة التي تعني الالتزام بأهداف الدين ومحاربة الخروج عن أُصول الإسلام تخفي تحتها واقعاً سيئاً كأيّ حاكم آخر ممن تستروا بالدين واتخذوا شعائر الإسلام غطاء لجرائمهم . وهذا الواقع بعيد عن أنظار العامة ، فهم في انفعال لا يكاد يخفّ حتى يشتدّ ، وانقيادهم إلى الذين أطلقوا هذه الصفة انقياد أعمى ، حتى كأنّ العامة تنظر وتنطق بأنظار وألسنة النابهين في تلك الفترة والمترعمين الذين راحوا يكيلون المدائح للمنقذ المتوكل ، ويشيعون الأخبار والمنامات عن جزائه عند الله ، ومكانته

---

(١) تاريخ الخطيب ج١٤ ص١٩٦ ، ومروج الذهب ج٤ ص٢٢ .

(٢) الطبقات ج١ ص٤١٢ .

في الدين ، فتأخذ سياسته على أنّها السنّة ، ويحسب كل ما يصدر عنه من الدين والتقوى ، وكان من سمات حكمه الغالبة عداؤه الشديد لآل علي ، ونقمته الشديدة على الشيعة ، ، ومن سوء حظّ الأُمة أن يتاح للحكّام مثل هذه الأدوار ليؤثروا في العامة بصفاتهم الدينية ، وهم في غفلة عن حقيقة ودوافع من يحكمهم ، لأنّ الوسطاء الذين يقومون بذلك يحجبون بمكاناتهم ومنازلهم الدينية الحقيقية ، ولا يرغبون في خروج العامة عن أغراضهم .

حدّث نصر بن علي الجهضمي بحديث : أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحسين فقال : **«من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما ؛ كان معي في درجتي يوم القيامة»** فأمر المتوكل بضربه ألف سوط ، فكلّموه بأن الرجل من أهل السنة ، ولم يزالوا به حتى تركه ، ويعقّب الخطيب البغدادي : إنّما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضياً ، فلما علم أنه من أهل السنة تركه(١) .

وأصاب أهل البيت عليهم السلام في ظلّ المتوكل محنة قاسية وبلاء عظيم ، وكان الإمام علي الهادي يقيم في المدينة ، ويقوم مقام الإمامة وحوله شيعته وأصحابه . فكتب عبدالله بن محمد بن داود العباسي إلى المتوكل عن حاله . فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي بالشخوص من المدينة ، فشخصه عبدالله بن محمد بن داود ومعه يحيى بن هرثمة ، وقد اضطر إسحاق بن إبراهيم أن يدخله إلى بغداد في الليل لمّا رأى تشوق الناس إليه واجتماعهم لرؤيته ، فأقام إلى الليل ، ودخل به في الليل ، فأقام ببغداد بعض تلك الليلة ، ثم نفذ إلى سرّ من رأى(٢) . ثم كان من المتوكل في الإساءة إلى الإمام الهادي ما تجاوز به كل حدّ

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٢٨٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص٢٠٩ .

الأدب واللياقة .

وشارك المتوكل يزيد بن معاوية في جريمته النكراء التي سوّدت وجوه بني أُمية ومن والاهم إلى يوم الدين ، فأمر المتوكل سنة (٢٣٦ هـ) بهدم قبر أبي الأحرار الإمام الحسين ﷺ ومحو أرضه وإزالة أثره ، وأن يعاقب كل من وجد به .

ولا نعقب بشيء آخر ، فلا مزيد لمستزيد أمام ما تصرخ به شواهد سيرته وأفعاله .

يقول الأستاذ حسن خليفة: وقد كان قاسي القلب ، ظالماً ، حتى أطلق عليه المؤرخون إسم «نيرون المسلمين»(١) .

## أحمد والشيعة

كان أحمد في كلّ ما يعرض له من المسائل يتوجّس من القول فيها ، سواء كانت في مسائل واقعة تدخل في الخلاف ، أو مسائل عامة تمسّ المعاملات والحياة؛ حتى قلنا إنه يعاني من هاجس يعتبر عنه هو : العلم الذي علمه ، أو المذاهب التي أدرك أصحابها وحدّث بها . مما جعله في كثير من الأمور يغمض في الجواب ، ويبعد كثيراً عن القطع والجزم . وقد أسهمت خشيته من السلطان في إضعاف الأحكام التي تترتب على أفعال المتوكل ، كإقدامه على حرث قبر الإمام الحسين ﷺ فلم نعلم له موقفاً يليق برجل في منزلته . وبتأثير هذا الموقف راحت توجه الأسئلة إليه : هل يلعن يزيد ؟ فقد تظافرت آراؤه السابقة في إطاعة الحكّام وعدم الخروج عليهم مع صمته على التجرؤ على مثل

---

(١) الدولة العباسية ص١٤٧ نقلاً عن محمد البيومي ابن حنبل .

هذه الأسئلة . وأغلب الروايات أنه كان يجيب بلعن يزيد ، ويقول : كيف لا ألعنه من لعنه الله في ثلاث آيات من كتابه العزيز في الرعد والقتال والأحزاب[١] .

وأحمد بن حنبل مبالغ في تقرير شرف الصحبة ، فيرى أنّ الصحابي هو كل من صحب الرسول ﷺ سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه . وهو ما يتفق مع نزعته في تقديس السلف ، وميله إلى الأخذ بما عدّ من الأثر ، والمشهور الذي تعاهده حكّام بني أُمية وبني العباس بالرعاية والحماية والترغيب في الموضع والانتحال . فكان على عهد معاوية الحديث : أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم[٢] . وهنا على رأي أحمد ، وعملاً بهذا الحديث فإنّ معاوية صحابي وإمام من أُولئك الذين يعنيهم في السمع والطاعة .

وفي عهد بني العباس كانوا يجعلون المحدّثين يقولون : معاوية بن أبي سفيان ستر أصحاب رسول الله ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه[٣] . الله أعلم بدوافع قول أحمد : خير هذه الأُمة بعد نبيها أبوبكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان . ويتوقّف ، ثم يجعل الإمام علي ضمن أصحاب الشورى : الزبير وطلحة وعبدالرحمن بن عوف وسعد[٤] .

---

(١) الإتحاف بحب الأشراف ص٦٩ ، تذكرة الخواص ص٢٨٧ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٢٥ ح١٧٦٠ .

(٣) تاريخ بغداد ج١ ص٢٠٩ .

(٤) ابن حنبل ص١٤٧ .

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة أنّ أحمد في ذلك يقف موقفاً وسطاً بين أبي حنيفة ومالك ، فأبو حنيفة في رواية صحيحة عنه يفضّل علياً على عثمان رضي الله عنه . . . ومالك يعدّ السبق في ثلاثة : أبي بكر وعمر وعثمان ، ثم يذكر أنّ بعد ذلك يستوي الناس، أما أحمد فإنّه لا يعدّ سبق الإسلام في سائر الناس ، بل يجعله في أصحاب الشورى الخمسة بعد رفع عثمان ﷺ ، والناس بعد ذلك دونهم على مراتب[١] .

ونحن نرى باعتماد الأقوال الأخرى لأحمد أنّ أحمد واقع تحت تأثير الخوف من المتوكل الذي كان من أشدّ النواصب والمعادين للإمام علي وآل بيته ، وهو مشفق من هذا الطاغي ، أو عامل بما دعا إليه من الطاعة التي يبرزها لنفسه . فعبد الله بن أحمد يسأل أباه : يا أبي ، ما تقول في التفضيل ؟ فيقول : في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان . فيقول عبدالله : فعلي بن أبي طالب ؟ فيقول أحمد : يا بنيّ ، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد[٢] . ولعلّنا لو ناقشناه لقال : ذلك ما علمته من السلف في التفضيل ، وأما القول الآخر فهو ما يقتضيه الحق . وعن عبدالله أيضاً قال :كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم ، فجاءت طائفة من الكرخية ، فذكروا خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان فأكثروا ، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب فزادوا وأطالوا ، فرفع أبي رأسه إليهم فقال : يا هؤلاء، قد أكثرتم القول في علي والخلافة ، إن الخلافة لم تزيّن علياً ، بل عليّ زيّنها[٣] . وللعلّامة المعتزلي ابن أبي الحديد

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ص١٥٧ .

(٢) المناقب ص١٦٣ .

(٣) المناقب ص١٥٧ .

قول في ذلك فيقول : وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه : أن غيره ازدان بالخلافة وتممت نقيصته ، وأن علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة ، والخلافة ذات نقص في نفسها ، فتمم نقصها في ولايته إياها . . .

ثم لا نعدم أن نرى أقوالاً تومئ إلى ردّه على زمرة المتوكل والنواصب كقوله : من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضلّ من حمار[١] .

وعلى ذلك ، فإنّ تهمة إيواء العلوي لها مغزى كبير إن لم تكن حقيقة واقعة ، ونحن بذلك لا نريد تحويل صورة أحمد ، أو نرمي إلى إخراجه مما هو فيه ، بل إنّ الموقف من العلويين هو المعيار الثابت لمن كان مثله في الزهد والتديّن .

وابن حنبل لم يكن منقطعاً عن الشيعة ، بل كان على صلة مع رجالهم رغم الإجراءات التي اتخذها المتوكل في تتبع الشيعة . وربما وجّه بعض المخلصين للإمام أحمد لوماً شديداً على اتصاله بمن عرف في التشيع ، فكان جوابه: سبحان الله ، رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبي ﷺ نقول له لا تحبهم! هو ثقة[٢] .

كما أنّه أخذ العلم عن كثير من رجال الشيعة وكانوا من شيوخه ، وقد ذكرهم ابن الجوزي في المناقب ، وغيره ممن كتب في رجال الحديث ، ذكرهم في تعداد شيوخ أحمد مع ثبوت تشيعهم ، منهم :

ـ إسماعيل بن أبان الأزدي المتوفى سنة (٢١٦ هـ) وهو من شيوخ البخاري

---

(١) المناقب ص ١٥٦ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢٦١ .

وابن معين أيضاً .

ـ إسحاق بن منصور السلوي المتوفى سنة (٢٠٥ هـ) خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

ـ تليد بن سليمان المحاربي المتوفى سنة (١١٠ هـ) خرج حديثه الترمذي وقال فيه أحمد : إنّ مذهبه التشيع ، ولم أر فيه بأساً[١] .

ولسنا هنا في موضع استقصائهم ، وإنّما أوردنا أسماءهم كأمثلة . وتسمع عن رحلة أحمد لطلب الحديث ، فقد كانت إلى عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، وهو من رجال الشيعة ومحدّثيهم ترجمه الذهبي أحد الأعلام الثقاة ... وهو خزانة علم ، ورحل الناس إليه : أحمد وإسحاق ويحيى والذهلي جعفر بن أبي عثمان الطيالسي قال : سمعت ابن معين يقول: سمعت من عبدالرزاق كلاماً يوماً ، فاستدللت به على تشيعه ، فقلت : إن أساتيذك الذين أخذت عنهم كلّهم أصحاب سنة : معمر ومالك وابن جريج وسفيان والأوزاعي ، فعمّن أخذت هذا المذهب؟ فقال : قدم علينا جعفر بن سليمان الضبعي ، فرأيته فاضلاً حسن الهدى ، فأخذت هذا عنه . وذكر رجل معاوية في مجلسه ، فقال عبدالرزاق : لا تقذّر مجلسنا بذكر ولد أبي سفيان . قال أحمدبن صالح : قلت لأحمد بن حنبل : هل رأيت أحسن حديثاً من عبدالرزاق ؟ قال : لا[٢] .

وأحمد بن حنبل يقرن عزمه على الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام

---

(١) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٩ .

(٢) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٩ .

بالمضي إلى عبدالرزاق إلى صنعاء بعد الحج ، وكان يرافقه يحيى بن معين ، ويشذ الرحال على ذلك ، بل إنّه يبقى على نيّته وهو يلتقي بعبد الرزاق في مكة . وإليك نص صالح بن أحمد : عزم أبي على الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام ، ورافق يحيى بن معين . فقال : نمضي إن شاء الله ، فنقضي حجتنا ، ونمضي إلى عبدالرزاق إلى صنعاء نسمع منه . فوردنا مكة ، وطفنا طواف الورود ، فإذا عبدالرزاق في الطواف يطوف ، فطاف وخرج إلى المقام فصلّى ركعتين وجلس ، فتممنا طوافنا أنا وأحمد وجئنا وعبدالرزاق جالس عند المقام . فقلت لأحمد : هذا عبدالرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهباً وجائياً ومن النفقة . فقال : ماكان الله يراني وقد نويت له نية أفسدها ولا أتمها[1] .

توفي عبدالرزاق سنة ( ٢١١ هـ ) ولذلك ترى أنّ في مسنده أحاديث تشتمل على فضائل أهل البيت . يقول الأستاذ محمد رجب البيومي في كتابه «ابن حنبل» : وقد لحظ بعض كتاب المغرب أنّ في مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية ، فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل علي وآل بيته مما لا نجد نظيرها في صحيح البخاري ، وذلك في عصر يُضطهد فيه العلويون ويناوئهم ، ويقف بالمرصاد لمن ينسب إليهم بعض الخير في قليل أوكثير ... ومعلوم أنّ المسند روي عن أولاده وأصحابه ، وجمع من قبلهم .

وصفوة القول ، أنّ أحمد في سعيه وطلبه للحديث والعلم اتّصل بالشيعة ، وتتلمذ على رجالهم . وإن كانت هذه العبارة لا تغني عن نتائج البحث والتعمق في حياته ، وقد اكتفينا بهذا القدر .

---

(١) الطبقات ج١ ص١٧٥ .

## خاتمة وخلاصة

رأينا أحمد في حياته ، ورافقناه في محنته[1] وذكرنا بعضاً من أخباره وسيرته ، واتّضح لنا نهجه ومنحاه العلمي ، وأن كثيراً من أخباره وما تتضمن صور عظمته كانت من إغراق الحنابلة في مدحه ، لأنّ أكثر ما أوردوه في ذلك هو من وحي الخيال وبدافع التعصب ، وقد نوّهنا بالمنامات وغيرها والتي يقصد الحنابلة في كثير منها ليس إلى رفع منزلة أحمد وتهويل مكانته فحسب؛ بل وإلى خدمة معتقداتهم في التجسيم . نورد لك منها زيادة ، فقد اشتهر عن أحمد الجهر بالرؤية حتى ينقطع نفسه ، والإصرار على ذلك . وراح أحمد يعضّد الرؤية في الآخرة برؤيا له إذ قال أحمد : رأيت الله عزّ وجلّ في المنام!! فقلت : يا ربّ ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إليك ؟ قال : بكلامي يا أحمد[2] .

وبإسناده قال أحمد بن محمد الكعدي : رأيت أحمد بن حنبل في المنام ، فقلت : يا أبا عبدالله ، ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي ، ثم قال : يا أحمد ضُربت فيّ ؟ قال : قلت : نعم يا رب . قال : يا أحمد ، هذا وجهي ، فانظر إليه ، قد أبحتك النظر إليه .

قال عبدالله بن الحسين بن موسى : رأيت رجلاً من أهل الحديث ـ توفي ـ فيما يرى النائم ، فقلت له : بالله عليك ما فعل الله بك ؟ قال : غفر الله لي . فقلت : بالله ؟ فقال : بالله إنه غفر الله لي . فقلت : بماذا غفر الله لك ؟ قال : بمحبتي

---

(١) راجع الجزء الرابع من «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» ص٢٤٧ .
(٢) الإحياء ج٣ ص٤٩٧ .

لأحمد بن حنبل . فقلت : فأنت في راحة ؟ فتبسم وقال : أنا في راحة وفي فرح[(١)] .

ويحدّث أحد شيوخهم : رأيت رجلاً بجامع الرصافة في شهر ربيع الآخر من سنة ستين وأربعمائة . فسألته فقال : قد جئت من ستمائة فرسخ . فقلت في أي حاجة ؟ قال : رأيت وأنا ببلدي في ليلة جمعة كأني في صحراء أو في فضاء عظيم ، والخلق قيام ، وأبواب السماء قد فتحت ، وملائكة تنزل من السماء تُلْبِسُ أقواماً ثياباً خضراً وتطير بهم في الهواء . فقلت : من هؤلاء الذين قد اختصوا بهذا ؟ فقالوا لي : هؤلاء الذين يزورون أحمد بن حنبل . فانتبهت ولم ألبث أن أصلحت أمري ، وجئت إلى هذا البلد ، وزرته دفعات ، وأنا عائد إلى بلدي إن شاء الله... اهـ[(٢)] . إلى ما هنالك من أمور لا تدخل في دائرة البحث التاريخي ، وهي عندهم من الأُسس المعتمدة في تكوين شخصية أحمد . فرؤياهم النبي المصطفى ﷺ ـ كما يدعون ـ وأنه أمرهم باتباع أحمد . هو عندهم كأمرهم في اليقظة ، وقد أثر ذلك في التحقيق التاريخي عن ترجمة أحمد .

وانتصار المحدثين على خصومهم المعتزلة خلق جواً من الاضطراب في أخباره وسيرته ، فتحامل خصومه ومغالاة أنصاره مع إقبال الدولة عليه ، أوجد فجوة كبيرة. كما أنّ إهمال العامل السياسي من قبلهم أدى إلى تعدد وجهات النظر في الواقع التاريخي ، على أنّ مشكلة خلق القرآن وقيام المأمون بإلزام الفقهاء في ذلك أوجد مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة

(١) الجرح والتعديل ج١ ص٣٠٨.

(٢) المناقب لابن الجوزي ص ٤٨٢.

في علم الكلام ، وبيان الكلام النفساني ، وتعلّقه بالذات .

كما أنّ الأسباب التي دعت المأمون إلى هذا الإلزام ، وحملته على نشر ذلك بالقوة كذلك تحتاج إلى دراسة واسعة .

ثم القول بخلق القرآن ، هل هو الإحداث ـ ولا شك أنه محدث ـ أم أرادوا الخلقة أو التكوين الحادث للكلام وهو من صفات الله ، وإن صفاته عين ذاته؟ وقد عرضناها في هذا الجزء بقدر ما تقتضيه ضرورة البحث .

وغير بعيد أنّ الحنابلة قد أوهموا على الناس في هذه المسألة ، وجعلوها في قالب آخر ، وأوردوها لهم بصورة ينكرها الجميع ، وذلك بتفسيرهم المخلوق بالمكذوب . فقد ورد في كثير من أقوال العرب اختلق كذا أي كذب فيه . وقد ورد عن الخليل بن أحمد ـ صاحب كتاب العين ـ أنه كان يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق ويقول : إن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب ، ولهذا يقال كلام خلقه فلان ـ أي تقوّله[1] ـ وقد مر بنا ذلك سابقاً .

وفي أيام المحنة أنف بعض الفقهاء لما سئل في القرآن قال : أصفه بأنه محدث ، ولا أقول بأنه مخلوق لقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾[2] .

فمعنى أنه مخلوق أي مكذوب وهو غير منزل . وغير بعيد على قوة دعاية الحنابلة وتغلغلهم في المجتمع أنهم أفهموا الناس بأن المعتزلة يذهبون إلى خلق القرآن أي إلى عدم كونه منزلاً من الله سبحانه وتعالى . وبهذا هبّت عواصف الغضب على المعتزلة ، وانتصر عليهم المحدّثون .

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ص١٤٥ .

(٢) الأنبياء : ٢ .

كما لا استبعد أن أكثر الحنابلة ـ الذين يقومون بنشر هذه الدعاية ـ لا يفهمون إلّا المعنى اللغوي، وهو أن المخلوق هو المكذوب، ولم يذهبوا مذهب المعتزلة في الكلام وما هو معنى ذلك.

وكيف يستبعد انتشار أمثال هذه الدعاية في عصر انتشر فيه الجهل والجمود الفكري، وأصبح الناس يسير أكثرهم وراء عاطفة عمياء لا يميز بين الحق والباطل؟ ولكن هلم فاعجب من رجل يدّعي الإلمام بالتاريخ، وكلّف نفسه كتابة التاريخ الإسلامي، ولكنه محى أكثر مما كتب، وأفسد أشياء كثيرة، وعقّد مسائل واضحة.

هذا الرجل هو جرجي زيدان، يعيش في القرن العشرين، ولكنه يعيش في عقلية قرون الجهل والجمود، فهو يذكر لنا في تاريخه الذي أسماه «التمدن الإسلامي»(١) أنّ المأمون تمسك بمذهب الاعتزال، وقرّب إليه أشياخه، وصرّح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء، وفي جملتها القول بخلق القرآن، أي أنه غير منزل.

فأنت ترى أن جرجي زيدان ينسب للمعتزلة إنكار نزول القرآن، وهذا كفر محض، وهو افتراء محض ناشئ من سوء الفهم، وعدم الإلمام بأطراف المسألة، وجهل بالمسائل الكلامية.

ولا نودّ هنا أن نقف مع مؤلّف التمدّن الإسلامي فنكشف أخطاءه المعتمدة وغيرها، فنحن قد سجلنا عليه الكثير من ذلك، ويكفي هنا تغييره لهذه المسألة، وتحويلها من الصراع الفكري الحاد إلى جمود لا يتعدى الخلاف بمفهوم اللفظ اللغوي الذي يجعل المسألة من أبسط المسائل وأوضحها. وإن

---

(١) التمدن الإسلامي ج٣ ص ١٤١.

إطلاق المخلوق على المكذوب أمر لا يحتاج إلى أبحاث علمية ومنازعات كلامية بين المعتزلة والمحدثين .

وكما قلنا إنّ الحنابلة قد انتصروا على خصومهم بما كان لكلمة مخلوق من دلالة ، وهي أنه مكذوب . وبهذا استطاعوا أن يحركوا شعور المجتمع ضدّهم . ولكن قوة الحكم وعنف المؤاخذة وحمل الناس قسراً على القول بخلق القرآن جعل للمعتزلة قوة يتحصّنون بها . حتى إذا حان الوقت ، وزال ذلك الحكم ، وتبدّل وضع الدولة ؛ فشل المعتزلة فشلاً ذريعاً ، ونالهم الأذى ، ونسب الناس إليهم كل قبيح . وكان لثبات أحمد ، وللظروف التي ساعدته على ذلك أثر في طلوع نجمه ، بعد أن أفل نجم المعتزلة بقيام المتوكل العباسي ، ورفعه للمحنة . ولعلّ من هذا الفهم لكلمة مخلوق ، واتّهام المعتزلة بأنّهم ينفون وجوده وتنزيله ،كان للمتوكل شأن بين المحدّثين ، فجمع العلماء من الفقهاء والمحدثين وكان فيهم ـ كما مر بنا ـ مصعب الزبيري ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإبراهيم الهروي ، وعبدالله وعثمان ابنا أبي شيبة ، فقسّمت بينهم الجوائز ، وأُجريت عليهم الأرزاق ، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ، وأن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية ، وأن يحدّثوا بالأحاديث في الرؤية . فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور ، ووضع منبراً ، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً . وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة ، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً .

ويلاحظ من هذا أنّ مشكلة خلق القرآن كانت قضية سياسية بدءاً وختاماً . فقد قام المأمون بفرض ما يرتئيه ، وحمل الناس قسراً على معتقده ، وامتحن الناس بعنف وشدة ، فقرّب من يقول بمقالته ، وعاقب من يخالفه بألوان العذاب . وعلى ذلك سار خَلَفُه ، وقد حاولوا جعل الاعتقاد بخلق القرآن

عقيدة رسمية؛ فقد كان أحمد بن أبي دؤاد يأمر المعلّمين في الكتاتيب أن يلقّنوا الصبيان أن القرآن مخلوق، وأن يصبح ذلك من الدروس التي يلزم تدريسها في معاهد التعليم؛ لينشأ الجيل الجديد على عقيدة الاعتزال التي فرضتها الدولة، وامتحن الناس بها.

أما في النهاية، أي في دور المتوكل، فكان الأمر كسابقه يتصف بالقهر والعنف والشدة، وحمل الناس على ما ترتضيه الدولة من القول: بأن القرآن غير مخلوق. وهكذا ضاع جوهر المسألة، وابتعدت عن مقوماتها العلمية وما تحتاج إليه من دراسة، وتقديم الطرق العلمية نفياً وإثباتاً. بل زاد الأمر تعقيداً باستعمال لفظة مخلوق أي مكذوب، وأُشيع في الناس أن المعتزلة يذهبون إلى أن القرآن غير منزل من الله تعالى. والمعروف أنّ المعتزلة على اختلاف فرقهم ومتكلّميهم لم يكن أحد منهم يذهب إلى ما اتهموا به من الطعن في القرآن والتشكيك في أنه منزل من عند الله، وقد صدروا في نظريتهم عن الصفات، ومنها صفة الكلام التي ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق عن إيمان صادق حرصوا فيه على تأكيد وحدانية الله وتنزيهه، حتى وسموا بأهل العدل والتوحيد.

وفي عهد المتوكل سار الناس على غير هديً ولا وضوح للمسألة، بل كان الأمر سياسياً وخارجاً عن دائرة النزاع العلمي الذي يؤدي إلى نتائج واضحة سلباً أو إيجاباً. ولعل أكثرهم يودّ التعرّف على حقيقة الأمر، ويكتم ذلك خوفاً من السلطة. ومن الأحداث ما يصرّح باعتلاج النفوس وازدحام الأذهان بالتساؤلات التي تدور بين طبقي رحى السلطة والتعنّت. فالإمام أحمد لا يني عن تكفير من تسوّل له نفسه الاستفسار أو تحرّي الحق، ولا يتردد في معاملتهم كالمُرتدّين، فكلام الله غير مخلوق، ومن قال أنه مخلوق فهو كافر

بالله العظيم ، ومن لم يكفّر قائله فهو كافر ، أو إنهم كفار يستتابون .

واستمرّ أصحابه على نهجه ،كما باتت فرص تحكّمهم في الناس من خلال السلطة أكبر . وورث أنصارهم هذا المنحى في التعنّت والتزمّت .

وإلى هنا نتوقف عن الحديث عن أحمد . . وننهي الجزء السابع من كتاب «الإمام الصادق» وسيليه الجزء الثامن بعونه تعالى وتوفيقه .

# الفهرس التفصيلي


تقديم ........................................ ٧

١ ـ الجمود الفكري ........................................ ٢١

٢ ـ خلق القرآن ........................................ ٣٩

٣ ـ البدع والضلالات ........................................ ٧٣

من هو المبتدع؟ ........................................ ٧٨

٤ ـ القصص والقصّاصون ........................................ ٨٩

خلاصة البحث ........................................ ١٢٥

الإمام الصادق عليه السلام والتفسير الصوفي ........................................ ١٣١

الأول : الحبّ ........................................ ١٥٤

الأمر الثاني ........................................ ١٥٧

أئمة ومذاهب ........................................ ١٨٩

أبو حنيفة ........................................ ١٩٣

الحيلة الشرعية ........................................ ٢٠٦

صلته مع العلويين ........................................ ٢١٥

ويقول الأُستاذ محمّد أبو زهرة: ........................................ ٢١٨

أبو يوسف ........................................ ٢٢٢

وفاته ........................................ ٢٥١

أولاده وأحفاده ........................ ٢٥٢
قبره ........................ ٢٥٢
أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) ........................ ٢٥٤
أولاده ........................ ٢٦٦
صالح بن أحمد بن حنبل ........................ ٢٦٦
عبدالله بن أحمد بن حنبل ........................ ٢٦٨
سعيد بن أحمد ........................ ٢٦٩
وفاته ........................ ٢٦٩
الحنابلة في ظل المتوكل ........................ ٢٨٠
أحمد والشيعة ........................ ٢٩١
خاتمة وخلاصة ........................ ٢٩٧